د. عبدالوهاب حميد رشيد

حضارة وادي الرافدين

ميزوبوتاميا

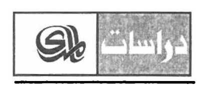


العقيدة الدينية.. الحياة الإجتماعية.. الأفكار الفلسفية



هذا كتاب ثقافي يُحاول تقديم قراءة موضوعية لأولى الحضارات البشرية التي بناها الرواد الأسلاف وظهرت متكاملة ناضجة في حدود ٣٠٠٠ ق.م والتي لا زالت تعيش في أفكارنا ومعتقداتنا وممارساتنا - بهذا القدر أو ذاك - بهدف المساهمة في التوعية الثقافية على طريق بناء وعي نقدي موضوعي باتجاه مراجعة الذات. من هنا تضمن هذا الكتاب سبعة عشر فصلاً تبدأ بالبيئة الطبيعية وعصور ما قبل التاريخ ولغاية عصر التاريخ والكتابة ونشوء أولى المجتمعات السياسية المنظمة (عصر فجر السلالات) والإمبراطوريات السومرية والآشورية والبابلية، وما سادها من التنظيمات القانونية وانتشار العلوم والمعارف، وطبيعة الحياة اليومية والعائلية والمعتقدات الدينية والأفكار الفلسفية والمناهج التحليلية.





اسم المؤلف : د . عبدالوهاب حميد رشيد
عنوان الكتاب : حضارة وادي الرافدين
ميزوبوتاميا
الناشر : المدى
الطبعة الاولى : سنة ٢٠٠٤
الحقوق محفوظة للمؤلف

Author:Dr.A.W.H.Rashid
Title : The Ancient Civilization of Iraq
MEZOPOTAMIA
Al- Mada P.C.
First Edition : 2004
Copyright (c) The Author

ISBN: 91-631-3565-5 SWEDEN
STOCKHOLM - SWEDEN 2003
TEL\ FAX: 00-46- 8540 - 62891

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
E-mail:almada112@yahoo.com

د. عبدالوهاب حميد رشيد

حضارة وادي الرافدين

ميزوبوتاميا

" العقيدة الدينية.. الحياة الاجتماعية.. الأفكار الفلسفية"



الإهـــداء

إلـــى

شعب العراق

المحتويات

المقدمة

هناك اتفاق عام على أن فهم الماضي فهماً موضوعياً نقدياً يسهل معرفة الحاضر والتخطيط للمستقبل. وهذا هو هدف رئيس من أهداف هذه الدراسة التي تُحاول تقديم قراءة موضوعية- قدر الإمكان- لأُولى الحضارات البشرية الناضجة التي تكونت في العراق القديم من خلال غربلة مختلف المصادر التي أُتيحت لها للتعرف على تلك الحضارة التي بناها الأسلاف وأخذت تشرق نورها منذ حوالي ٣٠٠٠ ق.م، وهي لا زالت تعيش معنا، بهذا القدر أو ذاك، في أفكارنا ومعتقداتنا وممارساتنا. ويرتبط بهذا الهدف المساهمة في التوعية الثقافية وبناء وعي موضوعي باتجاه نقد الذات. وفي سياق هذا الجهد تجري محاولة مناقشة أسئلة عديدة،منها: ما هو موقع هذه الحضارة في الحضارات السابقة واللاحقة عليها، وهي التي بنت أول مجتمع سياسي بأنظمته وقوانينه، وعلّمت البشرية القراءة والكتابة؟ وكيف نشأت هذه الحضارة وماتت، ولماذا، في حين شكلت جذور حضارات عصرية؟ ومن هم السومريون الذين أسسوا هذه الحضارة التي استمرت في أفكارها ومعتقداتها وانجازاتها في مختلف المراحل التالية لحضارة وادي الرافدين، رغم غيابهم عن المسرح السياسي وتولي أقوام أُخرى زمام هذه الحضارة؟ هل جاءوا من خارج البلاد أم أنهم كانوا أبناء أُولئك الرواد الذين خرجوا من كهوف كردستان العراق، بناة أُولى القرى الزراعية في تاريخ البشرية والتي امتدت تدريجياً شرقاً وغرباً وجنوباً؟ وما هي الفلسفة والأفكار والمعتقدات التي بنيت على أساسها مجتمعات هذه الحضارة؟ وكيف كانت العلاقات بين أنظمة الحكم التي تولّدت عنها من حكام وملوك، وحكام ومحكومين، ولماذا؟ بل وكيف كانت حياة إنسان حضارة وادي الرافدين ومعيشته، أفكاره ومعتقداته، مزاجه وسلوكه، ولماذا؟ وما هي طبيعة البيئة الاجتماعية التي أنشأتها هذه الحضارة، وهل نجد لها آثاراً في أفكار وممارسات

إنسان المجتمع العراقي الحديث؟ وما هي علاقة الديانة السومرية- ديانة حضارة وادي الرافدين- بالديانات الحالية التي نمارسها؟

وأخيراً، فإن مناقشة هذه الاسئلة بالعلاقة مع مسيرة حضارة وادي الرافدين بجوانبها المتعددة قد تجعل القارئ يُقارن بنفسه جوانب الاختلاف والاتفاق بين أفكار الأسلاف ومعتقداتهم وممارساتهم وأمزجتهم وسلوكياتهم بالعلاقة مع حياتنا المعاصرة.

تضمنت هذه الدراسة سبعة عشر فصلاً، بدأت أولا وبشيء من التركيز على البيئة الطبيعية (ف١) لأهميتها في حياة إنسان العصر الغابر، بخاصة. وبعد وصف تاريخي موجز لعصور ما قبل التاريخ (ف٢) والعصور التاريخية المتعددة بالعلاقة مع سلالات الحكم المختلفة التي تعاقبت في حضارة وادي الرافدين منذ عصر فجر السلالات- عصر دول المدن السومرية (ف٣)، تمت متابعة التطورات السياسية لهذه الحضارة بدءاً بإمبراطورية سرجون (العصر الاكدي) ومروراً بإمبراطورية أور الثالثة؛ ثم العصور الآشورية والبابلية ولغاية العصر البابلي الأخير- الحديث (ف٤-ف٩) الذي سجل سقوطه نهاية هذه الحضارة. وكانت الأفكار والمعتقدات الدينية. التي شكلت وعاء حضارة وادي الرافدين محل تركيز وأولوية في هذه الدراسة التي بدأت أولاً بدراسة الأُسس الدينية ودور المؤسسة الكهنوتية (ف١٠). وبعد عرض ومناقشة العناصر الرئيسة لهذه الحضارة بأنظمتها السياسية، الاقتصادية، القانونية، الاجتماعية، الحياة اليومية- المعيشية، علاوة على ما قدمتها من العلوم والمعرفة، وكذلك نماذج مكثفة من الملاحم والأساطير والقصص الأدبية (ف١١-ف١٦)، عادت في فصلها الأخير (ف١٧) إلى معتقدات هذه الحضارة وأفكارها الفلسفية وأخضعتها بشيء من التفصيل إلى المناقشة التحليلية- النقدية، لتنتهي هذه الدراسة بالخاتمة والمصادر.

الفصل الأول
البيئة الطبيعية

مقدمة في: تسميات بلاد الرافدين

اختلفت وجهات النظر بشأن اسم (العراق). يمكن مناقشة ثلاثة آراء متباينة في هذا الموضوع:[١] الأول يرى أنه من أصل عربي بمعنى(الشاطئ- الجرف) إشارة إلى سفوح الجبال المتاخمة لأطرافه الشمالية والشرقية. وكان أهل الحجاز يُسَمّون البلاد القريبة من البحر (عراق). وسُمّي العراق لتواجد عروق الشجر والنخيل. وهناك رأي شبيه ينسب اسم (العراق) إلى الصخور والمرتفعات الصخرية غرب البلاد الضاربة عروقها في الأرض، والعراق من العرق بمعنى الأصل والجذر.[٢] ويربط الثاني اسم العراق بأصل فارسي مشتق من (إيراه)- الساحل ثم عُرِّب إلى (إيران) و (عراق)، أو مأخوذ من الكلمة الفارسية (ايراك)- البلاد السفلى. ويقرن الثالث هذه التسمية بالتراث اللغوي الحضاري السومري أو تراث قوم آخرين قبلهم (الفراتيون) مشتق من كلمة (مستوطن) ولفظها (أوروك) URUK أو (أونوك) UNUK، وهي اللفظة التي سُميت بها المدينة السومرية المعروفة (الوركاء) ومدن سومرية أخرى.[٣] ورغم ما يُقال عن ضعف هذا الرأي بدعوى أن الاسم لم يطلقه سكان العراق القدماء على البلاد كلها، إلا أنه يبقى جديراً بالاعتبار، لأن الموضوع هو البحث عن أصل لفظة (العراق) التي ربما أُطلقت جزئياً ثم اتسعت ارتباطاً بظاهرة النمو والارتقاء، خاصة وأنه من غير المتوقع من سكان العراق القدماء إطلاق هذا المصطلح (العراق) على البلاد كلها في ظروف غياب مفهوم الدولة الحديثة.

ويبدو أن بلاد سومر SHUMMER أقدم تسمية معروفة أُطلقت على المنطقة الواقعة في أقصى جنوب البلاد، وتعني بلاد القصب. ومنذ أواسط الألف الثالث ق.م عندما تأسست مدينة أكد عاصمة للدولة الأكدية أُطلق على القسم الأوسط من العراق بدءاً من شمال بغداد قليلاً إلى جنوب مدينة بابل اسم (بلاد أكد). ومنذ مطلع الألف الثاني ق.م استخدم مصطلح (بلاد بابل) نسبة إلى مدينة بابل للدلالة على بلاد سومر وأكد.. بينما سُمّي الجزء الشمالي بـ (بلاد آشور) نسبة إلى عاصمتها و/ أو إلهها آشور، وعُرفت قبل مجيء الآشوريين بـ (بلاد سوبارتو)، وسمّاها البلدانيون بـ(الجزيرة)، كما عُرف السهل الرسوبي بـ (السواد) لكثرة وامتداد خضرته.[٤]

ويرى بعض المؤرخين أن استعمال الكلمة (عراق) ورد في العهد الكشي- العصر البابلي الوسيط- منتصف الألف الثاني ق.م، وأن أوضح استعمال شاع لهذا المصطلح بدأ في القرنين السادس والخامس ق.م حين أخذ استعماله يظهر في العصر الجاهلي.[٥] وهناك من يرى أن أول استخدام لمصطلح (العراق) يرقى تاريخه إلى فترة الاحتلال الساساني (٢٢٦- ٦٣٧م) وتكرر استخدامه في الشعر الجاهلي، لكنه لم يحمل معناه الحالي، بل اقتصر على الأقسام الوسطى والجنوبية للعراق الحديث. كذلك استخدم اسم (كلدية) CHALIDIA، أي بلاد الكلدانيين، للدلالة على بلاد بابل فقط. وكان البلدانيون ينعتونه أحياناً بـ (العراق العربي) تمييزاً عن (عراق العجم)- الجزء الجنوبي من إيران.[٦] وفي زمن ما بين القرنين الرابع والثاني ق.م ظهر استعمال الكتاب الأغريق والرومان لمصطلح (ميزوبوتاميا) MEZOPOTAMIA للدلالة على المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات من الشمال إلى حدود بغداد تقريباً، وتُقابل مصطلح (الجزيرة) عند البلدانيين، ثم شاع استخدام لفظة (ميزوبوتاميا) للدلالة على العراق كله. وبعد ترجمة التوراة إلى اللغات الأوربية المختلفة، استُخدم هذا المصطلح بالمعنى نفسه الشامل لكل البلاد.[٧]

ومع أن بلاد الرافدين تعني من الناحية اللغوية أرض ما بين النهرين (دجلة والفرات)، واتسعت جغرافياً لتشمل العراق بعامة، فهي تمتد إلى منطقة أكثر اتساعاً، بحيث تتجاوز جانبي النهرين العظيمين ولا سيما باتجاه الجنوب الشرقي، وتمتد عميقاً في بلاد إيران الحالية، وتؤلف سهلاً واسعاً يبلغ طوله ستمائة ميل من جبال أرمينيا في

الشمال الشرقي إلى الخليج العربي في الجنوب، وينتهي غرباً بالصحراء السورية. أما في الشرق فتحده الأراضي الإيرانية المرتفعة.[٨]

١- الموقع والمناخ:

رغم أن الإنسان يشكل العامل الحاسم في بناء الحضارة، فإن من الصعب اهمال دور البيئة الطبيعية وأهميتها في التأثير عليه وعلى حضارته، وبالنتيجة يعتبر بناء الحضارة حصيلة تفاعل مشترك بين الإنسان وبيئته.[٩] ومن المعلوم تعاظم تأثير البيئة الطبيعية بعواملها الجغرافية المختلفة كمقرر لسير الحضارة واتجاهها مع بداية هذه المسيرة، لذلك كانت آثار البيئة الطبيعية أكثر وضوحاً وقوة في العصور القديمة.

يقع العراق في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا. ويجري على طوله نهراه التوأمان (دجلة والفرات) من الشمال إلى الجنوب ليلتقيا في نهر واحد (شط العرب) الذي يصب في الخليج العربي بعد أن يمد الأرض بينابيع الحياة على جانبيه من حقول الحبوب والخضار وبساتين الفواكه وأشجار النخيل الباسقة، لتصبح من أخصب سهول الدنيا وأغنى بقاع الأرض. حتى قيل فيها "إن الإنسان استمد تصوره لجنة عدن، وهي غاية أرض النعيم، من مناظر المزروعات التي شهدها في أرض العراق."[١٠]

وكان لموقع العراق الجغرافي أثر مهم في سير تاريخه سواء من ناحية الطقس والمناخ والزراعة والحياة الاقتصادية بوجه عام أم من ناحية تركيب سكانه التاريخي واتصالاته بالبلدان الأخرى المجاورة. تجسَّد أثر الموقع في مناخه بظهور أُولى القرى الزراعية، فكانت أعظم ثورة اقتصادية نقلت البشرية من عصر جمع القوت إلى عصر انتاج القوت وبداية ظهور التجمعات البشرية قبل أكثر من عشرة آلاف سنة مضت. كما أن وقوع السهل الرسوبي- مهد الحضارة- بين منطقتين جغرافيتين تفتقران إلى الموارد الزراعية والمائية (المنطقة الجبلية في الشمال والشمال الشرقي، والمنطقة الصحراوية في الغرب والشمال الغربي) شكّل أبرز ظاهرة في تاريخ وادي الرافدين تمثلت في تتابع الهجرات البشرية إلى أرضه في مختلف العصور التاريخية.[١١]

لم تطرأ تغيرات جوهرية على أحوال البلاد المناخية منذ استوطن الإنسان السهل الرسوبي في الجنوب ما بين الألف السادس والألف الخامس ق.م. ونظراً لموقع البلاد في

القسم الجنوبي من المنطقة المعتدلة، لذلك يوصف مناخه بأنه من نوع مناخ الانتقال بين مناخ منطقة البحر المتوسط المعتدلة ومناخ المنطقة الصحراوية الحارة. وبصفة عامة يتصف مناخ العراق بأنه قاري شبه مداري، ويتميز بالتنوع تبعاً لاختلاف أقسام البلاد الطبيعية. وهنا يمكن ملاحظة ثلاثة أنواع متميزة: مناخ البحر المتوسط، مناخ السهوب، والمناخ الصحراوي. الأول مناخ المنطقة الجبلية شمال وشمال شرق العراق، يماثل مناخ البحر المتوسط حيث يكون الشتاء بارداً ممطراً وبمعدل ٤٠- ١٠٠ سم مع سقوط الثلوج أحياناً وتراكمها فوق سفوح الجبال العالية طوال العام والتي يصل ارتفاعها إلى حدود ٨٠٠٠- ١١٥٠٠ قدم، وانخفاض الحرارة إلى دون الصفر في أوقات عديدة، فيما يتصف الصيف باعتدال الحرارة وندرة ارتفاعها عن ٣٥ درجة مئوية. الثاني يسود المنطقة المتموجة شبه الجبلية (السهوب)، وهو مناخ انتقالي بين مناخ البحر المتوسط والمناخ الصحراوي. ويتراوح معدل سقوط الامطار فيها في حدود ٢٠- ٤٠ سم سنوياً تساعد على قيام حياة رعوية. الثالث المناخ الصحراوي، ويسود السهل الرسوبي والهضبة الغربية (البادية). ويمكن أن تصل الحرارة صيفاً الى ٥٠ درجة مئوية، وينخفض معدل سقوط المطر إلى ٥- ٢٠ سم سنوياً. عليه فالمناخ العام في العراق صحراوي؛ لأن الهضبة تشغل أكثر من نصف مساحة البلاد. كما تسقط الأمطار اعتيادياً خلال فصل الشتاء وأوائل الربيع وتقل كمياتها في الخريف. ويمكن اعتبار الخط المطري بمعدل ٣٠ سم سنوياً الحد الأدنى للزراعة المطرية. وتزداد كمية سقوط المطر مع الاتجاه من الجنوب نحو الشمال الشرقي لتتدرج من خمسة سنتمرات إلى مائة سنتمتر في السنة كما أنها تختلف من سنة لأخرى.[١٢]

أما الرياح فأغلبها شمالية غربية تهب اثناء معظم أيام السنة؛ ولها تأثير مهم على المناخ لحرارتها المنخفضة وتلطيفها الجو في فصل الصيف. بينما تهب الرياح الشمالية والشمالية الشرقية خلال فصل الشتاء ويصحبها انخفاض شديد في درجات الحرارة وتسبب أضراراً بالغة بالمنتجات الزراعية لا سيما الحمضيات وأشجار النخيل. أما الرياح الجنوبية الشرقية فتكون دافئة ورطبة نسبياً. كما تهب على جنوب العراق رياح جنوبية حارة ورطبة تحدث أحياناً حراً خانقاً. وتسبب الرياح أحياناً عواصف ترابية تتلف المحاصيل الزراعية خاصة الصيفية منها؛ ويكون هبوبها في الربيع والصيف حيث الأرض جافة والأمطار معدومة أو نادرة.[١٣]

٢- الأقاليم السطحية:

يمكن تمييز أربعة أقاليم سطحية في العراق: المنطقة الجبلية وشبه الجبلية، منطقة الجزيرة، البادية الغربية، السهل الرسوبي. وهي متموجة في الشمال، تتخللها الوديان العميقة في الوسط، ومنبسطة في الجنوب، في حين أن المنطقة الصحراوية تحد كامل الشاطئ الغربي للفرات وتمتد لمئات الأميال داخل شبه الجزيرة العربية.[١٤]

تغطي المنطقة الجبلية ومرتفعاتها المتموجة ٢٠٪ من مساحة البلاد الكلية، تمتد في جهات البلاد الشمالية والشمالية الشرقية لغاية حدودها المشتركة مع إيران وتركيا وسوريا، وتتلاشى عند حدود السهل الرسوبي والهضبة الصحراوية جنوباً وغرباً. تبدأ المنطقة المتموجة من سفوح الجبال إلى الغرب والجنوب الغربي من المنطقة الجبلية وتستمر في اتجاهها عبْرَ دجلة حتى حدود سوريا غرباً وحافة الهضبة الغربية في الجهة الجنوبية الغربية. وتتألف حدودها الجنوبية من سلاسل جبلية واطئة مثل سلسلة جبال حمرين وجبال مكحول والعطشان وتلعفر وسنجار. وهي صالحة للزراعة ولا سيما في أقسامها الشمالية حيث يبلغ معدل سقوط المطر ٥٠ سم سنوياً، مقابل ٢٠ سم في أقسامها الجنوبية. وتتخلل المنطقة وديان وسهول مثل سهل شهرزور وسهل رانية وسهل كركوك وسهل أربيل وسهل مخمور (تُقدر مساحتها زهاء ربع مساحة المنطقة)، واشتهرت بزراعة الحبوب، خاصة القمح والشعير معتمدة على الأمطار الشتوية. كما تخترق المنطقة كافة روافد دجلة وتمده بحوالي ٧٠٪ من مياهه.[١٥] وتجري باتجاه الانحدار العام للأراضي التي تسير فوقها إلى الجنوب الغربي، وهذه الظاهرة وفّرت فرص الاستفادة منها في العصر الحديث ببناء خزانات المياه والسدود (مشروع دوكان على الزاب الأسفل ومشروع دربندي خان على ديالى)، وتتميز بوفرة مياهها من أمطار غزيرة وينابيع وفيرة. وهذه البيئة ساعدت على نمو أشجار الفاكهة والحبوب في السهول والوديان، وانتشار الغابات على سفوح الجبال وتكاثر الحشائش والنباتات الطبيعية الأخرى وغير ذلك من مستلزمات الحياة، علاوة على كثرة الكهوف والمغارات التي اتخذ إنسان العصور الحجرية منها مأوى التجأ اليها منذ القدم (مرحلة جمع القوت). ثم طور إنسان الكهوف حياته عندما أخذ يستغل الأرض بمزاولة الزراعة وتربية الحيوان. وهذه الظروف الملائمة شجعته على ترك حياة الكهوف واللجوء إلى المستوطنات

المكشوفة تدريجياً وممارسة حياة الزراعة المستقرة، فظهرت أولى القرى الزراعية في العصر الحجري الحديث.[١٦]

الجزيرة، كما سبق الحديث، مصطلح جغرافي، أطلقه المؤرخون والجغرافيون على أرض ما بين الرافدين العليا، وهو يرادف التسمية الأغريقية (ميزوبوتاميا) في مفهومها الضيق القديم.[١٧] وتمتد بين مرتفعات مكحول سنجار شمالاً والسهل الرسوبي جنوباً ومجرى الفرات والحدود السورية غرباً وجبال حمرين شرقاً. والغالب في استعمال البلدانيين العرب أن الجزيرة تبدأ إلى الشمال من الخط المار بين الفلوجة أو هيت على الفرات إلى سامراء- تكريت على دجلة.[١٨] يتراوح ارتفاعه بين ٣٢٥ م عن سطح البحر في الشمال وبين مستوى سطح البحر قرب بحيرة الثرثار. ويستغرق كامل الـ ٢٥٠ ميلاً التي تفصل بين دجلة والفرات.[١٩] ويتكون سطحها من أراضٍ منبسطة تتخللها هضاب وروابي وكثبان رملية وأحواض وبحيرات وأودية ومنخفضات أهمها: منخفض الثرثار (المصرف الرئيس لمياهه بطول ٣٠٠ كم ومعدل عرضه ٤٥ كم). تم تحويل هذا المنخفض إلى خزان كبير لحفظ مياه دجلة وإنقاذ المدن والمزارع بما فيها بغداد من الغرق بعد إنشاء سدة سامراء (١٩٥٦) نتيجة شق قناة طولها ٤٠ كم لتحويل مياه الفيضان من دجلة نحو المنخفض، وتم إيصال هذا المشروع بترعة تربطه بنهر الفرات شمالي مدينة الفلوجة (١٩٧٧). وتزخر الجزيرة بكثرة مصادر مياهها من أمطار كافية للزراعة ومياه جوفية وفيرة هيأت لها الازدهار منذ عصور ما قبل التاريخ، دليل ذلك التلال الأثرية الكثيرة المنتشرة فيها. واشتهرت منذ أقدم الأزمنة لكونها من مناطق الاتصال المهمة بين العراق وسوريا وموانئ البحر المتوسط وبلاد الأناضول، وكانت من المصادر الرئيسة لهجرات القبائل من الجزيرة العربية إلى العراق.[٢٠] وأصبحت الجزيرة قلب المملكة الآشورية، وشكّلت جبالها المحيطة بها إلى الشرق والشمال الشرقي "مصدراً دائماً للنزاع بين حكام وادي الرافدين وسكان الجبال من البرابرة الذين دأبوا على التطلع بطمع نحو السهل المزدهر القريب وتهديده".[٢١]

تقع هضبة البادية (الهضبة الصحراوية- هضبة البادية الغربية) غربي العراق وتحتل أكثر من نصف مساحته الكلية (٦٠٪) ويتراوح ارتفاعها في حدود ١٠٠- ١٠٠٠م عن مستوى سطح البحر. وهي جزء متمم من بادية الشام وتمتد إلى قلب

الجزيرة العربية. يخترق المنطقة نهر الفرات من الشمال الغربي باتجاه الجنوب الشرقي. وتسقط أمطار قليلة بعنف في فترات قصيرة. تربتها كلسية أو رملية لا تساعد على نمو النباتات إلا في الواحات. يتخللها عدد من الكثبان الرملية، وتنتهي بمنخفضات واسعة (الحبانية، هور أبو دبس، الثرثار). شكلت تاريخياً مصدراً رئيساً لهجرات القبائل من الجزيرة العربية.[٢٢]

يقع السهل الرسوبي وسط وجنوبي العراق ومساحته خمس مساحة البلاد (٢٠٪)، طوله زهاء ٦٥٠ كم ويتسع عرضه إلى ١٤٠ كم ويضيق جنوباً إلى ٤٥ كم. تتميز تربته الغرينية بخصوبة متناهية متجددة سنوياً؛ وسميت بـ (أرض السواد) لكثرة نباتاتها. ويمتد على شكل مستطيل من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وهو عبارة عن دلتا كبيرة تبتدئ مع وصول نهري دجلة والفرات إلى منطقة هيت- سامراء وتتحدد بالمنطقة الجبلية شرقاً والبادية غرباً وتنتهي بالتقاء النهرين. ويتراوح ارتفاع السهل بين ١٠٠ م فوق سطح البحر ومستوى سطح البحر، لذلك يقل انحدارها مع الاتجاه جنوباً. ويلاحظ على بداية السهل ارتفاع وادي الفرات بالنسبة إلى وادي دجلة، بينما تنعكس هذه الظاهرة في الجنوب عند منطقة الكوت- الناصرية ليبدأ وادي دجلة بالارتفاع قليلاً مقارنة بوادي الفرات. تنبَّه العراقيون قديما إلى هذه الظاهرة فشقوا جداول كثيرة من الفرات باتجاه دجلة من فوق بغداد قرب الفلوجة، بينما أقاموا مشاريع الري في الجنوب من دجلة باتجاه الفرات، وهذا ما حصل حديثاً أيضاً كما في مشروع سدة الكوت (١٩٣٧). وكان لهذه الظاهرة علاوة على ظاهرة أن نهر الفرات أقل عنفاً في فيضانه من دجلة أثر مهم في تاريخ الاستيطان في السهل الرسوبي ونشوء الحضارة التي تركزت في وادي الفرات دون دجلة.[٢٣]

وفي القسم الجنوبي من دلتا النهرين تقع مناطق الأهوار التي تكوِّن جزءاً متميزاً من سطح العراق وتشكل زهاء ١٥ الف كم٢، ويعيش سكانها حياة بدائية مكيفة بصورة عجيبة إلى هذه البيئة الطبيعية الغريبة.[٢٤] "وقد كونت هذه المنطقة ببحيراتها الضحلة التي لا تُحصى، بمسالكها المائية الضيقة المنغلقة في غابات البردي الكثيفة، بثروتها الحيوانية الكثيرة من الجاموس والخنازير والطيور البرية والأسماك، ببعوضها وحرارتها الخانقة، واحدةً من أكثر مناطق العالم غرابة ومتعة وفتنة... وفي الحقيقة فإن

(المعدان)- أو عرب الأهوار- ما زالوا يحتفظون لدرجة ما بإسلوب حياة السومريين الأوائل الذين استوطنوا حافات هذه المستنقعات منذ أكثر من خمسة آلاف سنة."(٢٥)

وهكذا يتبين أن البلاد في إطار هذه الوحدة الظاهرية تبدو وكأنها أرض المتناقضات، فحتى على اعتبار السهوب الشمالية مقابل المستنقعات والأهوار الجنوبية مجرد تنوعات منطقية (إقليمية) للسهل الرسوبي الكبير، فإنه يبقى هناك بون شاسع بين طوبوغرافية ومناخ السهل الرسوبي والمنطقة الجبلية. "فطوال العهود التاريخية المختلفة للعراق القديم يمكننا أن نلاحظ نشوء تعارض بين بلاد سومر وأكد (المملكة البابلية) من جهة وبلاد آشور من جهة أخرى، والذي تكشف عنه التمايزات الحضارية التي تظهر أحياناً بشكلٍ صريحٍ وحادً تُعبر عنه الصراعات الطاحنة."(٢٦)

٣- الأنهار:

نشأت الحضارات الأولى الأصيلة قرب ضفاف الأنهار ومصبات المياه، تتقدمها حضارة وادي الرافدين التي ازدهرت منذ عصور ما قبل التاريخ. فعلى ضفاف النهرين وروافدهما تأسست أُولى القرى الزراعية، ومهدت الحياة الزراعية بدورها لظهور أقدم الحضارات البشرية. علاوة على الدور العظيم للرافدين في المواصلات الداخلية ونقل التأثيرات الحضارية للبلدان المجاورة.(٢٧) وتنطبق المقولة الشهيرة للمؤرخ الأغريقي هيرودوتس (مصر هبة النيل) على وادي الرافدين، لأنه هبة النهرين التوأمين: دجلة والفرات. فمنذ عصور ما قبل التاريخ قام النهران بترسيب كميات هائلة سنوياً من الطمي والغرين في قاع من الصخور الرسوبية يمتد من الشام حتى المرتفعات الإيرانية، "وصنعا وسط الصحارى سهلاً لا يُضارعه بالحجم والخصوبة أي سهل آخر على امتداد الألفين والثمانمائة ميل من الأرض المجدبة المحصورة بين النيل والسند."(٢٨)

ورغم المشكلات الضخمة التي خلقها النهران من فيضانات مدمرة وترسبات وملوحة، والجهود الجماعية الخارقة التي تطلبت مواجهتها، فقد بقي السهل الذي يرويه دجلة والفرات أرضاً زراعية غنية حتى الوقت الحاضر، مع أنه كان أكثر غنى في الأزمنة الغابرة قبل أن يطرأ عليه تصحر واسع النطاق. وكان بوسع سكان وادي الرافدين القدماء العيش بيسر على المحاصيل الزراعية من إنتاج أرضهم الطيبة التي

يخترقها النهران العظيمان واللذان خصهما الأسلاف الأوائل بالتقديس والتعظيم واعتبروهما من جملة آلهتهم. وتتوافر مادة تاريخية مهمة عن مشاريع الري القديمة في النصوص المسمارية، علاوة على آثار مشاريع الري القديمة، وهي توفر معلومات تاريخية حضارية جديرة بالاعتبار خاصة عند إقامة مشاريع الري الحديثة.[٢٩]

ليست تسمية النهرين من أصل سومري أو جزري، بل هي من تراث لغوي لقوم مجهولين، وربما تعود إلى أولئك الأوائل الذين عاشوا في أقصى جنوب السهل الرسوبي قبل السومريين ممن سموا بـ (الفراتيين). وترد عدة صيغ مسمارية في تسمية كل من النهرين مثل إدكنا IDIGNA، وإدكلات IDIGLAT، اشتق منها الاسم العربي لنهر دجلة: الجاري/ الراوي، و(بورانن) BURANAN، بوراتي BURATI أُخِذ منها الاسم العربي لنهر الفرات: الرافد/ الماء العذب.[٣٠]

يستمد نهرا دجلة والفرات مياههما من بلاد أوراتو (أرمينيا): الأول من بحيرة (وان) والثاني من جبال (أرارات)؛ يجريان في اتجاهين متعاكسين ويخرجان من هضبة الاناضول عبْرَ ممرين شديدي الانحدار. وبعد خروج دجلة من مرتفعات تركيا الجنوبية الشرقية، يدخل الأراضي العراقية عند بلدة فيشخابور ويلتقي بروافده تباعاً (الخابور، الزاب الكبير، الزاب الصغير، العظيم، ديالى). أما الفرات فيدخل الأراضي السورية أولا (قرب مدينة طرابلس- كركميش) ثم الأراضي العراقية عند قرية الحصبة. ويقع نحو ٤٥٪ من مجموع حوض النهرين داخل العراق، وبواقع ١٢٠٠ كم من طول الفرات (٢٣٢٠ كم) و ١٤١٨ كم من طول دجلة (١٧١٨ كم).[٣١]

وعند ظهورهما من منابعهما في جبال طوروس يبتعدان بمسافة ٢٥٠ ميلاً ثم يقتربان لتصل المسافة بينهما إلى حدود ٢٠ ميلاً قرب بغداد، ثم يبتعدان مرة أخرى ويلتحمان عند كرمة على بعد عشرة كيلومترات شمالي البصرة ونحو خمسين كيلو مترا جنوب القرنة، بعد أن كان النهران يلتقيان عند مدينة القرنة قبل حوالي مائة عام. ومن التقاء دجلة والفرات، مضافاً اليهما نهر الكارون، يتكون شط العرب بطول ٢٠٤ كم وعرض ٤٠٠ م عند مدينة العشار و ١٥٠٠ م عند مصبه في الخليج، وتستطيع البواخر الكبيرة أن تسير فيه. وتفيد ظاهرة المدّ في تسهيل الملاحة والري.[٣٢]

يختلف الفرات عن دجلة في مياهه وقلة تقلباته وقت الفيضان وزيادة طوله ومن ثم مساحة حوضه (٤٤٤ ألف كم٢) على مساحة حوض دجلة (٣٤٠ ألف كم٢). وهذا يعني أنه يغمر مساحات أكبر من الأراضي، وبذلك تميز الفرات بقدرات أكبر في مجال الزراعة والملاحة والاتصال الحضاري بين مدن العراق القديمة.[٣٣]

علاوة على أثر موقع العراق الجغرافي في مناخه وطقسه، عُرِفَ عن نظام نهريْه عدم انتظام فيضاناتهما وعنف هذا الفيضان وعدم ملاءمته لمواسم الدورة الزراعية، لأن فيضان النهرين مجتمعين في شهري نيسان وحزيران هو متأخر جداً بالنسبة للمحاصيل الشتوية ومبكر أكثر من اللازم للمحاصيل الصيفية. وكان المزارع في وادي الرافدين يواجه خطرين مريعين أكثرهما غدراً يتمثل في ملوحة التربة، ويتأتى الثاني من المعدل الهائل والمتقلب لفيضان النهرين.[٣٤]

تحمل أنهار العراق، لا سيما دجلة والفرات، كميات جسيمة من الترسبات (الطمي والغرين) قُدرت بحدود عشرة بلايين طن سنوياً وهي تعادل من ثلاثة إلى خمسة أمثال ما يحمله النيل سنوياً، يترسب ٩٠٪ منها في الأهوار ويترسب الباقي(١٠٪) في شط العرب والخليج العربي.[٣٥] وتسبب هذه الترسبات مشاكل جَمَّة وخطيرة تقود إلى ارتفاع قاع الأنهار والتأثير في التصريف الداخلي للمزارع وتكون الجزر الرملية في مجاريها وازدياد خطر الفيضان. ومن جهة أخرى تؤدّي إلى تقليل سعة الجداول وقنوات الري والاضطرار إلى إهمالها لتعذر تطهيرها وكريها بصفة مستمرة ليصبح شق جداول وقنوات جديدة أسهل وأقل تكلفة من تطهير تلك القديمة.

تُعتبر ملوحة التربة، وبالذات في السهل الرسوبي، من المشكلات الخطيرة التي جابهت العراقيين القدماء، وهي مستمرة حتى الوقت الحاضر في تهديدها لتربة منطقة الري. ومع أن هذه المشكلة ملازمة لنظام الري نفسه بسبب الأملاح المحمولة بمياه الأنهار، فهي بالنسبة للعراق تزداد خطورة وتعقيداً، خاصة في ظروف طبيعة الفيضانات المتأخرة وشدة الحرارة العاملة على سرعة التبخر وضعف جهاز التصريف (البزل). "لذلك فالمياه المتبخرة تترك خلفها مساحات بيضاء يخالها المرء في عز الصيف ثلوجاً."[٣٦] وكانت ملوحة التربة باعتقاد العراقيين القدماء من الآفات العقابية التي تسلطها الآلهة على البشر جراء شرورهم وآثامهم، وطريقة إلهية لإفنائهم (قصة الطوفان).[٣٧] ورغم أن

السومريين عرفوا نظام التبوير، (ترك الأرض وإراحتها لموسم زراعي أو أكثر)،[٣٨] لكنهم لم يتوصلوا لاكتشاف طريقة التصريف (البزل) لمعالجة الملوحة.[٣٩]

ذكر بعض الباحثين أن ملوحة التربة بدأت بالظهور منذ أواخر عصر فجر السلالات، بعد عام ٢٤٠٠ ق.م. وكانت من العوامل الحاسمة في تدهور السلطة السياسية، ثم زوالها من السومريين وانتقال الازدهار العمراني إلى الوسط والشمال من سومر. وتشير نتائج التحريات التاريخية عن هذه المشكلة،[٤٠] أن الوثائق الإدارية الخاصة بالزراعة في مدينة لگش السومرية (تلو- جنوب قلعة سكر- منطقة الناصرية على الفرات)، أواخر عصر فجر السلالات، تكشف عن ظهور الملوحة وتناقص الغلّة الزراعية، وأن أخطارها زادت بمرور الزمن وانتشرت إلى المنطقة الوسطى (بلاد أكد) في حدود ١٢٠٠- ٦٠٠ ق.م.[٤١]

بذل سكان وادي الرافدين جهوداً شاقة لترويض هذه البيئة النهرية، واستطاعوا منذ أقدم العصور مواجهتها بالطريقة الطبيعية لتنظيم مياه الفيضان بشبكة من القنوات والمخازن والسدود والنواظم. انعكست آثار هذا الصراع البشري مع الطبيعة في ظهور أولى المجتمعات السياسية. بل إنَّ جهود أُولئك الرواد برزت بتحويل بيئة وحشية عنيفة من الأهوار والمستنقعات والأحراش إلى بيئة معطاء[٤٢]. ويذكر Jacquetta Haw-kes(ص٢٣): أن الزائر لمنطقة سومر في الصيف- حيث لم يتبدل المناخ منذ الألف الرابع ق.م- ويرى أنها كانت مهد الحضارة، سيصاب بالدهشة والرعب.. ويقول كافن يونغ في كتابه العودة إلى الأهوار " تشكلت هذه الحضارة العظيمة في ظروف غير ملائمة، على حافة الأهوار- وحتى في وسطها...، وحيث تصل درجة حرارة الصيف إلى ١٢٠° فهرنايت مصحوبة برطوبة كثيفة تجعل التنفس، فضلاً عن العمل البدني، أمراً في غاية الصعوبة".

وهذه البيئة القاسية وآثارها المدمرة، بقدر ما كانت عاملاً مهماً في نشوء الحضارة، ساهمت أيضاً بزوالها تدريجيا في ظروف عقيدة القوم التي نبعت من هذه البيئة. تجسَّدت حصيلة الفيضانات المدمرة والملوحة وتحول مجرى النهرين في واحدة من نتائجها الخطيرة إلى ظاهرة متكررة هي ترك مناطق الاستيطان القديمة والانتقال لأراضٍ جديدة لشق وبناء مشاريع ري جديدة، بما رتبته هذه الظاهرة من التأثير باتجاه عدم

الاستقرار السكاني والسياسي[٤٣]. "كما شكلت... عوامل كمنت فيها جذور الحرب الأهلية والوحدة السياسية على السواء."[٤٤]

من المعروف أن حضارة وادي النيل تضاهي حضارة وادي الرافدين من حيث القِدَمْ والاعتماد على نظام الري، لكن الفروقات شاسعة بين نظام الري وعوامل البيئة الطبيعية في كل منهما، حسبما تلخصها السطور التالية:[٤٥]

* يأخذ نهر النيل مياهه من البحيرات العظمى شرقي إفريقيا التي تلعب دور المنظم، وبذلك يتميز بمعدل فيضان سنوي ذي حجم ثابت تقريباً، بينما يلاحظ على نهري دجلة والفرات مشتركيْن عدم إمكان التكهن بقوة فيضاناتهما، فهي تعتمد على كميات الثلوج والأمطار الساقطة على جبال أرمينيا وشمال العراق المتفاوتة سنوياً. وفي حين أن مناسيب المياه المنخفضة تعني- إذا استمرت عدة سنين- القحط والمجاعة، فإن حدوث فيضان كبير واحد يكفي لإحداث الدمار الهائل. "ويُعتقد أن هذين الخطرين (الملوحة والفيضان) هما سر ذلك (التشاؤم المتأصل) الذي يميز... فلسفة سكان وادي الرافدين القدماء"[٤٦]. يُضاف إلى ذلك أن فيضان النيل يُلائم الدورة الزراعية، بينما فيضان الرافدين هو عكس الدورة الزراعية. وهكذا، فرغم أن كلتا الحضارتين هما حضارتا ري، بيد أن نظام الري في حضارة وادي الرافدين أكثر مشاكل وأصعب تنظيماً. "بحيث لا يسع المرء المتتبع لتاريخ هذه الحضارة إلا أن يُقدر ما بذله سكان العراق القدماء من جهود جبارة للسيطرة على نهرين من أشد أنهار الدنيا عنفاً"[٤٧].

* إن الاختلاف المتضاد لهذه البيئة الطبيعية بين الهدوء والانتظام وبين العنف والتدمير انعكس بنفس المواصفات تقريباً في المقومات الحضارية- الفنية والأدبية والسياسية- في كل من الحضارتين. تميزت حضارة وادي النيل بطابع الهدوء والشعور بالطمأنينة بحيث أن أحداث الخلق في أساطير الخليقة لهذه الحضارة تمَّت بهدوء بمجرد إرادة الآلهة، فكان أول إله خالق ملكاً والفرعون إلهاً. بينما تحققت عملية خلق الكون في حضارة وادي الرافدين خلال صراع طويل وحرب رهيبة بين مجموعتي الآلهة القديمة والحديثة (ملحمة الخليقة البابلية). وبعد حسم الحرب تقرر خلق الإنسان.

* ومع أن بعض ملوك وادي الرافدين قُدسوا وأُلِّهوا، بيد أن الملك ظلَّ متصفاً بصفته البشرية إلى آخر أدوار تلك الحضارة، فلم يميزه عن البشر الآخرين سوى أن الآلهة التي بيدها الحكم المطلق قد اصطفته ملكاً لحكم الناس بالنيابة.

* كانت الصفة الغالبة على آلهة وادي الرافدين هي القوة والبطش والتقلب وإنزال العقوبات المدمرة من فيضانات (الطوفان) وملوحة وأمراض. وهكذا فلا عجب أن تخلو حضارة وادي النيل من أخبار الطوفان في حين يشكل الطوفان موضوعاً رئيساً في حضارة وادي الرافدين. ويرتبط بذلك أن الطابع العام لحضارة وادي الرافدين اتصف بالعنف والتشاؤم والتأزم وتوقع المفاجئات والقلق من المستقبل المخيف.

* كذلك اختلفت نظرة الحضارتين إلى عالم ما بعد الموت. فالفرد في حضارة وادي الرافدين شغلته مصاعب الحياة الدنيا وما تطلبته من جهود في صراعه للسيطرة على بيئته القاسية عن التفكير في الحياة الأخرى واعتقاد الخلود فيها، فجاءت فكرة القوم غير واضحة عن وجود دار للثواب والعقاب بعد الموت. بل أن عقاب الآلهة وثوابها يتحققان في هذه الدنيا. بينما شُغِل الفرد في حضارة وادي النيل بأمر الحياة الأُخرى ونيل الخلود فيها. ظهر هذا واضحاً في الآثار التي خلّفتها هذه الحضارة: القبور الضخمة (الأهرامات)، التحنيط، المحتويات الثمينة المتروكة في هذه القبور، بحيث يصح القول إن الغالبية العظمى من آثار حضارة وادي النيل وجدت في القبور.

* وبالعلاقة مع الموقع، يُعد وادي الرافدين أرضاً مفتوحة على الخارج بالمقارنة مع وادي النيل المقفل تقريباً. لذلك تعرَّض وادي الرافدين إلى هجرات الأقوام الكثيرة والغزوات العنيفة واختلاط السكان وما استتبع ذلك من عنف وتدمير وتطور وتبدل في التكوين الاجتماعي- السياسي وظهور ذلك في سير حضارته. "إننا نعرف بأن كافة مدن ما بين النهرين الكبيرة والصغيرة قد دُمِّرَتْ لمرات عديدة بواسطة الحروب"(٤٨).

هوامش الفصل الاول

(١) باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد ١٩٨٦، ص٩- ١٠ . . . سليمان، عامر، العراق في التاريخ القديم، الموصل ١٩٩٢، ص١٥، الهامش(٢) .

(٢) IRAK,Utrikespolitiskainstitutet, Stockholm,1995.p.4.

(٣) الدباغ، تقي، "البيئة الطبيعية والانسان"، حضارة العراق، ج١، بغداد ١٩٨٥، ص١٢- ١٤ . . . باقر، طه، ص١٠ . . . سليمان، عامر، ص١٥ .

(٤) باقر، طه، مرجع، ص١٢- ١٤ .

(٥) نفسه ، ص٩- ١٢ .

(٦) عبدالواحد ، فاضل (و) سليمان ،عامر ، عادات وتقاليد الشعوب القديمة ، بغداد ،١٩٧٩ ، ص١٤ .

(٧) باقر ، طه ، ص١٣ . . .سليمان ،عامر ، ص١٤- ١٦ . . . بوستغيت ،نيكولاس ، حضارة العراق وآثاره "تاريخ مُصوَّر" ، (مترجم) ، بغداد ، ١٩٩٢ ،ص١٢ . . .وايضاً De Mieroop,Marc Van,The Ancient Mesopotamia City,Uk,1997, p..xii...,
Hawkes, Jacquetta, First Great Civilizations, London,1973, p.24.

(٨) بارو ، اندري ، سومر فنونها وحضارتها ، (مترجم) ، بغداد ،١٩٧٧ ، ص ٨٦ .

(٩) الدباغ ، تقي ، ص١٣. . . باقر ، طه ، ص٨ .

(١٠) باقر ، طه ، ص٢١- ٢٢ .

(١١) سليمان ، عامر ، ص٢٠ . . . باقر ، طه ، ص٨٥ . . . الدباغ ، تقي ، ص١٦ . . . نفسه ، " العراق في عصور ما قبل التاريخ" ، العراق في التاريخ ، بغداد ،١٩٨٣ ، ص ٢٢- ٢٣ .

(١٢) رو ، جورج ، العراق القديم ، الطبعة الثانية ، (مترجم) ، بغداد ،١٩٧٧ ، ص٢٦. . . الدباغ ، تقي ، العراق في التاريخ ، ص٢٥- ٢٦ (و)٣٦ . . . باقر ، طه ، ص٢٨ ، ٣٤. . . سليمان ، عامر ، ص٢٧ . . . وايضاً TheFirstIm-
pire,byPostage,Nicholas,1977,p.1.

(١٣) الدباغ ، تقي ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٢٤- ٢٥ .

(١٤) رو ، جورج ، ص٢٩ .

(١٥) الدباغ ، تقي ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٣٠ .

(١٦) باقر ، طه ، ص٢٨. . . سليمان ، عامر ، ص٢٣- ٢٤ .

(١٧) الدباغ ، تقي ، العراق في التاريخ ، ص٢٦ .

(١٨) باقر ، طه ، ص٢٧ .

(١٩) رو ، جورج ، ص٣٠ .

(٢٠) اوبنهايم ، ليو ، بلاد ما بين النهرين ، (مترجمم) ، بغداد ،١٩٨١ ، ص٣٢- ٣٣ . . . الدباغ ، تقي ، العراق في التاريخ ، ص ٢٧ . . . باقر ، طه ، ص ٢٧- ٢٨ .

(٢١) رو ، جورج ، ص ٣٢ .

(٢٢) الدباغ ، تقي ، العراق في التاريخ ، ص٢٦ . . . باقر ، طه ، ص ٢٧ . . . سليمان ، عامر ، ص٢٥ . . . الدباغ ، تقي ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٣١ .

(٢٣) باقر ، طه ، ص٢٦ . . . الدباغ ، تقي ، حضارة العراق ، ج١ ، ص ٣٥ .

(٢٤) بوستغيت ، نيكولاس ، ص٢٤ .

(٢٥) رو ، جورج ، ص٣٢ .

(٢٦) نفسه ، ص٣٢-٣٣ .

(٢٧) غولايف ، فاليري ، المدن الاولى ، موسكو ،١٩٨٩ ، ص٢٠ . . . الدباغ ، تقي ، العراق في التاريخ ، ص ٣٦ . . . الدباغ ، تقي ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٤٦ .

(٢٨) رو ، جورج ، ص٣٣ .

(٢٩) باقر ، طه ، ص٤٢ .

(٣٠) الدباغ ، تقي ، العراق في التاريخ ، ص٣٨- ٣٩ . . . بوستغيت ، نيكولاس ، ص١٣ . . . الدباغ ، تقي ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٤٧ .

(٣١) الدباغ ، تقي ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٤٧- ٤٩ . . وايضاً Robinson, Jr., Charles Alexander, Ancient History from Pre-historic Times to the Death of Justinian, London,1976, p.33-34..The City in the Ancient World,byHammonds,Mason, Harvard Univ.,USA,1972.

(٣٢) الدباغ ، تقي ، العراق في التاريخ ، ص٣٨-٣٩ (٥٠) . . . رو ، جورج ، ص٢٤. . . بوستغيت ، نيكولاس ، ص١٣ .

(٣٣) الدباغ ، تقي ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٤٧ . . . نفسه ، العراق في التاريخ ، ص٣٨- ٤١ . . . وايضا Haw-kes,Jacquetta,p.19.

(٣٤) باقر ، طه ، ص٣٦ . . . ، اوينهايم ، ليو ، ص٥٣ . . . ، رو ، جورج ، ص٢٦- ٢٧ .

(٣٥) باقر ، طه ، ص٣٩ . . . ، الدباغ ، تقي ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٣٦ .

(٣٦) رشيد ، عبد الوهاب حميد ، مستقبل العراق ، دمشق ، ١٩٩٧ ، ص٣٠ .

(٣٧) باقر ، طه ، ص٤٠- ٤١ .

(٣٨) كلنغل ، هورست ، حمورابي ملك بابل وعصره ، (مترجمم) ، بغداد ، ١٩٨٧ ، ص٢١- ٢٢ . . . ، رشيد ، عبد الوهاب حميد ، ص٣١ . . . ، الدباغ ، تقي ، العراق في التاريخ ، ص٢٢ .

(٣٩) باقر ، طه ، ص٤١ . . . ، رو ، جورج ، ص٢٦ .

(٤٠) مجلة سومر ، المجلد ١٣/١٩٥٧ والمجلد ١٤/ ١٩٥٨,(باقر ، طه ، ص٤١) .

(٤١) رو ، جورج ، ص٥٧٦ ، الهامش ١١ . . . ، باقر ، طه ، ص٤١ .

(٤٢) باقر ، طه ، ص٣٥ . . ولمزيد من التفصيل في وصف منطقة سومر ،انظر : بونغ ، كافن ، العودة الى الاهوار ، مترجم ، دار المدى للثقافة والنشر ، الطبعة الاولى ، دمشق ، ١٩٩٨ .

(٤٣) اوينهايم ، ليو ، ص٥٤ . . . ، باقر ، طه ، ص٣٦ .

(٤٤) رو ، جورج ، ص٢٧ .

(٤٥) باقر ، طه ، ص٣٦- ٣٨ . . . ، الدباغ ، تقي ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٥٥ . . . ، وايضا Postage, Nicholas,p.7..,Kramer, Samuel Noah,"TheSumerian List King", Problems in Ancient History, p.1.., Hawkes, Jacquetta, p.12,92.

(٤٦) رو ، جورج ، ص٢٧ .

(٤٧) باقر ، طه ، ص٣٦ .

(٤٨) اوينهايم ، ليو ، ص٢٢ .

الفصل الثاني
عصور ما قبل التاريخ

١- العصور الحجرية في العالم:

يُقصد بعصور ما قبل التاريخ Pre-History تلك المرحلة الزمنية الطويلة من تاريخ البشرية قبل أن يهتدي الإنسان إلى اختراع وسيلة التدوين (الكتابة). لذلك تعتمد دراسات هذه العصور على الدلالات الأثرية والأنثروبولوجية التي يكتشفها علماء الآثار وعلماء الإنسان. وهي تختلف عن الدراسات التاريخية التي تعتمد الوثائق المدونة. كما درج الباحثون على تسمية عصور ما قبل التاريخ بـ (العصور الحجرية) Stone Ages، لأن الإنسان في هذه العصور صنع آلاته وأدواته من الحجارة، رغم استخدامه كذلك وبقدر أقل العظام والقرون والأصداف والأخشاب. وتمتد هذه العصور منذ أقدم الآثار والمخلّفات البشرية المكتشفة لغاية اكتشاف واستخدام الإنسان للمعادن.[١]

ويرادف مصطلح بداية التاريخ طلائع نشوء الحضارة في مراكز الحضارات القديمة الأولى، وأقدمها حضارتا وادي الرافدين ووادي النيل حيث تنتهي عصور ما قبل التاريخ فيهما بحدود مطلع الألف الثالث ق.م. ويرتبط بذلك أن نهاية عصور ما قبل التاريخ وبداية العصور التاريخية (ظهور الكتابة) تختلف باختلاف البلدان والمواقع، فهي تحققت في القرن التاسع أو الثامن ق.م في اليونان، وتأخرت في أوربا وأمريكا الشمالية إلى القرن الأول ق.م، ولم تتعدَّ الألف الأول ق.م في شمال افريقيا.[٢]

امتدت عصور ما قبل التاريخ مسافة زمنية سحيقة استغرقت الجزء الأعظم من حياة الإنسان. قُدِّر عمر الأرض بحدود ٣٣٥٠ مليون سنة، بينما أعطى الفلكي

البريطاني الشهير Sir James Jeans الأرقام التالية: عمر الأرض حوالي ٣٠٠٠ مليون سنة.. عمر الحياة على الأرض أكثر من ٣٠٠ مليون سنة.. عمر الإنسان على الأرض بحدود ٣٠٠٠ آلاف سنة.. عمر الفلك حوالي ٣٠٠٠ سنة.. عمر التلسكوب الفلكي حوالي ٣٠٠ سنة. وإذا علمنا أن عمر أقدم الحضارات البشرية (واديا الرافدين والنيل) قرابة خمسة آلاف سنة، عندئذ فهي تشكل ٢٥٠ر٠٪ عند تقدير عمر الإنسان بمليوني سنة و ١١٠ر٠٪ إذا قُدِّر بثلاثة ملايين سنة. بمعنى أن العصور الحجرية شغلت أكثر من ٩ر٩٩٪ من تاريخ البشرية على الأرض قياساً بالزمن الحاضر.[٣]

وفي هذه الحقب المظلمة الممتدة حقق الإنسان أثناء نموه البيولوجي الطويل تطوراً حيوياً رائداً في نمو حجم دماغه والمقدرة على الوقوف والسير على القدمين والقدرة على تحريك أصابع اليد وضم الابهام اليها. هذه التطورات سهَّلت عليه صنع أدواته وآلاته، يُضاف إلى ذلك ابتكار اللغة التي ساعدته على التفاهم مع الآخرين من بني جنسه والانتظام في جماعات للحصول على طعام أفضل ودفاع أقوى ضد الخطر. وبفضل هذه التطورات العقلية والبدنية صار سيد الكائنات. وشهدت بدايات هذه العصور أثناء تطوره الحيوي أربعة أنواع بشرية: القرد البشري الجنوبي- جنوب وشرق افريقيا- قبل حوالي ١٧٥٠ الف سنة، القرد المنتصب القامة- إنسان جاوة وإنسان الصين- عاش قبل أكثر من نصف مليون سنة، إنسان نياندرتال المتوحش قبل ١٠٠- ٣٥ ألف سنة مضت، والإنسان الحالي (الإنسان العاقل) Homo Sapiens الذي يسود الكرة الأرضية بعد أن انقرضت الأنواع الثلاثة السابقة. وخلال هذه الفترة الطويلة جداً اكتشف الإنسان القديم النار وصناعة الأسلحة والزراعة وتدجين الحيوانات والبناء والتعدين واختراع العجلة والفخار والحياكة.[٤]

تعارف الباحثون على تقسيم العصور الحجرية إلى ثلاث حُقَبٍ رئيسة وتخمين فتراتها، لتبدأ قبل أكثر من نصف مليون سنة وتنتهي في حدود ٢٠- ١٠ آلاف سنة ق.م باختلاف المصادر،[٥] وهي: العصر الحجري القديم/ الأدنى، العصر الحجري الوسيط، والعصر الحجري الحديث/ الأعلى.

عاش في العصر الحجري القديم (قبل ٥٠٠- ٢٠٠ ألف سنة) مخلوقات شبه بشرية، واستخدم الإنسان الآلات والأدوات الطبيعية من حجارة وأغصان قبل أن يهتدي

إلى صنعها في الجزء الأخير من هذه الحقبة. وفي العصر الحجري الوسيط (قبل ١٥٠-١٢٠ ألف سنة) ظهر إنسان الكهوف وأفضل من يمثلهم إنسان (النياندرتال) المتوحش المنقرض. وهو عصر تمهيدي بين الاقتصاد المستهلك (جمع القوت) والاقتصاد المنتج (انتاج القوت)- الزراعة والتدجين/ الرعي. وبدأت مبادرات الإنسان ترك الكهوف والعيش في المواقع المكشوفة ومحاولة زراعة نباتات برية وترويض بعض الحيوانات. تميز العصر الحجري الحديث- قبل حوالي ٣٥ الف سنة- بظهور الإنسان العاقل في أوربا وآسيا وشمال افريقيا.[٦] يؤشر هذا العصر حصول ثورة اقتصادية عظيمة تجسَّدت في اكتشاف وممارسة الزراعة والتدجين نهاية هذه الحقبة في حدود لا تقل عن عشرة آلاف سنة مضت. وهذا التطور "لم يصل إلى أوربا حتى عام ٣٠٠٠ ق.م بعد أن تجذَّر في منطقة الشرق الأدنى قبل ذلك التاريخ بوقت طويل".[٧] وبذلك سجَّلت هذه الحقبة انتقال الإنسان من مرحلة جمع القوت إلى مرحلة إنتاج القوت، وتركه الكهوف للاستقرار في الأراضي المكشوفة المنبسطة قرب مجاري ومصبّات المياه. امتدت آثار هذه الثورة الاقتصادية لتدفع بالإنسان تدريجياً العيش في مجموعات بشرية مستمرة في التوسع وظهور المجتمعات السياسية المنظمة. أما أين تم اكتشاف الزراعة؟ فالإجابة عليها لا زالت غير محسومة، "لأنَّ كلاً من العراق وفلسطين يحق لهما الادعاء أنه امتلك أقدم القرى الزراعية." ولكن "يمتاز العراق على فلسطين في هذا الشأن بامتلاكه أربعة مواقع يقع كل منها قرب الآخر في شماله الشرقي وتُصور بمجموعها نقطة التحول من العصر الحجري الوسيط إلى العصر الحجري الحديث بشكل قاطع."[٨]

وفي النصف الثاني من العصر الحجري الحديث اكتشف الإنسان استخدام المعادن فسميت الحقبة بـ (العصر الحجري- المعدني). سُميت هذه الحقبة أيضاً (عصر ما قبل السلالات). وهو عصر تمهيدي لقيام الحضارات التاريخية، شهد ازدياد القرى الزراعية وظهور المدن الصغيرة في الشرق الأدنى كالعراق وسوريا ومصر وإيران، وقيام المبادلات التجارية وظهور بدايات تقسيم العمل والتخصص وتعاظم حركة تنقلات الأقوام.

تتطابق العصور الحجرية القديمة من الناحية الجيولوجية مع العصور الجليدية Ice Ages التي شهدت أربع حُقَب زحفت خلالها الثلوج في المناطق الشمالية من نصف الكرة الشمالي حتى خط عرض ٤٥ درجة شمالاً متضمنة قارة أوربا وأمريكا الشمالية.

بدأت منذ حوالي نصف مليون سنة وانتهت في حدود ١٦ ألف سنة ق.م، وسُميت هذه العصور الجليدية بأسماء مناطق الثلاجات في جبال الألب: كنز GUNZ، مندل MIN-DLE، رس RUS، ورم WURM[٩].

كان المناخ في المناطق الجليدية بارداً جداً، وهذه البرودة أثرت على الحياة النباتية والحيوانية والبشرية. لكن هذه العصور الجليدية الأربعة تخللتها ثلاث حقب شهدت خلالها أوربا وأمريكا الشمالية الدفء والجفاف النسبي. بينما شهدت المناطق الجنوبية الواقعة تحت خطوط الجليد بضمنها الشرق الأدنى- التي لم يصل اليها الزحف الجليدي- عصراً غزيراً بالأمطار Plunial Period. حتى الصحاري القاحلة حالياً مثل صحراء شبه الجزيرة العربية والصحراء الأفريقية كانت تتمتع بمياه وفيرة ساعدت على نمو النبات والحيوان، واستطاع إنسان العصر الحجري أن يعيش في تلك المروج الخضراء تاركاً أدواته وآلاته. بينما قابلت حقب الدفء والجفاف النسبي الغربية فترات من الجفاف في المناطق الجنوبية ومنها منطقة الشرق الأدنى مثلما هو حاصل حالياً. ومع استمرار فترات الجفاف والحرارة بدأت عملية التصحر وظهور الصحاري[١٠] .

٢- العصور الحجرية في وادي الرافدين

بدأ الإنسان القديم حياته وأقام مستوطناته في شمال البلاد واستمر في تجمعاته لتكبر تدريجياً وتمتد إلى المناطق الجنوبية. وأثناء تحركه من الكهوف الشمالية والشمالية الشرقية للمناطق المكشوفة القريبة من مجاري الأنهار، جاب بادية الرطبة والأقسام الغربية من البلاد، وترك مخلفاته (آثار حجرية وهياكل عظمية)[١١].

تميز مناخ بلاد الرافدين في العصور الجليدية بغزارة الأمطار حتى إن البوادي القاحلة حالياً كانت آنذاك سهوباً عامرة بالنبات والحيوان ومجالاً ملائماً لاستيطان الإنسان. ومع حلول الحقبة الأخيرة من الجفاف المستمر، فإنها دفعت إنسان الكهوف في مرحلة جمع القوت إلى انتاج قوته. ومع تعثر الزراعة المطرية في كثير من المواقع في ظروف اتساع التجمعات البشرية وامتدادها وحلول فترة الجفاف تدريجياً، أخذ إنسان العصور الحجرية في البحث عن مناطق أُخرى تصلح لحياته الزراعية، فركن إلى الهجرة نحو وديان الأنهار، ودخلت طلائع المستوطنين السهل الرسوبي (٦٠٠٠- ٥٠٠٠ ق.م) في تجربة قاسية فرضتها البيئة الجديدة لأغراض الزراعة المروية.[١٢]

لم يتم العثور على آثار إنسان العصر الحجري القديم حتى الآن في وادي الرافدين، بينما عُثِرَ على آثار العصر الحجري الوسيط في عدد من الكهوف والمواقع الاستيطانية شمال العراق تعود أقدمها إلى بداية هذا العصر. تُشير آثار الوجود البشري المكتشفة في كهف (بردة بلكا- ميل ونصف الميل شمال شرقي جمجمال بين كركوك والسليمانية) إلى نحو ١٢٠ ألف سنة مضت. وآثار سكن في كهف (هزار مرد- ١٢ ميل جنوب السليمانية)، وكهف (شانيدر- وادي الزاب الكبير، قرب راوندوز) لما قبل ٦٠ ألف سنة مضت. واكتشف ضمن الهياكل العظمية في كهف شانيدر على إنسان (نياندرتال)- المتوحش المنقرض. في حين تعود الآثار المكتشفة في كهف (زوري- شمال غرب السليمانية) إلى حدود ٣٤ الف سنة.[١٣]

حقق إنسان وادي الرافدين ثورة عظمى (اكتشاف الزراعة) بانتقاله من مرحلة جمع القوت والصيد إلى مرحلة الزراعة والتدجين في وقت مبكر حوالي ٧٠٠٠ ق.م. تحققت هذه الثورة بمساعدة عاملين، على الأقل: سقوط كميات كافية من المطر، ووجود ستة أنواع من النباتات والحيوانات البرية القابلة للتدجين بسهولة (القمح،الشعير، الماعز، الغنم، الخنزير، البقر).بل وكانت البقعة الوحيدة في العالم القديم التي نمت فيها حبوب الحنطة والشعير البرية.[١٤] وظهرت في هذا العصر أُولى القرى الزراعية في الوديان المنتشرة بين السلاسل الجبلية وفي الأراضي المتموجة قرب مصادر المياه. وتعد (جرمو) أقدم مستوطنة زراعية للعصر الحجري في العراق والشرق الادنى.[١٥]

وهكذا كانت كردستان العراق مسرحاً للثورة الزراعية قبل أن تهب رياحها على أوربا بآلاف السنين. ففي هذه المنطقة كفَّ الإنسان أن يستمر صياداً متنقلاً معتمداً على مهارته وحظه في جمع قوته. فبدأ بممارسة الزراعة وارتبط بقطعة أرض صغيرة حقق من خلال عمله فيها غذاءه المعتاد. ومن الطين بنى بيته، واخترع أدوات جديدة لأداء أعمال جديدة. وصارت الماشية والخراف مصدراً دائماً وسهلاً لتزويده باللحم والحليب والصوف والجلد. وفي نفس الوقت تطورت توجهاته الاجتماعية، ذلك أن ظروف زراعة الأرض والدفاع عنها تطلبت تعاوناً جماعياً وثيقاً. وهذا بدوره قاد إلى التوجه نحو تجمع عدة عائلات زراعية شكلت اللبنة الأُولى في جنين المنظمة الاجتماعية.[١٦]

انتهى العصر الحجري الحديث في العراق وبعض بلدان الشرق الأدنى في حدود ٥٦٠٠-٥٠٠٠ ق.م، وبدأت طلائع الحضارة والعصر التاريخي في حدود ٣٥٠٠ ق.م. أما الفترة المحصورة بين هذين التاريخين (١٥٠٠- ٢٠٠٠ سنة) فقد شهدت تطورات حضارية مهدت الطريق لظهور الحضارة في مطلع الألف الرابع ق.م، وهي تُعد فجر الحضارة والتاريخ، وأُطلقت عليها عدة تسميات: العصر الحجري- المعدني، وهي تشير إلى أن سكان وادي الرافدين بدءوا اكتشاف استعمال المعادن الذي تحقق في حدود منتصف هذا العصر. وسميت عصر ما قبل السلالات Pre-Dynastic وهي ذات مدلول سياسي يشير إلى ظهور عصر الحكام والمحكومين. وتميزت هذه الفترة بازدياد واتساع القرى الزراعية وتطور الكثير منها إلى المدن التاريخية التي اشتهرت في العصور التاريخية اللاحقة، والانتقال من الاكتفاء الذاتي إلى مقايضة فائض الإنتاج الزراعي بالسلع التي تخصصت في صنعها فئات جديدة من الصناع والحرفيين. واشتهرت هذه الفترة بصناعة الفخار الملون والمزخرف في أرض الرافدين ومناطق الشرق الأدنى بحيث أطلق بعض الباحثين عليها (عصر الفخار الملون)، والذي ضمَّ ثلاث حُقَب هي: حسونة- سامراء، حلف، العبيد، ارتباطاً باختلاف أنواع الفخار المكتشفة في كل منها.(١٧)

سُمِّيت الحقبة الأخيرة من العصر الحجري- المعدني في العراق بالعصر أو الدور (الشبيه بالكتابي) Proto-Literate أو(الشبيه بالتاريخي) Pro-History أو (عصر فجر السلالات) Dynastic Age 3500- 2800 ق.م. ويضم طورين هما أوروك (الوركاء) و(جمدة نصر). ظهرت لأول مرة الأختام الاسطوانية واستعمال دولاب الخزف لصنع الأواني الفخارية، وتقدم فن التعدين، وازدهار القرى الكبيرة ونواة التمدن والحياة الحضرية urbanization ونظام دولة المدينة City-state، وتوجت هذه الحقبة أخيراً بظهور الكتابة الصورية التي تطورت لاحقاً إلى الكتابة المسمارية. وهكذا تولدت في جنوب وادي الرافدين أولى المدن- أساس الحضارة- في التاريخ، وظهرت عناصر حضارة متكاملة وفق المعايير العشرة التي وضعها Gordon Childe لتمييز منطقة حضارية عن غيرها (حجم السكان المقيمين، التخصص، نشاط عمراني حقيقي، تطابق وانسجام اجتماعي وطبقة حاكمة مدعمة بالفائض، الكتابة، ظهور العلم الحقيقي والتنبؤ، الفنون، تجارة خارجية لتوريد مواد أولية، وجود طبقات بدلاً من علاقات

قبلية). مؤكداً أن هذه العناصر الحضارية توفرت كلها جنوب ميزوبوتاميا.[١٨]

وهناك حقيقة لكل التطبيقات العملية لهذه الحضارة، وهي أن من بين كافة المنشآت المكتشفة، كانت المعابد- بدون استثناء- أكبرها وأفضلها بناء، كما أن تقاليد العمارة كررت نفسها دوماً، وبقيت مستمرة في نفس المكان منذ طور العبيد وحتى العصور التاريخية المبكرة على مدى ألف سنة تالية. وفي كل الأحوال كان المعبد هو المحور الذي تدور حوله معظم النشاطات الاقتصادية والاجتماعية.[١٩]

كما قادت هذه التطورات السريعة أخيراً إلى تفتح الحضارة السومرية لا بسبب ثورة revolution فجائية حاسمة، بل نتيجة عملية تطور وارتقاء evolution حضاري في فصله الأخير بعد أن تجذرت في وادي الرافدين منذ فترة طويلة.[٢٠].. "لكن هذا الارتقاء كان مُقتصراً على القسم الجنوبي، وبدأ الشمال يتبع طريقاً آخر، ومع أن هذا الطريق لم يكن همجياً لكنه كان متخلفاً عن الجنوب في مجالات عديدة. إن العامل الرئيس في ذلك البون الشاسع كان بالتأكيد الجهد الجماعي المشترك الضخم الذي يحتاجه تنظيم الري الاصطناعي، حيث تستوجب هذه المهمة ظهور سلطة تخطيطية وتنسيقية." وهكذا بقيت الحضارة السومرية مقتصرة على النصف الجنوبي من البلاد ولم تنتشر في كل أرجائها. واستمرت منطقة الجزيرة ووادي دجلة مغلقة بوجه هذا التقدم الكبير. ويظهر أن الكتابة لم تُعرف في آشور قبل نشوء إمبراطورية سرجون الثاني. "ولم يجرِ أبداً تجاوز الفجوة الحضارية في العراق بين شماله وجنوبه بعد أن بدأت في نهاية الألف الرابع ق.م واستمرت طوال العصور التاريخية القديمة."[٢١]

٣- قرى ما قبل التاريخ في العراق:

شهدت مراحل العصر الحجري الوسيط استيطان إنسان هذا العصر في الكهوف الشمالية والشمالية الشرقية لوادي الرافدين. وفي أواخر هذه المرحلة بدأ بترك الكهوف والتوجه للعيش في مناطق أبعد قليلاً (زاوي حجي،كريم شهر، ملفعات..). ومع اطلالة العصر الحجري الحديث ظهرت القرى الزراعية تتقدمها (جرمو). اتسعت القرى الزراعية هذه مع نهاية هذا العصر والدخول في العصر الحجري- المعدني لتمتد من المرتفعات الجبلية (حسونة، حلف..) إلى المناطق الوسطى والجنوبية (سامراء،

العبيد..). استمرت هذه المراكز في التوسع والانتشار جنوباً خلال العصر الشبيه بالكتابي وطلائع الحضارة السومرية (الوركاء، جمدة نصر، اور، اريدو..). وفي السطور التالية حصر مكثف للقرى الأثرية المكتشفة في حضارة وادي الرافدين:[٢٢]

* زاوي جمي (الزاب الأعلى- ٤ كم غرب كهف شانيدر). أول قرية في المناطق المرتفعة (٤٢٥ م فوق سطح البحر). يرجع عهدها للعصر الحجري الوسيط. وهي أول مستوطن قروي في شمال البلاد وأول قرية من نوعها في العالم. ظهرت فيها آثار الانتقال إلى طور إنتاج القوت (الزراعة والتدجين) رغم أن الآلات المكتشفة لا تؤكد ممارسة الزراعة.

* كريم شهر (نحو ستة أميال شرق جمجمال). يعود زمنه للعصر الحجري الوسيط بعد طور (زاوي جمي). وجد مستوى استيطاني واحد يغطي مساحة إيكرين (الإيكر- ٤٠٠٠ م). عثر على أدوات حجرية يمكن اعتبارها أدوات زراعية كالنصول والمناجل والمجارف وأحجار الطحن. كما عثر في الموقع أيضاً على رصيف حصوي غير اعتيادي يمتد فوق المنطقة بكاملها ويوحي بِأرضية أكواخ معينة. يمثل مرحلة مبكرة من التطور نحو الاستيطان الدائم.

* ملفعات وكردي- جاي (ضفة نهر الخازر- الطريق بين أربيل والموصل). وجدت آثار بيوت صنعت من الحجارة وجرى رصف أرضيتها بالحصى وتحيط الأسيجة ببعضها وتتضمن الأدوات المكتشفة أزاميل وهاونات وفؤوساً حجرية.

* جرمو (نحو ١١ كم شرق جمجمال و٣٥ كم شرق كركوك). يعود زمنها إلى ٧٠٠٠ ق.م. أولى قرى العصر الحجري الحديث في شمال العراق. قدِّر عدد بيوت القرية بحدود ٢٥-٣٠ بيتاً وعدد سكانها نحو ١٥٠ نسمة. تُعَد أول قرية زراعية. مارست زراعة القمح والشعير والعدس والحمص. وجدت بقايا عظام الماعز (أو) الغنم والخنزير. شكلت القواقع جزءاً مهماً من قوت السكان الذين مارسوا كذلك صيد البقر والغزال والخنزير الوحشي. عاش سكانها في بيوت مربعة مزدوجة الغرف مبنية من الطين المضغوط مع وجود أفران طينية (التنور) لعمل الخبز تشبه تلك التي يصنعها القرويون في العراق الحالي. واكتشفت ملاعق وأدوات منزلية، علاوة على أُبر خياطة عظمية، وأقراص مغازل صوانية تدل على معرفة بالغزل والحياكة. وكان سكان جرمو يدفنون

موتاهم تحت بيوتهم، ويصنعون أجساماً طينية للحيوانات والمرأة الحامل (الإلهة الأُم) التي فُسِّرت بأنها تُجسِّد رمزاً للخصوبة والانجاب وقوى الطبيعة المولدة الغامضة.

* حسونة (نحو خمسة أميال شرق ناحية المشورة و٢٢ ميل جنوب الموصل). يعود زمنها إلى الألف الخامس ق.م. أُولى أدوار العصر الحجري- المعدني. شهدت تطورات الثورة الزراعية بانتشار القرى الزراعية في السهول الشمالية بعد بدء الاستيطان في سفوح الجبال. سكن أهلها الخيام أولا ثم البيوت المشيدة من اللبن. وكانوا يخبزون في تنور من الطين. وفي مراحل تالية للاكتشافات الأثرية ظهرت ست طبقات سكنية ذات منازل تشبه في حجمها وتصميمها وموادها قرى شمال العراق الحديث. اشتهرت بالأواني الفخارية المكتشفة فيها لأول مرة (أواني حسونة الفخارية).

* سامراء: تعاصر فترة حسونة (العصر الحجري- المعدني). اكتشف فيها نفس فخار حسونة لأول مرة، وسميت (أواني سامراء). تميزت بفخارها الملون الذي عثر عليه في عدد من مواقع الشمال والجنوب.

* مطارة (تل قرة لطخ على بعد ٤كم من بلدة مطارة جنوب كركوك). قرية زراعية مبكرة، يعود زمنها إلى ٥٥٧٠ ق.م. يوجد شبه قوي بين آثارها وآثار تل حسونة.

* أُم الدباغية (هضبة الجزيرة على بعد ٢٦ كم غرب مدينة الحضر). تعود إلى ٥٥٧٠ ق.م. بالإضافة لآثار ممارسة الزراعة، وجدت فيها مبان مدورة أو بيضوية ومخازن ربما استخدمت بصورة جماعية. يشبه فخارها فخاريات حسونة ومطارة مما يدل على وجود علاقة بين القرى الثلاث.

* حلف (قرب قرية رأس العين نحو ١٤٠ ميل شمال غربي نينوى، الحدود التركية- السورية). يعود زمنها للعصر الحجري المعدني (٥٠٠٠ ق.م). أكثر اكتشافات هذه الفترة هي الأبنية المدورة. ويحتمل أنها كانت مجالس قروية تستخدم للاجتماعات. كما وجدت أشكال حجرية مثقوبة ربما ارتديت حول الرقبة للدلالة على الملكية، وتمثل شكلاً من الختم المنبسط. تميزت فترة حلف بروعة فخارها وجماله ودقته وزخرفته وتعدد ألوانه، ويمثل الفخار المكتشف هنا تطوراً هائلاً يتجاوز الحضارات السابقة بشكل بيّن "ويمكن القول دون مبالغة إن فن السيراميك بلغ خلال فترة (حلف) درجة من التطور (لم يبلغها) وادي الرافدين من قبل أو من بعد أبداً."[٢٣] وحسب طه باقر فإن الحلفيين هم من أصل عراقي.[٢٤]

* نينوى (تقع في مدينة الموصل- تل قوينجق). قرية مبكرة، عُثر ضمن الآثار المكتشفة في المنطقة على أنواع فخاريات حسونة.

* بارم تبة (نحو ٧ كم غرب تلعفر في سهل سنجار. ستة تلال)، اكتشفت فيها آثار قرية مبكرة وفخاريات ملونة تعود إلى عصر حلف.

* شمشارة والتلال الأُخرى في سهول بتوين- رانية (تقع شمشارة على الضفة اليمنى من الزاب الصغير، نحو ٨ كم شرق رانية)، استوطنت في عصور القرى الزراعية المبكرة، ويرجح أنها تُعاصر قرية جرمو. "وتميزت فخاريات هذه القرى من النوع الملون والمزخرف، وبعضُ أنواعه من أجمل ما انتجته الحضارات القديمة."[٢٥] تشمل هذه المنطقة على جملة تلال: كمربان، تل الديم، قورة شيتا، باسموسيان، شمشارة.[٢٦]

* الأربجية (تبة رشوة- ٨ كم شمال شرق نينوى- العاصمة الآشورية القديمة)، عُرِفَتْ بفخارياتها الجميلة التي اكتشفت لأول مرة في تل حلف (٥٠٠٠ ق.م). تشير سعة بناء القرية إلى تقدم القرى الزراعية من حيث التنظيم وأساليب البناء لتقترب في تكوينها من المدينة الصغيرة ببيوتها السكنية وشوارعها المرصوفة بالأحجار الطبيعية التي تدل على احتمال وجود نوع من الخدمات البلدية.[٢٧] واكتشفت آثار تدل على ممارسة الزراعة، علاوة على التماثيل الطينية ومن بينها تلك التي ترمز إلى (الإلهة الأم).

* كرد باناهلك (كيلومتر واحد جنوب غرب قرية ديانا الحديثة- منطقة راوندوز). يعود زمنها إلى حوالي ٤٨٠٠ ق.م. وبالإضافة إلى الأواني الفخارية، اكتشفت فيها كذلك أواني وآلات حجرية وصناعات عظمية.

* قرية بكم (تل يقع في وادي شهرزور)، تأسست في عصر حلف٥٠٠٠ ق.م). وجدت فيها فخاريات كثيرة. تميزت بمبانيها المدورة على غرار قرية الأربجية.

* قرية إبراهيم عزو (نحو ١٧ كم شمال غرب مدينة الموصل)، وجدت فيها مبانٍ مدورة الشكل وأوانٍ فخارية تعود لعصر حلف وأقراص ومغازل وأدوات عظمية ودمى طينية.

* قرية صوان (ضفة دجلة اليمنى- نحو ١١كم جنوب بلدة سامراء)، يعود زمنها إلى حدود ٤٤٥٠ ق.م. وجدت فيها فخاريات حسونة (عصر سامراء) وأدوات زراعية

وحياكة وخياطة ومزج أصباغ. مورست فيها الزراعة المطرية. اكتشف فيها بناء واسع مشيد من اللبن، يرجح أن يكون من بيوت العبادة حيث وجدت فيه تماثيل صغيرة من المرمر (الإلهة الأم)، علاوة على هيكل امرأة دفنت معها قلائد خرز مختلفة.

* قرية حسن (قرب عيون الخشالات- منطقة حمرين)، اكتشفت فيها مخلفات مبنى مدور وفخاريات تعود إلى عصر حلف.

* جوخة مامي (بضعة كيلومترات شمال مندلي)، تضمنت مخلفات القرية فخاريات تعود إلى زمن حلف. ويظهر أن القرية تمثل النهاية الجنوبية لانتشار قرى عصر حلف.

* قرية العقر (٧٥ كم جنوب غرب بغداد- جزيرة ما بين النهرين السفلى)، تمثل استيطاناً مبكراً في السهل الرسوبي (٥٠٠٠ ق.م). وبالإضافة إلى بيوتها المشيدة من اللبن، وجدت نماذج للتنور شبيهة بالتنور العراقي الحديث وأدوات زراعية حجرية وأقراص مغازل متقدمة للنسيج والحياكة، علاوة على اكتشاف فخار عصر العبيد.

* تبة كورا (نحو ١٥ ميلاً شمال شرق الموصل)، يعود زمنها إلى ٥٠٠٠ ق.م.

* العبيد (أربعة أميال عن أور)، يعود زمنها إلى الطور الأخير من العصر الحجري- المعدني (٤٠٠٠ ق.م). يشكل الدور الأول للاستيطان البشري في السهل الرسوبي الجنوبي. يُعاصر في بدايته دور حلف في شمال العراق، وفي نهايته يُعاصر دور الوركاء في الجنوب.[٢٨] وتدل المكتشفات الأثرية "أننا حيال موقع قد استوطنه أناس لهم علاقة بالحلفيين في الشمال..."[٢٩]

* قلعة حاج محمد (ضفة نهر الفرات- جنوب غرب الوركاء نحو ١٨ كم). تعود مكتشفاتها إلى عصر العبيد.

* أوروك/ الوركاء (شمال غرب الناصرية)، يمثل الطور الأول من العصر الشبيه بالكتابي. تميزت مكتشفاتها بمجموعة خصائص لهذا الطور الحضاري: ظهور المعابد المشيدة على مصاطب اصطناعية مثل معبد (أنانا)- عشتار- والتي شكلت أساساً لظهور المعابد العالية- الزقورات ZIGGURAT التي اختصت بها حضارة وادي الرافدين.[٣٠]، ظهور الأختام الأسطوانية لأول مرة واستمرارها إلى آخر عصور التاريخ القديم في البلاد، استعمال دولاب الخزف لصنع الأواني الخزفية، تقدم وانتشار فن

تصنيع المعادن، قطع فنية رائعة من النحت المجسم والبارز (مسلة صيد الأسود، الإناء النذري، رأس المرأة المنحوت من المرمر)، نقوش المخاريط الفسيفسائية، ظهور المدن (دول المدن). وتبقى الخطوة الأكثر أهمية وتأثيراً هي ظهور الكتابة (الصورية) لأول مرة في معبد (أنانا)- عشتار.[٣١]

* جمدة نصر (١٥ ميلاً شمال شرق كيش، تلول الأحيمر، شمال الحلة، وهي غير مدينة كيش السومرية التي لا يُعرف موقعها). تمثل الطور الثاني من العصر الشبيه بالكتابي. تميزت هذه الفترة بتقدم الكتابة المسمارية واختزال عدد من علاماتها، واكتشاف أواني فخارية متميزة. وفي هذا الدور اتضح أن اللغة المدونة هي السومرية.

* أور (تل المقير: جنوب غرب الناصرية- قرب المحطة)، كانت مأهولة منذ عصر العبيد وأصبحت من المدن السومرية الشهيرة في عصر فجر السلالات.

* أريدو (أبو شهرين: نحو ٢٤ كم غرب مدينة أور القديمة)، من أماكن الاستيطان المهمة في السهل الرسوبي. تعود بداياتها إلى عصر العبيد مروراً بعصر الوركاء وفجر التاريخ. تُعتبر من أقدس المدن القديمة في وادي الرافدين لكونها المسكن الأرضي لـ(أنكي)- أيا- إله المياه الجوفية وأحد ثلاثة آلهة كبار في هيكل الآلهة السومري.

هوامش الفصل الثاني

(١) الدباغ، تقي، العراق في التاريخ، ص٤٢- ٤٣ . . . ، سليمان، عامر، ص٨٤- ٨٧ .

(٢) باقر، طه، ص١٦٤ .

(٣) نفسه، ص١٦٥ . . . . Hallo, William W.,and others, The Ancient Near East-A History, USA,1971, p.5.

(٤) الدباغ، تقي، العراق في التاريخ، ص٤٢- ٤٣ . . . باقر، طه، ص١٦٨ .Hallo, William W., p.7

(٥) باقر، طه، ص١٧٢ . . . ، عبدالواحد، فاضل (و) سليمان، عامر، ص١٠ . . . ، سليمان، عامر، ص١٠ . . . ، رو، جورج، ص٦٨- ٦٩ . . . ، علي، عبدالقادر حسن، "انسان الكهوف"، حضارة العراق، ج١، ص٧٦- ٨٢ .

(٦) ظهر الانسان العاقل قبل حوالي ٥٠ الف سنة في حدود منتصف العصر الحجري الوسيط (باقر، طه، مقدمة في تاريخ . . . ، ص١٦٥) .

(٧) رو، جورج، ص٦٩ . . تختلف التواريخ المعطاة لاكتشاف الزراعة في وادي الرافدين بين ١٠-١٦ الف سنة مضت انظر: الدباغ، تقي، حضارة العراق، ج١، ص١١٢ . . . ، الاحمد، سامي سعيد، حضارة العراق، ج٢، ص١٥٤ .

(٨) نفسه، ص٧٧ . . . Robinson, JR, p.25.., Hallo, William w., p.11.

(٩) باقر، طه، ص١٧٠ . . . ، رو، جورج، ص٦٧ . . De Mieroop, p.13..

(١٠) الدباغ، تقي، ص٤٤ .

(١١) سليمان ، عامر ، ص٨٧– ٨٨ . . . الدباغ ، تقي ، العراق في التاريخ ، ص٢٤ .

(١٢) الدباغ ، تقي ، حضارة العراق ، ج١ ، ص١٢ (و)٣٢ . ..De Mieroop,p.19,26 ..Hawkes,Jacquetta, p.31-32 ,

(١٣) الدباغ ، "الآلات الحجرية" ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٩٩– ١٠٢ . . . رو ، جورج ، ص٧١– ٧٤ . . . باقر ، طه ، ص١٨٢ (و) ١٨٦ . ..Hallo, William W..., p.11,14

(١٤) باقر ، طه ، ص٣٢ . . . رو ، جورج ، ص٧٦ .

(١٥) سليمان ، عامر ، ص٩٣ . . . باقر ، طه ، ص١٩٥ . . . علي ، فاضل عبدالواحد ، من الواح سومر إلى التوراة ، بغداد ، ١٩٨٩ . ص١٧– ١٨ (و) ٦٦– ٦٧ .

(١٦) رو ، جورج ، ص٧٩ .

(١٧) باقر ، طه ، ص٢٠٧– ٢٠٨ .

(١٨) نفسه ، ص٢٣٦– ٢٤١ . . . رو ، جورج ، ص١١١ . . ,..De Mieroop, p.2,23-24,37-38..,Hallo, William..,W., p173 Hawkes, Jacquetta, p.3,5,69.., Hammond, Mason, p.25.., Robinson, Jr., p.15.

(١٩) رو ، جورج ، ص١٠١– ١٠٢ .

(٢٠) الماجدي ، خزعل ، متون سومر ، عمّان ، ١٩٩٨ ، ص٥٦ . . . رو ، جورج ، ص١٠٧ .

(٢١) رو ،جورج ، ص١١٨ . ..Hammond,Mason,p.49..,DeMieroop, p.38-40.., Hawkes, Jacquetta,p.70

(٢٢) باقر ، طه ، ص١٩٥– ١٩٧ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ . . . رو ، جورج ، ص٩٧– ٩٩ . . . الدباغ ، تقي ، "الثورة الزراعية والقرى الاولى" ، حضارة العراق ، ج١ ، ص١٢٠– ١٤١ . . . البدراوي ، عدنان مكي ، "نشأة القرى العراقية الاولى" ، حضارة العراق ، ٣٠ ، ص٢٨٥– ٢٩٠ ، ٣٠٧– ٣١٠ . ..Hammond, Mason, p.19-21,33.., Hallo, William W., p.44,48

(٢٣) رو ، جورج ، ص٩٤ .

(٢٤) باقر ، طه ، ص٢٢ .

(٢٥) الدباغ ، تقي ، حضارة العراق ، ج١ ، ص١٣١– ١٣٢ .

(٢٦) باقر ، طه ، ص٢١٤ .

(٢٧) رو ، جورج ، ص٩٤ .

(٢٨) باقر ، طه ، ص٢٢٥ .

(٢٩) رو ، جورج ، ص٩٧ .

(٣٠) الزقورات او الابراج المدرجة ترتبط باسم اور– نمو مؤسس امبراطورية اور الثالثة (ف٥) . وهي مصاطب او قواعد عالية تشكل اساس بناء المعابد السومرية ، وردت بشأنها تفسيرات عديدة ، منها تجنب تأثير المياه الجوفية القريبة من السطح في الجنوب بالارتباط مع قدسية المعبد والمخاطر الجمّة (الشؤم) المتوقعة عند سقوط مبنى المعبد حسب معتقدات القوم . بينما يرى جورج رو ان التفسير الاكثر قبولا هو الاقتراب اكثر من السماء (الآلهة) وفق معتقدات القوم . وهذا ما ورد في التوراة– سفر التكوين ٦ .٤ (رو ، جورج ، ص٢٢٨) .

(٣١) باقر ، طه ، ص٢٢٤– ٢٣٥ . . . رو ، جورج ، ص١١١ .

الفصل الثالث

عصر فجر السلالات

(عصر دول المدن السومرية)

بعد أن ولدت عناصر الحياة في شكل تجمعات بشرية شمال البلاد ، وتوجت بأعظم ثورة اقتصادية في تاريخ البشرية (الزراعة)، وظهور القرى الزراعية، لتمتد تدريجياً نحو السهل الجنوبي، بدأت إشراقة حضارة أصيلة متكاملة بالظهور التدريجي من أقصى جنوب وادي الرافدين. ومع أن هذه المنطقة فقيرة في الموارد الأساسية اللازمة للبناء الحضاري مثل الأخشاب والأحجار وخامات المعادن، لكنها غنية بثلاثة مصادر أُخرى هي:ضوء الشمس، الماء، والتراب (الطين). من الطين بنى الرواد الأوائل حضارتهم، وعلى الطين كتبوا تاريخهم، فأتاحوا للإنسان المعاصر أن يرى الماضي على مدى أكثر من خمسة آلاف سنة هي الفترة الفاصلة بين الحاضر وبين الحضارة السومرية.[1]

ولم تكن (مهد الحضارة) لتتجاوز شريطاً أرضياً طويلاً وضيقاً بين محافظتي الديوانية والناصرية (من نفر إلى أقصى الجنوب)، سُميت (بلاد سومر). تعايش في هذه المنطقة ثلاثة أقوام:السومريون، الأكديون (الجزريون/ الساميون)- أقدم الموجات البشرية المهاجرة من شبه الجزيرة العربية إلى منطقة جبل سنجار/ شمال البلاد ، وانتقلوا في الربع الثاني من الألف الثالث ق.م إلى وسط السهل الرسوبي شمال بلاد سومر في المنطقة التي عُرفت بعد عام ٢٤٠٠ ق.م باسم "بلاد أكد".[2] وعُرفت المجموعة الثالثة بـ (الفراتيين الأوائل) Proto-Euphratans. وكانت المجموعة الأولى السباقة لاستيطان جنوب البلاد ، وتركت بعض الآثار اللغوية المميزة التي استخدمت لاحقاً من قبل السومريين. ونظراً لأنهم عاشوا واختفوا قبل التاريخ (قبل اكتشاف الكتابة)، لذلك اعتبرهم الباحثون قوماً مجهولين[3].

من هم السومريون؟ هل حضروا من مناطق خارجية شرقية أو غربية أم أنهم من سكان البلاد الأصليين أبناء أُولئك الأسلاف الذين أقاموا أقدم القرى الزراعية في شمال البلاد لتمتد جنوباً في أدوار عصور ما قبل التاريخ مثل جرمو، حسونة، حلف، سامراء.. ولغاية العبيد، الوركاء، أور جنوبي البلاد ؟

سبق ملاحظة أن الزراعة- أساس بناء المجتمع السياسي المنظم والتمدن والحضارة- بدأت تاريخياً شمال البلاد (جرمو ٧٠٠٠ ق.م) ولم تصل إلى أوربا إلا بعد ٣٥٠٠سنة، بينما عُرفت الأقوام الجبلية في الشرق بحياتهم الهمجية. أطلق السومريون عليهم "ثعابين الجبال"، بينما وَصفوا الأقوام الجزرية:أنهم بدو الصحراء لا يعرفون الزراعة والحضارة.. أما السومريون فكانوا على خلاف هذه الأقوام شعباً متحضراً شديد التعلق بِأرضه الطيبة (السهل الرسوبي) وكانوا يتحسَّبون دائماً للبدو الأجلاف في المناطق الغربية الذين دأبوا على مهاجمة قوافلهم ومدنهم وقراهم."إن النزاع التقليدي لمجتمع السهل الرسوبي والقبائل البدوية تملأ فصولاً طويلةً من تاريخ العراق القديم."[٤] بمعنى أن أهل بلاد الرافدين كانوا الأكثر تحضرا وتأهيلاً لبناء ومواصلة الطريق الحضاري.[٥]

ورغم ظهور ما لا يقل عن تسع نظريات تحاول كل منها نسبة أصل السومريين لجهة خارجية، فإنها بقيت ضعيفة الحجة لأن كلاً منها اعتمدت أسباباً جزئية دون أخذ الحضارة السومرية- الرافدينية بصورة مترابطة ومتكاملة[٦].

من المعروف أن اسم سومر (شومر) تسمية مشتقة من المنطقة التي سكنها السومريون ولا تُعبر عن أصل ولا عرق، بل هي مرتبطة باسم المنطقة التي استوطنوها (بلاد سومر)- سيد القصب. أما لغتهم- وتشكل أقدم لغة مدونة بالخط المسماري- فهي فريدة ليست لها علاقة بإحدى العائلات اللغوية المعروفة. كما أن الفحوص الانثروبولوجية لبقايا الهياكل التي عُثِرَ عليها في المقابر السومرية أظهرت عدم وجود ما يمكن تسميته بالعرق السومري. وحيث أن اللغة وحدها تستطيع فهرسة العلاقات العرقية، ولأن الكتابة لم تكن معروفة، لذلك لم يكن بالإمكان معرفة لغة الرواد الأوائل بناة أُولى القرى الزراعية شمال البلاد. من هنا بقيت اللغة السومرية فريدة، ليس بالإمكان معرفة علاقتها بلغة أوُلئك الرواد، في حين ليست لها علاقة بلغة القادمين الجدد من الجزريين.[٧] فهل كانت اللغة السومرية هي لغة العراقيين الأوائل

التي انحسرت وماتت مع الانحسار السياسي للسومريين نتيجة غلبة لغات الأقوام واللغات الأُخرى القادمة من الخارج، خاصة اللغات الجزرية التي توجت باللغة العربية في العصور التاريخية اللاحقة؟

يقول جورج رو: إن التراث الأدبي السومري يقدم صورة لقوم مثقف جداً ومتين جداً لكنه لا يعطي معلومات عن أصل السومريين. وتدور الحوادث والقصص والأساطير السومرية في وسط غني بالأنهار والبحيرات والبردي والنخيل- وهذه خلفية نموذجية لمنطقة جنوب البلاد- وتعطي انطباعاً قوياً أن السومريين عاشوا دائماً في ربوع هذه المنطقة. وليس هناك في كتاباتهم وآثارهم ما يؤكد أو يشير إلى وجود أي موطن سابق للسومريين يختلف عن وادي الرافدين. وهذا يعطي انطباعاً متينا أن السومريين يمكن أن يكونوا قد تواجدوا دائماً على أرض هذه البلاد منذ العصور الحجرية الحديثة المبكرة. ويدعم رأيه هذا بما خَلُصَ اليه أحد المستشرقين: " T F.FRANKFOR بأن المناقشة المسهبة لهذه المشكلة يمكن أن تتحول تماماً في النهاية إلى ملاحقة وهم لا وجود له مطلقاً."(٨) ويرتبط بالأصل الحقيقي للسومريين- الذين سموا أنفسهم "ذوي الرؤوس السود"- أن حضارتهم تفتحت منذ عصور ما قبل التاريخ في ربوع العراق نفسه فعكست مزاج وطموحات المجتمع الفلاحي المحافظ المستقر الذي شكل على الدوام العمود الفقري لهذه البلاد. وأخيراً يؤكد جورج رو بقوله "وليس هناك من شك في كون هذه الحضارة (عراقية) أساساً وجوهراً".(٩) من هنا استمرت الحضارة السومرية قاعدة حضارة وادي الرافدين حتى بعد اختفاء السومريين من المسرح السياسي بعد عام ٢٠٠٠ ق.م، وبقيت حضارتهم مستخدمة من قبل القادمين الجدد الذين تعاقبوا على هذه الحضارة التي بقيت سائدة وأصبحوا جزءاً منها لغاية انهيارها وسقوطها. "فلأكثر من ثلاثة آلاف عام، عُبدَتْ آلهة سومر من قبل السومريين والساميين على حد سواء. ولأكثر من ثلاثة آلاف عام لعبَتْ المعتقدات الدينية السومرية دوراً غير اعتيادي في توجيه مناحي الحياة العامة والخاصة لسكان وادي الرافدين، فقولبت مؤسساتهم وأغنت أعمالهم الفنية والأدبية وعمَّت كل نشاطاتهم من أرفع مهام الملك وحتى أصغر الممارسات اليومية لرعاياه"(١٠).

ربما تلقي بعض الآثار الأدبية التي خلَّفتها حضارة وادي الرافدين المزيد من الضوء على أصل السومريين. لنقرأ شيئاً من إحدى أساطير الخلق السومرية "قصيدة المعول"-

ف١٦/١- فالقصيدة تعود في جذورها الأولى إلى بدايات الثورة الزراعية في شمال البلاد، والإله إنليل بعد أن "... أسرع بفصل السماء عن الأرض، عمل على خلق الإنسان الأول، فحفر شقاً في الأرض... ووضع بدايات البشرية في الشق، وعندما بدأ البشر بالظهور كالحشيش، كان إنليل ينظر مرتاحاً إلى "شعبه السومري". ألا يوضح هذا أن السومريين يكشفون عن أصلهم في الفقرة الأخيرة بأنهم أبناء أولئك الأسلاف رواد الثورة الزراعية في الشمال!؟ وإذا قبلنا الجواب بالموافقة، حُق لنا أن نؤكد بأن السومريين هم أصل الشعب العراقي.

تراوح عدد المدن (دول المدن) السومرية في حدود خمس عشرة مدينة مستقلة، منها: أريدو (أبو شهرين- جنوب غرب الناصرية))، أور (المقير- جنوب غرب الناصرية)، لارسا (سنكرة- شمال غرب الناصرية)، أوروك (الوركاء- شمال غرب لارسا)، لكش (تلو- جنوب قلعة سكر)، أوما (جوخا- جنوب غرب قلعة سكر)، شروباك (فارة- شمال الوركاء)، إيسن (إيشان بحريات- جنوب شرق الديوانية)، أدب (بسماية-شمال غرب أوما)، نيبور (نفر-شمال غرب أدب- شرق الديوانية)، أكشاك (-)، بادتبير (-)، كيش (-)[١١]. كما تميز عصر دول المدن السومرية (عصر فجر السلالات) بثلاثة أدوار رئيسة: دور فجر السلالات الأول (٢٩٠٠/ ٢٨٠٠-٢٧٠٠ ق.م)- المرحلة الأخيرة من أطوار العصر الشبيه بالكتابي- الذي ضمَّ كذلك طور الوركاء وجمدة نصر.. دور فجر السلالات الثاني ٢٧٠٠-٢٥٥٠ ق.م) تكاملت في هذا الدور الكتابة المسمارية واستخدامها في شؤون الحياة إلى جانب التدوين الرسمي وظهور الحياة السياسية على هيئة دول المدن المستقلة.. دور فجر السلالات الثالث (٢٥٥٠- ٢٣٣٤) بلغت هذه الحضارة الوليدة أوج ازدهارها ونضجها في أور. ومن السلالات الحاكمة التي اشتهرت في هذا العصر: سلالة الوركاء الأولى التي عُرفت بملكها الخامس كلكامش (في حدود ٢٧٠٠ ق.م)- بطل ملحمة كلكامش- وسلالة أور بمقبرتها الملكية المشهورة، وسلالتا لكش واوما بصراعاتهما التي دامت زهاء قرن من الزمن.[١٢]

اكتسبت (مقبرة أور الملكية) Royal Cemetery شهرتها بفضل آثارها النفيسة. وتعود أغلبية القبور فيها إلى عصر فجر السلالات الثالث. تضمنت ما يناهز ٢٥٠٠ مقبرة بشرية، وشخص من هذه القبور ما لا يقل عن ستة عشر من القبور الجماعية التي

ضمَّ كل منها عدداً من الشخصيات الحاكمة: ملوك وملكات وأمراء وأميرات وجدوا مقبورين مع حاشيتهم وأتباعهم ومتاعهم وأثاثهم. ولم يرد في النصوص السومرية أو المسمارية ما يميط اللثام عن حقيقة هذه المقبرة باستثناء إشارات مقتضبة وردت في إحدى الأساطير السومرية (أسطورة موت كلكامش). وكان كلكامش، بصفته شخصية تاريخية، عاش في الفترة الزمنية لأحد ملوك المقبرة (ميسكلام- دك). وقد ورد رأيان لتفسير طبيعة المقبرة: الأول يعود لمكتشف المقبرة وولي يقول إن الحكام السومريين كانوا في فترة قديمة من عصر فجر السلالات (٢٦٠٠- ٢٥٥٠ ق.م) يمارسون عادة التضحية بأتباعهم ليُدفَنوا معهم بعد موتهم. وإن أُولئك الأتباع الملحودين كانوا يدخلون إلى قبورهم أحياءً ثم تُقتل الحيوانات من جانبهم، ويتناولون، بعد ادخال جثة سيدهم، سموماً كانت تُهيأ لهذا الغرض، وكان الدفن يجري في احتفال ديني. ويربط الرأي الثاني تفسير هذا الانتحار الجماعي بما كان يُمارس في فترة ما من عصر فجر السلالات من شعائر: الزواج (الإلهي) المقدس، حيث يتم بموجبها اختيار الملك أو الحاكم أو الكاهن الأعلى ليمثل إِله الخصب (دموزي/ تموز) ويتم اختيار الملكة أو الكاهنة العليا لتمثل الإِلهة (انانا/ عشتار) ويقومان بشعائر هذا الزواج في بدء كل سنة جديدة لإِحلال الخصب والخير، ثم يُسمّان مع أتباعهما ويُدفنان في احتفال مهيب، وذلك ارتباطاً بعقيدة القوم الدينية. ويضيف هذا الرأي أن عادة التضحية البشرية هذه لم تستمر ممارستها في حضارة وادي الرافدين لاحقاً[١٣] .

وجدت في المنطقة وخارجها ممارسة مثل هذه الطقوس (التضحية البشرية): قبور كيش (عصر فجر السلالات)، الموقع الأثري (نوزي)- ١٣ كم غرب مدينة كركوك، مدينة ماري (تل الحريري- ١١ كم شمال غرب بلدة البوكمال- داخل الحدود السورية)، الاسرة الأُولى من ملوك النيل (٣٠٠٠- ٣١٠٠)، قبائل أُخرى في جنوب روسيا (القرن الثالث عشر ق.م)[١٤].

اتصفت الحضارة السومرية منذ بداية نشأتها بثلاث سمات رئيسة: التعددية اللغوية- العرقية، التعددية السياسية (دول المدن)، الصراعات التناحرية. فمنذ بدء هذه الحضارة في مطلع الألف الثالث ق.م تميزت بازدواجية اللغة. وباستثناء (الفراتيين

الأوائل) الذين لم تُعرف لغتهم، كانت اللغتان الرئيستان في التدوين والكتابة: اللغة السومرية واللغة الأكدية (التي تفرعت إلى فرعين رئيسين هما البابلية والآشورية). وهذه التعددية اللغوية مثّلت خاصية رئيسة لحضارة وادي الرافدين على مدى كافة مراحلها باعتبارها البوتقة التي صهرت مختلف الأقوام التي دخلت البلاد. والمعروف أن السلام الاجتماعي ساد الحياة المشتركة بين أهل سومر وأكد[١٥].

ومن الناحية السياسية تميزت الحضارة السومرية منذ نشأتها على أساس عدة كيانات سياسية (دول المدن). اشتملت كل دولة مدينة على مركز المدينة وضواحيها من حقول وبساتين عائدة لها أو بالأحرى إلى إله المدينة (الإله الحامي) واستخدم سهل (الاستب) غير المزروع المحصور بين مناطق الري لرعي الماشية. وكانت منطقة الرعي هذه تُسمى بالسومرية (ايدن)، الكلمة التي ربما اشتق منها لفظة (ايدن)- عدن الواردة في التوراة[١٦].

كانت دول المدن السومرية متميزة بتمسكها باستقلالها، ولكل منها حاكمها وإله المدينة الخاص بها. وتشير الآثار التاريخية المكتشفة أن العلاقات بين دول المدن هذه غلبت عليها صفة التنازع والحروب المستمرة، وعُرفت هذه الفترة بـ (حقبة دول المدن المتحاربة) تميزت بكثرة تبدل السلالات الحاكمة[١٧].

مع استمرار النزاع والصراع بين مدينتي (لكش) و (أوما)، جاء إلى حكم أوما آخر الحكام السومريين في عصر فجر السلالات وهو لوكال زاكيري الذي نشأ من عائلة تنتمي لطبقة الكهنة. كان أبوه كاهن الإلهة (نصّابا) NISABA في مدينة أوما، ويُرجَّحْ أن أصله جزري (أكدي) كما يُشير اسمه (بوبو) .BUBU وكان حاكم مدينة لكش هو أوروكاجينا أشهر الحكام المصلحين في حضارة وادي الرافدين (ف١٣). نجح لوكال زاكيري في إنهاء حكم أوروكاجينا بهجوم مفاجئ مُنهياً الصراع الذي استمر بين المدينتين زهاء قرن من الزمن. جاءت الضربة ماحقة دمرت المدينة وأُعمل فيها وفي أهلها السيف والنار. وبالإضافة إلى مقدرته العسكرية، لعلَّ ما سهَّل على لوكال زاكيري انتصاره الخاطف، هو الأحوال الداخلية غير المستقرة لدولة لكش. ذلك أن الاصلاحات التي فرضها أوروكاجينا لم يُتح لها الوقت الكافي لنضوجها واستقرارها، وكانت في بداياتها محل مقاومة الطبقات النافذة ومجالاً للبلبلة وعدم الاستقرار. وبعد قضائه على دولة لكش، استولى زاكيري تباعاً على بقية دول المدن في بلاد الرافدين،

بل وكما جاء في نصوصه المدونة، بسط فتوحاته من البحر الأسفل (الخليج العربي) إلى البحر الأعلى (البحر المتوسط). دام حكمه ٢٥ سنة حسب قائمة الملوك السومرية، ونجح في توحيد البلاد وإنشاء أول إمبراطورية شملت أجزاء من الشرق. شكلت نهايةُ لوكال زاكيري، بدايةَ العصر الأكدي وانتقال السلطة السياسية إلى الأكديين الجزريين وظهور الدولة الوطنية الموحدة التي اتسعت بالفتوحات الخارجية إلى إمبراطورية بزعامة سرجون الأكدي.

هوامش الفصل الثالث

(١) ساكز ، هاري ، الحياة اليومية في العراق القديم ، (مترجم) ، بغداد ، ٢٠٠٠ ، ص٢٦ .

(٢) صاغ لفظة (سامي ، سامية) الاستاذ الالماني (1871) SCIÖZER لاطلاقها على لغات وثيقة الصلة ببعضها (لغات شبه الجزيرة العربية) ، الاكدية (بفرعيها البابلية والآشورية) ، الآرامية ، العبرية ، الكنعانية ، العربية . وسميت المجموعات التي تتحدث بإحدى هذه اللغات بـ (الساميين) . ومن هذه اللغات الأكثر انتشاراً حالياً : العربية ، العبرية ، الحبشية . وبعد أن طرأ تغيير كبير على اللغة الآرامية . اصبحت تستخدم من قبل الكنائس الشرقية (السريانية) وفي لهجات تتحدث بها أقلية في لبنان وشمال العراق . اشتقت هذه التسمية (السامية) من سام بن نوح والد (آشور) و (آرام) و (عبران)- التوراة : سفر التكوين ٥- ٢١- ٣١ والذي يُدعى أنه جد الآشوريين والآراميين والعبرانيين (رو . جورج ، ص٢٢) . ويرى طه باقر ان تسمية السامية "ليست موفقة ولا صحيحة" ، ويقترح تسمية هذه اللغات بـ "لغات الجزيرة" أو "اللغات العربية" . وتسمية الأقوام السامية بالأقوام العربية أو أقوام الجزيرة (باقر ، طه ، ص٦٧) ، وقارن ، علي ، فاضل عبدالواحد ، من ألواح سومر . . . . ص٥٧-٥٨ . . . ، وفيما يخص موقع "بلاد سومر" ، انظر أيضاً ، يونغ ، كافن . العودة إلى الأهوار ، دار المدى ، دمشق ،١٩٩٨ ، ص٣٨ .

(٣) باقر ، طه ، ص٧٧ .

(٤) رو ، جورج ، ص٣٠ .

(٥) الماجدي ، خزعل ، ص٢٤ .

(٦) نفسه ، ص٢٨- ٣٤ . . . ، علي ، فاضل عبدالواحد ، من الواح سومر . . . ، ص٢٦- ٣٨ . . Nickolas, Postage, p.7-8.. ,

(٧) علي ، فاضل عبدالواحد ، "السومريون والاكديون" . العراق في التاريخ ، ص٦٦- ٦٧ . . . باقر ، طه١١ (و)٦٢ .

(٨) روج ، جورج ، ص١٢٢ .

(٩) نفسه ، ص١٢٧ . . Hallo, William W., p.28.. ,

(١٠) نفسه ، ص١٢٨ .

(١١) اوينهايم ، ليو ، ص٤٦٣- ٥١٢، . ، بوستغيت ، نيكولاس ، ص١٢٥- ١٤٢ . . . ، البدراوي ، عدنان مكي ، حضارة العراق ، ج٣ ، ص٢٩١ . . . ، الماجدي ، ص٤٢- ٤٤ . . . ، نفسه ، الدين السومري ، عمّان ، ص٦٣ . . باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٧٧- ٧٨ .

(١٢) علي ، فاضل عبدالواحد ، العراق في التاريخ ، ص٦٦- ٦٧ . . . باقر ، طه ، ص٢٢٣ . . الجدير بالملاحظة ان كلكامش هو خامس ملوك سلالة الوركاء الاولى (باقر ، طه ، مقدمة في أدب العراق القديم ، بغداد ، ١٩٧٦ ، ص١٠٢) وسادس ملوك هذه السلالة حسب :علي ، فاضل عبدالواحد ، من ألواح سومر . . . ، ص١٤٧ . . . Hallo, William W., p.35-50.

(١٣) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص ٢٧٧- ٢٨٣ . . . ، علي ، فاضل عبد الواحد ، من ألواح سمر . . . ، ص٧٤-٧٧ ، ، Hammond Mason, p.46.

(١٤) باقر ، ص٢٨٣- ٢٨٥ .

(١٥) نفسه ، ص٦٠ . . Hammond Mason, p.50..

(١٦) رو ، جورج ، ص١٨١-١٨٢ . . وايضاً فيما يخص تقسيمات المدينة السومرية ، باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ ، ص٢٢٨ . . . اوينهايم ، ليو ، ص١٤٠ .

(١٧) سليمان ، عامر ، ص١٢٩ . . . ، بوستغيت ، نيكولاس ، ص٧٢ . . Kramer, p.1-3..

الفصل الرابع
العصر الأكدي (سرجون)

مع أواخر عصر دول المدن السومرية، ظهرت حركة من وسط السهل الرسوبي غيَّرت مجريات الأحداث التي انحصرت طوال عصر فجر السلالات في قلّة من دول المدن المتصارعة التي كانت تؤلف بلاد سومر. قاد هذه الحركة ضابط مجهول الاسم مشهور اللقب (سرجون) ومعناه (الملك الحق) أو (الملك الصادق). وجاءت تسمية القوم بـ (الأكديين) من اسم مدينة (أكد/ أكادة) التي بناها مؤسس السلالة الأكدية (سرجون) واتخذها عاصمة لإمبراطوريته التي شغلت الفترة ٢٣٣٤- ٢١٥٤ ق.م (أو) ٢٣٧١- ٢٢٣٠ ق.م. لم يكتف سرجون (٢٣٧١- ٢٣١٦ق.م)- الذي حكم ٥٥ عاماً- ومن أعقبه من الحكام الأكديين- بالسيطرة على دول المدن السومرية حسب، بل هيمن على كامل حوض دجلة والفرات محققاً لأول مرة وحدة بلاد الرافدين، كما تابع فتوحاته إلى البلدان المجاورة، فامتدت الإمبراطورية الأكدية من طوروس إلى البحر الأسفل ومن زاكروس إلى البحر الأعلى، متضمناً أجزاء من بلاد الشام وآسيا الصغرى وبلاد عيلام، ومجسِّدة أول إمبراطورية في التاريخ القديم، وبذلك حق اعتبار سرجون من أوائل الفاتحين في التاريخ[١]. من هو (سرجون)، وكيف استطاع الوصول إلى السلطة؟

في نص مسماري آشوري يعود للقرن السابع ق.م وصفٌ أسطوري لولادة سرجون ورد على لسانه يشبه قصة موسى في التوراة.[٢] "أنا سرجون، الملك العظيم، ملك أكد (أكادة)... كانت أُمي كاهنة عليا، ولم أعرف أبي. مدينتي هي آزوفيرانو (مدينة الزعفران على الفرات). حملت أُمي بي ووضعتني سراً وأخفتني في سلّة مقيرة من الحلفاء وغطتني ورمتني في الماء، فلم يغرقني النهر بل حملني إلى (آكي) سقاء الماء،

فـانتشلني (آكي) بدلوه، وربّاني واتخذني ولدا وعينني بستانياً عنده. وبينما كنت أعمل بستانياً أحبتني الإلهة عشتار فتوليت الملوكية..." ويرتبط تفسير رميه في الماء باحتمال كون أمه كاهنة عليا فئة (إينتم) ENTUM التي حُرّم على أفرادها إنجاب الأطفال[٣].

بدأ سرجون حياته في مدينة كيش، وكان من مقربي ملكها (أور- زابا) وساقياً في بلاطه. أما ظروف استيلائه على الحكم في كيش فهي غير معروفة تاريخيا. بشكل ما، استطاع حامل الكأس الملكي الإطاحة بسيده وهجم على أوروك حيث كان لوكال زاكيري حاكمها والسيد الأعلى لبلاد سومر، فألحق به هزيمة منكرة، وألقى القبض عليه، وجلبه إلى كيش في "ياقة كلب" وعرضه سجيناً في قفص أمام معبد الإله (إنليل) في نفر[٤]. استمر سرجون في معاركه الظافرة مع دول المدن السومرية على طريق توحيد بلاد سومر وأكد ومن ثم بناء الدولة الوطنية الموحدة "لقد انتصر سرجون، ملك كيش، في أربع وثلاثين معركة (على المدن الممتدة) إلى حافة البحر، وهدم أسوارها...[٥]"

يرى البعض أن وصول الأكديين إلى الحكم جاء على أكثر احتمال نتيجة "رد فعل مُدبَّر ضد الاضطهادات الوحشية التي مارسها لوكال زاكيري، ملك الوركاء..." الذي فرض "حكمه الحديدي" على بلاد الرافدين بـ "الحديد والنار" خلال ربع قرن. وهكذا انتهى هذا "الحكم الاستبدادي" على يد سرجون الأكدي.[٦] لكن واحدة من المفارقات التي ظهرت بين الزعيم السومري والزعيم الأكدي هو أنه: في حين أكدت كتابات لوكال زاكيري، احتفالاً بالنصر، السلام والرفاهية الذي حمله للبلاد، فإن كتابات سرجون تتباهى بقدرة الملك العسكرية والمعارك التي انتصر فيها والمدن التي استولى عليها والحكام الذين دحرهم[٧].

جاءت نهاية لوكال زاكيري خاتمة لعصر تاريخي- حضاري وفاتحة عصر جديد في تاريخ حضارة وادي الرافدين: زوال عصر دول المدن السومرية (عصر فجر السلالات) وبداية العصر الاكدي وانتقال السلطة السياسية إلى الأكديين. هذه السلطة التي اتسعت بالفتوحات الخارجية إلى إمبراطورية هي الأولى في التاريخ القديم. كما تميز العصر الأكدي بتطبيق النظام المركزي وظهور أول دولة موحدة تضم جميع بلاد الرافدين، واعتماد سرجون على القوات الأكدية في تكوين نخبته العسكرية، وأصبحت

للأكديين الأفضلية على السومريين بتعيين حكام أكديين في دول المدن السومرية. كذلك برزت اللغة الاكدية لغة رسمية في الكتابات الملكية، رغم أن سرجون أولى احتراما كبيراً للمؤسسات الدينية السومرية[٨].

سقطت الإمبراطورية الأكدية، بعد أن استمرت زهاء ٢٠٠ سنة، على يد الكوتيين، وهم من أقوام جبال زاگروس المتاخمة لحدود البلاد الشمالية الشرقية. ولا يُعرف شيء عن أصلهم ولغتهم، وهم من الأقوام التي وصفت بالهمجية والوحشية "ثعابين الجبال". اتصفت فترة احتلالهم التي دامت حوالي القرن الواحد بغياب الاستقرار السياسي والتراجع الحضاري، وتُعَد من الوجهة التاريخية أُولى الفترات المظلمة في مسيرة حضارة وادي الرافدين. ومن الأسباب التي قادت إلى انهيار الإمبراطورية الأكدية استنزاف طاقاتها في الحروب وفي إخماد الثورات وحركات التمرد في المدن والأقاليم التابعة داخل وخارج البلاد. "بيد أنها أرست مثلاً لم يغب عن الأذهان أبداً، فقد أصبح حلم كل الملوك الذين أعقبوا سرجون منذ منتصف الألف الثالث ق.م وحتى سقوط بابل عام ٥٣٩ ق.م وهو: إعادة وحدة وادي الرافدين وبلوغ ما يمكن تسميته بحدودها الطبيعية.[٩]"

اشتهر من بين ملوك أكد، عدا سرجون، الملك الرابع نارام- سين (٢٢٦٠ق.م)، حفيد سرجون الذي ورث الكثير من طباع جده في الطموح والقيادة خلال فترة حكمه التي دامت ٣٧ عاماً. فرغم مواجهته مختلف أشكال العصيان في إمبراطوريته فقد سحقها جميعا، بل ووسع حدودها. عُرف عهده بالازدهار. وفي منتصف عهده لقب نفسه "ملك الجهات الأربع"، أي ملك العالم. كما قُدِّس في حياته وبعد مماته[١٠].

ويظهر أن ظروف نشوء وسقوط الإمبراطورية الأكدية تقدم نموذجاً لرؤية مستقبلية تتكرر لاحقاً لمسيرة ازدهار وسقوط إمبراطوريات بلاد الرافدين اللاحقة، والتي تميزت عموماً بتوسع سريع (حروب خارجية) تعقبه تمردات وثورات وحروب داخلية، لتتفاعل هذه الحروب المستمرة وتقود إلى إنهاك قواها العسكرية- البشرية والمادية- تنتهي باحتلال أجنبي يقوم به الكوتيون أولاً ثم العيلاميون والكاشيون والميديون والفرس لاحقاً. "إن حضارة بلد مثل العراق ترتكز على الزراعة والأشغال المعدنية (والتجارة)، تتطلب شرطين أساسيين كي تستمر في الحياة والنمو. وهذان الشرطان هما التعاون

الوثيق بين مختلف المجاميع الرسمية والسياسية والاجتماعية داخل البلد نفسه، والموقف الودي، أو على الأقل المحايد، من قبل سكان المناطق المجاورة. ولسوء الحظ لم يستمر أي من هذين الشرطين قائما مدة طويلة.[11]" المفارقة الواضحة هي أن هذين الشرطين إذا كانا مطلوبين قبل أكثر من خمسة آلاف سنة فهما لا زالا مطلوبين للعراق المعاصر!!

هوامش الفصل الرابع

(١) ديلتش، فردريك، بابل والكتاب المقدس، (مترجم)، دمشق، ١٩٨٧، ص١٥-١٦ . . . ، باقر، طه، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٢٢٤ . . . ، رو، جورج، ص٢٠٨-٢٠٩ . . Hammond, Mason, p.50-51.

(٢) باقر، طه، مقدمة في ادب . . . ، ص١٤ . . Robinson ,Jr., p.9-41.

(٣) ساكز، هاري، ص١٠٧ . . . ، باقر، طه، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٢٦٢-٢٦٣ . . . ، باقر، طه، مقدمة في ادب . . . ، ص١٣٩-١٤١ .

(٤) علي، فاضل عبدالواحد، العراق في التاريخ، ص٧٥ . . . ، رو، جورج، ص٢٠٩ . . Hawkes, Jacquetta, p.69.

(٥) سليمان، عامر، ص١٥٤ .

(٦) بارو، اندري، ص٢٢١ .

(٧) بوستغيت، نيكولاس، ص٧٧ . . Hallo ,William W., p.54.

(٨) باقر، طه، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٨٤ (و) ٢٢٤ . . رو، جورج، ص٢١ .

(٩) رو، جورج، ص٢٢١ . . Hawkes, Jacquetta,p.71-72.

(١٠) Hallo,William W., p.60-61.

(١١) رو، جورج، ص٢١٧-٢١٨ .

الفصل الخامس
سلالة (إمبراطورية) أور الثالثة
(أور- نمو)

تميزت فترة الاحتلال الكوتي بعدم الاستقرار وعدم الشمولية، وأخذت سيطرة الكوتيين بالضعف والانكماش قبل أن يُطردوا من البلاد. وبدأت سلالات وطنية بالظهور في عدد من المدن السومرية المهمة مثل الوركاء، أور ، لگش. فرغم الدمار الذي الحقه بها لوكال زاكيري، حافظت لگش على نفسها بشكل أو بآخر، وصارت قبل نهاية فترة الاحتلال الكوتي في عُهدة حكام نشيطين تمكنوا أن يُحافظوا على شيء من استقلالهم وأخذوا على عاتقهم بعث المجد القديم لمدينتهم. كان كوديا (٢١٤٣-٢١٢٤ق.م) مؤسس السلالة الثانية في لگش أحد هؤلاء الحكام. اشتهر بكثرة إنجازاته العمرانية بضمنها مشاريع الري بما فيها فتح القنوات وتجفيف أراضي المستنقعات، وظهرت في عهده مدرسة جديدة في فن النحت والأدب السومري بلغت ذروة ازدهارها. بنى "إمبراطورية" تجارية سلمية شملت تقريباً كافة أراضي أكد. كان قائدا حكيماً أعاد لسومر صحتها السياسية والاقتصادية وثقافتها الحيوية. وفوق ذلك لم يكن عدوانياً. إن معركته الدفاعية ضد عيلام هي الحالة الوحيدة للحرب التي سُجلت في عهده. وبعد وفاته انكمشت مدينته وانتقلت مهمة تحرير أرض سومر إلى أوتوحيكال[١]. جسّدت شخصية كوديا- التي اختفت سريعاً- نموذجاً للحاكم السومري المثالي العادل، المتدين، المثقف، المخلص للتقاليد، المكرس ذاته لإسعاد شعبه، المليء بالحب لمدينته والافتخار بها[٢].

في مثل هذه الظروف تهيأت أسباب مواتية لبروز زعيم سومري شجاع (أوتو-حيكال:سلالة الوركاء الخامسة) تمكن من إرغام المحتلين على النزوح عن البلاد وامتزاج

بقاياهم بالسكان الأصليين. ومن المحتمل أنه حصل على دعم عدد من المدن السومرية الناهضة الأخرى. ويشير نص تاريخي أن "أوتو- حيكال سحق الكوتيين ثعابين الجبال الخبيثة وأعداء الآلهة... ولما قرر الإله (انليل) أن يمحوهم اختار أوتو- حيكال ملك اوروك لتنفيذ إرادته..." يستمر هذا النص في روايته كيف جمع الزعيم السومري محاربي اوروك حوله وسار على رأسهم وخطب بالجموع المحتشدة أمام معبد (إنليل) فهتفوا له، وكيف التقى بجيش (تريقان) ملك الكوتيين وهزمه وألقى القبض عليه فوضع أوتو- حيكال قدمه على رقبة الملك الكوتي وأعاد بذلك ملوكية (سومر) لأهلها. سجِّلت هذه الحركة التحررية الأُولى في التاريخ والتي تحققت في الرابع عشر من تموز البابلي "أول ثورة تموزية في العالم"[٣].

لم يتمتع أوتو- حيكال بانتصاره، فلم يبقَ في الحكم سوى سبع سنوات ونصف السنة قبل أن يتمرد عليه أحد رجاله (أور- نمو)، حاكم مدينة أور الذي اتخذ لنفسه عدة ألقاب من بينها: ملك أور، ملك سومر وأكد، مؤسساً سلالة أور الثالثة، حيث يمثل عهدها واحداً من أروع عصور ازدهار حضارة وادي الرافدين. لم يكتفِ أور- نمو وخلفاؤه من بعده بتأسيس إمبراطورية تُضاهي الإمبراطورية الأكدية طولاً وعرضاً، بل وضمنوا كذلك لوادي الرافدين قرناً كاملاً من السلم والازدهار، خالقين بذلك عصر نهضة لا مثيل له في كل ميادين الفن والأدب السومري[٤].

بعد طرد الكوتيين، ومن ثم اغتيال أوتو- حيكال "الذي حمل النهر جثته"، صار اور- نمو (٢١١٣- ٢٠٩٥) سيد البلاد، وخصصت له قائمة الملوك السومرية حكماً دام ١٨ سنة. كرَّس جهوده لإنجاز المهام الداخلية الملحَّة، فحقق الازدهار الاقتصادي: إقامة العديد من المشاريع العمرانية والإروائية وإنعاش الزراعة، "تطهير الأرض من اللصوص وقطاع الطرق والمخربين"، الاعتناء بشؤون الآلهة والمعابد، تحسين المواصلات، تحصين المدن[٥]. كما أصدر أقدم مجموعة قوانين مكتشفة في تاريخ البشرية (ف١٣). "ولكن اسم أور- نمو سيبقى يرتبط عند علماء الآثار، بشكل خاص وإلى الأبد، بالزقورات أو الأبراج المدرجة التي أقامها في أور، أوروك، أريدو، نفر، وفي مدن عديدة أخرى، والتي بقيت حتى الآن من أكثر نصب ومعالم هذه المواقع إثارة للدهشة والإعجاب"[٦].

قُتِلَ أور- نمو، في حرب مجهولة بعد أن تُرِكَ وحيداً في ساحة المعركة "مثل إناء مهشَّم". خَلَفَهُ ابنه شولكي (٢٠٩٣- ٢٠٤٦ق.م) الذي دام حكمه ٤٧ عاماً. أمضى النصف الأول من عهده في نشاطات عمرانية: أصلح التقويم ووحده، وجعل الموازين والمكاييل على قياس واحد. ومن المحتمل أنه جرت في هذه الفترة عملية إعادة شاملة للمملكة في الميادين السياسية والاقتصادية والإدارية. وفي النصف الثاني من حكمه بدأ سلسلة طويلة من الحملات العسكرية. وتوجد أمارات قوية على أنه بولغ في تقديسه لدرجة التأليه والعبادة أثناء حياته وبعد مماته. كما وجدت في النصوص المكتشفة نحو ثلاثين ترتيلة دينية خُصصت له وخوطب فيها بتمجيد وكأنه إله من الآلهة[٧].

تميزت فترة إمبراطورية أور الثالثة ٢١١٣- ٢٠٠٦ ق.م (أو) ٢١١٢- ٢٠٠٤ ق.م بتطبيق إدارة مركزية أكثر كفاءة وتجانساً من تلك التي في الإمبراطورية الأكدية. فبينما اعتمد ملوك أكد في تثبيت سلطتهم على عساكرهم وحكامهم، نجد أن حكام أور وسَّعوا ميدان النظام السياسي المتوارث في سومر (دول المدن) ليشمل المدن والمقاطعات الواسعة في أنحاء الإمبراطورية كافة. أصبحت الوحدة الإدارية الأساسية هي المدينة التي يقودها حاكم معين من قبل الملك وبالإمكان نقله من مدينة إلى أخرى، وكان يزورهم مفتشون ملكيون. كما جرى وضع بعضهم تحت إمرة حكام مقاطعات أكبر. ولم يكن هؤلاء أكثر من مفوضين على المقاطعات الخاصة بهم. وجرى تعيين أُمراء مقاطعات من بين السكان الأصليين لهذه المناطق. أما الموظفون الملكيون فكانوا يُختارون من بين المواطنين السومريين والأكديين. كما وجرت محاولات الفصل بين الإدارات العسكرية وتلك المدنية بإنشاء إدارة خاصة للأُولى ترتبط بالملك مباشرة[٨].

لاحت عوامل ضعف وانحلال إمبراطورية أور الثالثة في أواخر عهدها لأسباب داخلية اولاً، سهَّلت انهيارها أمام التهديدات الخارجية. منها: إهمال مشاريع الري- العمود الفقري للحياة الاقتصادية، شح الحبوب والمواد الغذائية وارتفاع أسعارها ارتفاعاً فاحشاً، حصول اضطرابات داخلية، تزايد حركات العصيان والتمرد وكثرة الحروب، ضعف السلطة المركزية. بينما تمثلت العوامل الخارجية باندفاع الأموريين من الغرب وهجوم العيلاميين على أور من الشرق.[٩] ولكن مع الأهمية البالغة لتلك العوامل في زوال سلطة السومريين، يبقى عامل آخر لعب دوراً هيكليا في هذه الحصيلة

تجسَّد في تعاظم مشكلة الملوحة في ظروف عدم اكتشاف السومريين لطريقة التصريف (البزل)- (ف١/٣). ويعتقد بعض المتخصصين أن التملح الواسع النطاق الذي طرأ على التربة في الجنوب (بلاد سومر) بين الاعوام ٢٤٠٠- ٢١٠٠ق.م كان السبب وراء تدهور الحضور السياسي للسومريين (ف١/٢).

وبسقوط إمبراطورية أور الثالثة نتيجة هجوم العيلاميين وتدمير عاصمتها، انتهى الحضور السياسي والمجد السومري، وإن بقيت الحضارة السومرية الرائدة بؤرة حضارة وادي الرافدين في كافة مراحلها. وفي الرثاء الأليم التالي الذي رثى به السومريون مدينتهم يتجلى، بالإضافة إلى عظمة الأدب - الرثاء السومري، كذلك قمة المشاعر الإنسانية- الوطنية تجاه الكوارث العاتية التي لاحقت حضارة وادي الرافدين في كافة مراحلها التالية، مُشَرَّبة بالمعتقدات الدينية[١٠]:

" إيه أبانا (نانا)، إن تلك المدينة قد حولت إلى رميم...
وملأت شُعَبها، وليس كِسَر الفخار، كل محلاتها،
وتصدعت جدرانها والناس يئنون.
في أبوابها العالية، التي كانوا فيها يتنزهون، رُميت جثث الموتى،
وفي شوارعها المشجرة، حيث كانت تُنصب الولائم، استلقوا متناثرين.
وفي كل طرقاتها، التي كانوا فيها يتنزهون، سُجِّيَتْ جثث الموتى.
وفي ميادينها، حيث كانت تُقام الاحتفالات،
استلقى البشر بالأكوام...
أور التي أكل الجوع أقوياءها وضعفاءها
وكوت النيران الآباء والأُمهات الذين لم يبرحوا منازلهم.
والأطفالُ المضطجعون في أحضان أُمهاتهم،
كالأسماك حملتهم المياه بعيداً
وفي المدينة، هُجرت الزوجة وهُجر الابن وانتشرت الممتلكات في كل جانب.
أواه يا (نانا) لقد دُمِّرَتْ اور وشُرِّدَ أهلها."

هوامش الفصل الخامس

(١) بارو ، اندري ، ص٥٢ . . . باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . . ص٢٧٧ . . ..Robinson, Jr, p.41

(٢) رو ، جورج ، ص٢٣١- ٢٣٢ .

(٣) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . . ، ص٣٨١ .

(٤) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . . ، ص٣٨٢ .

* اور- نمو يعني : رجل الإله ، ولا علاقة للاسم بمدينة اور . .(رو ، جورج ، ص٢٢٤ ،الهامش الاول) .

(٥) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . . ، ص٣٨٧-٣٨٨ .

(٦) رو ، جورج ، ص٢٢٥ .

(٧) نفسه ، ص٢٣٢ . . ..Hawkes. Jacquetta, p.73-74.., Hallo, WilliamW. p.81

(٨) سليمان ، عامر ، ص١٧١- ١٧٤ . . . ، رو ، جورج ، ص٢٣٤ (و)٢٣٨-٢٤١ .

(٩) باقر ،طه ،مقدمة في تاريخ . . . ،ص٣٩٣- ٣٩٦ . . ،رو ،جورج ،ص٢٢٨- ٢٤١ ،٢٤٥ . . ،سليمان ، عامر ، ص١٧٤ . .
Robinson,Jr.,P.46..,Hawkes,Jacquetta,P.74-76.

(١٠) رو ، جورج ، ص ٢٤٢-٢٤٢(و) ٥٧٦ ، الهامش . . . ، باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٤١ .

الفصل السادس
العصر البابلي القديم
(الأموريون - حمورابي)

يبدأ منذ نهاية سلالة اور الثالثة (٢٠٠٤/٦ ق.م) وينتهي عام ١٥٩٥/٤ ق.م. تميزت هذه الفترة بظاهرتين بارزتين: أولاهما سيادة أقوام جديدة تجسَّدت في التدفق العارم لهجرات الأموريين الجزريين (الساميين) من جهة الغرب وتحطيم الكيان السياسي لوادي الرافدين. وثانيتهما عودة انتشار دول المدن المستقلة نتيجة تلك الهجرات بحيث سُميت مرحلتها الأولى التي دامت بحدود قرنين ونصف القرن "عصر دول المدن الثاني." كذلك اتسمت العلاقات بين دول المدن تلك بالصراعات التناحرية. من أشهر دول المدن المستقلة في هذه المرحلة، بالإضافة إلى بابل: إيسن (إيشان بحريات: ٢٠١٧- ١٧٩٤ ق.م)، لارسا (تل سنكرة: ٢٠٢٥- ١٧٦٣)، أشنونا (تل الأسمر- جنوب بعقوبة: ٢٠٠٠- ١٧٦١ق م)، آشور (قرب نينوى: ٢٠٠٠- ١٧٦٠)، ماري (تل الحريري: ١٨٥٠- ١٧٦١ ق.م). دأبت المملكتان الجنوبيتان (ايسن، لارسا) على شن الحروب على بعضهما لامتلاك أور وحكم بلاد سومر، كما تنازعت السلالتان الشماليتان (آشور، أشنونا) على الطرق التجارية الكبيرة التي كانت تمر في القسم الأعلى من بلاد وادي الرافدين. ولعبت سلالة بابل الأولى دور القناصة في القنص التدريجي لكافة دول المدن المستقلة في هذا العصر[(١)] .

جاء ذكر الأموريين في الأخبار والقصص السومرية منذ مطلع الألف الثالث ق.م بصفتهم بدواً مخربين لا يعرفون الزراعة أو السكن أو دفن موتاهم، ويعيشون على

الكمأ[٢]. "وسواء كان الآراميون يعملون تجاراً أم فلاحين أو...، إلا أن أصلهم كلهم كان واحداً يعود إلى البدو الأجلاف الذين لم يساهموا بإضافة أي انجاز إلى حضارة الشرق الأدنى العريقة[٣]."

تدفقت القبائل الأمورية على بلاد الرافدين من سوريا والصحراء الغربية. أما سوريا فكانت متحضرة، بينما ظلّت المنطقة الصحراوية إقليماً بدوياً متخلفاً. لكن البدو النازحين استطاعوا استيعاب وهضم الحضارة السومرية بيسر وبسرعة فائقة، لأنهم جاؤا من مناطق خضعت للتأثير السومري فترة طويلة، ولأن اللغة لم تشكل عائقاً كبيراً في وجههم. لذلك تبنوا في الكتابة اللغة الأكدية: الجزرية- السامية، وأصبحت لها الغلبة على اللغة السومرية في المدونات الرسمية والخاصة، رغم أن هذا التحول اللغوي لم يؤثر على المعتقدات والقيم الدينية والاجتماعية في وادي الرافدين والمتوارثة من العصر الشبيه بالتاريخي. وبصورة عامة بقيت الحضارة- التي ابتكرها السومريون- حية مشعة، ولم تندثر بعدهم على امتداد المراحل التالية. كما وآثر القادمون الجدد عبادة الآلهة السومرية بعد أن أطلقوا عليها أسماءهم الجزرية الخاصة، وكانت الملاحم والأساطير السومرية القديمة تترجم وتستنسخ بأمانة واحترام أو يتم تبنيها بعد إجراء تحويرات طفيفة جداً عليها[٤].

ونظراً لطول فترة الصراع بين إيسن ولارسا سُميت المرحلة الأولى من هذه الفترة كذلك (عصر إيسن ولارسا). ظهرت سلالة إيسن أواخر عهد سلالة أور الثالثة واستمرت أكثر من مائتي سنة. اشتهر من بين ملوكها (لبت- عشتار):١٩٣٤- ١٩٢٤ ق.م، صاحب أقدم قانون مكتشف بعد قانون أور- نمو. وتستحق حادثة موت أحد ملوك هذه السلالة (أرا-إيميني) ذكراً خاصاً لكونها تقدم تعريفاً لأحد التقاليد الدينية الغريبة والنادرة في حضارة وادي الرافدين والتي مورست حتى من قبل بعض الملوك الآشوريين، (ف١١). وهذه العادة الدينية هي تنصيب (ملك بديل) عند ظهور نذر شؤم خطر على الملك (الدولة). لأن مكانة الملك مقدسة تتطلب الحماية، وعليه الاختفاء والتنازل عن الملك لفترة زمنية محدودة بعد اختياره أحد مواطنيه ليتولى

العرش مكانه. وفي نهاية المدة يعود الملك الأصيل لعرشه ويأمر بقتل (الملك البديل)[٥].

انتهت سلالة إيسن بعد أن تمكنت لارسا من القضاء عليها وضمها اليها فتحول صراعها نحو سلالة بابل الأولى، وكانت لارسا آخر سلالة تم ضمها إلى بابل في عهد حمورابي (١٧٦٣ ق.م) حين أعلن إعادة توحيد بلاد الرافدين.

تُشكل سلالة بابل الأولى (١٨٩٤- ١٥٩٥/٤ ق.م) واحدة من السلالات الأمورية التي تأسست في خضم موجات هجراتها في هذه الفترة. اشتهرت بمليكها السادس حمورابي (١٧٩٢- ١٧٥٠ ق.م) الذي حكم ٤٢ عاماً. قضى حمورابي ٢٩ عاماً- المرحلة الأولى لعهده- بمعالجة دول المدن وقنصها الواحدة تلو الأُخرى. وكان بفضل حكمه الطويل وعبقريته السياسية وقدرته العسكرية، روح مشروع وحدة وادي الرافدين[٦].

أما المرحلة الثانية من عهده، التي عُرِفَتْ بـ (عصر حمورابي): ١٧٦٣- ١٧٥٠ ق.م، فإنه قضاها في استكمال دعائم بناء دولته في كافة النواحي الإدارية والقانونية والاجتماعية والثقافية والعسكرية. أصدر في الأعوام الأخيرة من عهده أوسع وأشمل شريعة لتسري على أرجاء مملكته الواسعة، موحداً بذلك النظام القانوني في البلاد.كما تميز عهده بظهور حركة واسعة في التدوين والتأليف والنقل والترجمة واتساع المعاملات التجارية وتعاظم سلطة الملك وانفصاله عن السلطة الدينية المثلة بالمعبد والكهنة. حدد صلاحيات المعبد ولم يعد يُسمع في عهده شيء، عن محاكم الكهنة واضمحل منصب الحاكم (انسي) الذي كان يجمع السلطتين الزمنية والدينية في حكم المنطقة التي تُعهد اليه، واتبع إدارة مركزية في حكمه، وحرص على متابعة تفاصيل أمور مملكته وشؤونها اليومية، وحَصَرَ السلطة في شخصه وجعل حكامه يستمدون أوامرهم منه، وكان يقوم بجولات تفتيشية في مناطق حكامه للوقوف بنفسه على سير الأعمال ومجريات الأمور، واهتم بتطوير نظام البريد السريع، وأنجز حفر العديد من القنوات وأصلح أسوار مدن عديدة وعمَّر

معابد الآلهة، واهتم بالجيش وصار التجنيد إجبارياً ولم يُسمح لأي جندي بإرسال بديل عنه للخدمة.

ومن الأمور الجديدة التي استُحدثت في عهد حمورابي والتي تشكل خروجاً على التقاليد الدينية القديمة قيام الملك بمنح قطع كبيرة من الأراضي العامة، العائدة للمعابد (الآلهة)، لآجال غير محددة، لبعض الأشخاص ذوي المهن المحددة كرجال الجندرمة. وتبقى الإقطاعية (الكوم) ملكاً خاصاً للملتزم طيلة حياته، وتقسم بين ورثته بعد موته. ولم يكن بالإمكان بيعها أو وهبها، وإن كان يمكن استخدامها من قبل مالكها لدفع فديته فيما لو وقع في الأسر أثناء قيامه بخدمة الملك، وكان يتم تحويل حيازتها لشخص آخر عند عدم إيفاء الأول بخدماته.[٧]

سقطت سلالة بابل الأولى على يد الحثيين الذين دخلوا بابل ونهبوها، حيث تواجدت دولتهم القوية (المملكة الحثية) في الأناضول (تركيا)، وهم من القبائل الهندو أوربية. ونظرا لانسحابهم المفاجئ نتيجة أزمة سياسية في بلاط مملكتهم، استغل الكشيون هذا الفراغ السياسي في بابل فدخلوها وأسسوا سلالة بابل الثالثة (العصر البابلي الوسيط).

تماثلت العوامل التي قادت إلى سقوط سلالة بابل الأولى بعامة مع تلك الأسباب المتشابهة لسقوط دول وإمبراطوريات وادي الرافدين، رغم وجود بعض العوامل الخاصة في هذه الحالة، تتقدمها: أن إمبراطورية حمورابي كانت من صنع رجل واحد هو حمورابي نفسه فاعتمد وجودها على ميزاته الشخصية. يضاف إلى ذلك سياسة حمورابي وخلفائه الذين حصروا اهتمامهم بالعاصمة بابل وتركيز مختلف أوجه النشاط الاقتصادي والثقافي والديني فيها على حساب المدن والأقاليم الأُخرى التابعة.[٨]

هوامش الفصل السادس

(١) الاحمد ، سامي سعيد ، "العصر البابلي القديم" ، العراق في التاريخ ، ص٩١– ٩٥ . . . ، باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٤٠٦– ٤٣٠ . . . ، رو ، جورج ، ص٤٢٥– ٤٢٦ . . Hawkes, Jacquetta, p.76.., Hallo, William, p.97.. ,

(٢) بوستغيت ، نيكولاس ، ص١٦ . . .سليمان ، عامر ، ص١٧٨- ١٧٩ . . . ، باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . . ، ص٤٠٨ .

(٣) رو ، جورج ، ص٣٧١ .

(٤) نفسه ، ص٢٤٧ .

(٥) نفسه ، ص٢٥١ . . . ، سليمان ، عامر ، ص١٨١- ١٨٢ .

(٦) بارو ، اندري ، ص٣١٠ . . . ، وايضاً .Robinson, Jr ., p.46.., De Mieroop, p.,119.., Hawkes, Jacquetta, p.78-79

(٧) رو ، جورج ، ص٢٤٧- ٢٤٨(و)٢٨٠ .

(٨) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . . ، ص٤٣٦ .

الفصل السابع

العصر البابلي الوسيط

(الكشيون)

لا يُعرف أصل الكشيين لعدم معرفة لغتهم. وكل ما يُعرف عنهم أنهم استوطنوا الأجزاء الوسطى من جبال زاكروس الفاصلة بين العراق وإيران في المنطقة المعروفة باسم بلاد اللر (لورستان) في الجهات الجنوبية من إيران (جنوب همدان).[١] ودام حكمهم أكثر من أربعة قرون (١٥٩٥- ١١٦٢ ق.م). وكانوا أقلية دخيلة وغير متحضرة بالمقارنة مع الأغلبية من أهل البلاد، "وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام تراث مُفعَم... ومع ما وجدوه، فقد كانوا من الذكاء بما يكفي للحفاظ على سلامته بدلاً من تدميره...[٢]" وهكذا أظهر القادمون الجدد قوة تكييف ملموسة أمام حضارة راقية طغت عليهم وصهرتهم في بوتقتها. أما المعلومات التاريخية التي خلّفوها فكانت ضئيلة مقارنة بالفترة الطويلة لحكمهم. من هنا اعتبرت هذه الفترة إحدى الفترات المظلمة في حضارة وادي الرافدين، وسادها الانحلال الحضاري[٣].

هناك اتفاق عام على أن الكشيين كانوا معتدلين في حكمهم. اتبعوا سياسة اللين والترضية تجاه سكان البلاد وأظهروا احتراماً خاصاً للآلهة البابلية، وطبقوا سياسة التعايش السلمي مع الممالك المعاصرة. فحققوا أطول فترة في تاريخ حضارة وادي الرافدين عمَّها الاستقرار النسبي فأعادوا الأمن والسلام لبلد أكلته الحروب سنين طويلة. وبذلك استمتع البابليون بين الأعوام ١٦٠٠- ١٣٥٠ ق.م بسلام شبه دائم، فلم تُسجِّل هذه الفترة سوى حملة عسكرية كشية واحدة ضد مملكة القطر البحري:سلالة بابل الثانية- أقصى جنوب بلاد سومر، وبعض المناوشات التي جرت على امتداد حدودهم

الشمالية، قادت إلى عقد بعض الاتفاقات مع بلاد آشور لتثبيت الحدود بين المملكتين. "وهكذا فقد تكرّس انقسام وادي الرافدين إلى قسمين هما بابل وآشور وهو الانشطار الذي ستدوم آثاره لحوالي ألف عام قادم.(٤)" وعموماً، اعتمدت هذه العلاقة على توازن القوى بين الطرفين. ففي فترة ضعف الكشيين تدخلت بلاد آشور في عهد بعض ملوكها الأقوياء في شؤون بابل (آشور- أوبالط ١٣٦٥- ١٣٣٠ ق.م، شليمنصر الأول ١٢٧٤- ١٢٤٥ ق.م) تطور هذا التدخل إلى ضم بلاد بابل طوال سبع سنوات في عهد الملك الآشوري القوي توكلتي- ننورتا (١٢٤٤- ١٢٠٥ ق.م).(٥)

رغم أن الملوك الأوائل للسلالة الكشية اتخذوا بابل عاصمة لحكمهم، لكنهم في حدود منتصف عهدهم أسسوا مدينة جديدة ضخمة (دور- كويكالزو)- عقرقوف (٢٠ ميلاً غرب بغداد). وشهد هذا العصر عودة نشاط الحركة الأدبية وتدوين التراث الأدبي واستنساخ القطع الأدبية المشهورة بإصدار نشرات جديدة لها، وانتشار اللغة البابلية بخطها المسماري على نحو أوسع من العصور السابقة بحيث صارت لغة مراسلات دبلوماسية بين ملوك وحكام الشرق الأدنى بمن فيهم ملوك وادي النيل(٦). ويعود للكشيين الفضل في إدخال ونشر استخدام الخيول والفروسية على نطاق واسع في البلاد، وأدى ظهور العربات التي تجرها الخيول السريعة في ساحة معارك الشرق الأدنى لإحداث ثورة في فنون الحرب. كما أن استبدال الحمير في نقل الحمولات بالعربات التي تجرها الجياد قاد إلى جعل النقل السلعي أسهل وأسرع، وكذا الحال في النقل البشري والمواصلات والبريد. ومن أهم التغييرات التي أحدثها الكشيون استبدال طريقة كتابة التاريخ من الحوادث المشهورة إلى سني حكم الملوك، وابتداع طريقة جديدة لتوثيق الملكيات العقارية (كودورو) - KUDURRU الحدود (أو) أحجار الحدود- وهي مواثيق هبوية وتسجيل للإقطاعيات الملكية الكبيرة من الأرض تُحفر على الحجارة ويحتفظ بها في المعبد ويزود المالكون بنسخ طينية منها(٧).

انتهى العهد البابلي الوسيط بعد التعرض لضربتين قويتين من بلاد عيلام بغزوهم بابل مرتين خلال الفترة (١١٦٨- ١١٦٢) وممارسة أعمال التدمير والنهب فيها ومدن أخرى. ومع انسحاب العيلاميين من بابل بعد غزوتهم الثانية القصيرة الأمد، اغتنم أحد زعماء إيسن الفرصة وطرد الحامية العيلامية وأقام في بابل سلالة إيسن الثانية أو

ما يُعرف بـ (سلالة بابل الرابعة) التي دامت زهاء قرن من الزمن (١١٦٢- ١٠٤١ ق.م) وبرز من بين ملوكها نبوخذ نصر الأول (١١٢٤- ١٠٣١ ق.م) الذي اشتهر بغزوه للعيلاميين في عقر دارهم. سقطت سلالة بابل الرابعة نتيجة تدفق موجات جديدة من الهجرات الأمورية وانتزاع الحكم منها. وبعد انهيار هذه السلالة تعددت السلالات الحاكمة الضعيفة والقصيرة العمر في بابل التي خضعت أكثر من مرة للملكة الآشورية. استمرت هذه الأحوال لغاية العصر البابلي الحديث- سلالة بابل الحادية عشرة- التي عُرفت بـ (الدولة الكلدية)[٨].

هوامش الفصل السابع

(١) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٤٣٥- ٤٥١ . وهناك من يرى ان الحوريين والميثانيين والحثيين والكشيين من مجموعة عرقية واحدة هي الهندو اوبية . (رو ، جورج ، ص٣٠٦) . وقارن : Robinson, Jr.,p.46

(٢) بارو ، اندري ، ص٣٧١ .

(٣) علي ، فاضل عبدالواحد ، "سلالة ايسن الثانية : صفحة مشرقة من النضال ضد الحكم الاجنبي" ، العراق في التاريخ ، ص١٠٤ . . . اوبنهايم ، ليو ، ص٣٣٤ . . . باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٤٥٠-٤٥٣ . Hawkes ,Jacquetta, p.82..

(٤) رو ، جورج ، ص٣٣٥ .

(٥) سليمان ، عامر ، ص٢٠٤ . . . باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٤٦٢- ٤٦٣ .

(٦) كانت اللغة البابلية هي اللغة الرسمية والدبلوماسية من الفرات الى النيل ، مما يدل على تأثير الحضارة البابلية على المنطقة كلها منذ عام ٢٢٠٠ وحتى عام ١٤٠٠ ق .م (ديلتش ، فردريك ، ص٣٣) .

(٧) الاحمد ، سامي سعيد ، العراق في التاريخ ، ص١٠١- ١٠٤ . . . علي ، فاضل عبدالواحد ، العراق في التاريخ ، ص١١١ . . . رو ، جورج ، ص٣٣٦ . . . باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٤٥٧- ٤٥٩ .

(٨) علي ، فاضل عبدالواحد ، العراق في التاريخ ، ص١٠٨- ١٠٩ . . . باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٤٦٦- ٤٦٧ .

الفصل الثامن

العصر الآشوري

(القديم، الوسيط، الحديث)

الآشوريون فرع من الأقوام الجزرية (السامية) الشرقية، استقروا شمال وادي الرافدين (منطقة الجزيرة) منذ فترة تاريخية مبكرة. ولغتهم هي أحد فرعي اللغة الأكدية وينسب اسمهم إلى عاصمتهم و/ أو إلههم الحامي (آشور). كما وردت هذه التسمية بلفظة (آثور) و (أنفور) في المصادر الآرامية والعربية. وكان يعيش قبلهم في نفس المنطقة قوم لم تُعرف لغتهم وأصلهم العرقي، وجاء ذكرهم في النصوص المسمارية منذ عصر فجر السلالات باسم (السوبارتيين) وسميت منطقتهم (سوبارتو)، لكن الآشوريين سادوا المنطقة بعد استيطانهم. واشتهرت بلاد سوبارتو مصدراً لجلب العبيد منها حتى إن لفظة (سوبارتي) أصبحت مرادفة لكلمة (عبد). ورغم أن الآشوريين تحاشوا هذه التسمية فإنهم ظلّوا يُنعَتون بها، خاصة من قبل ملوك سومر وأكد وبابل[١].

كانت مدينة آشور والمنطقة الشمالية من البلاد جزءاً من الإمبراطورية الأكدية، ومن ثم إمبراطورية أور الثالثة وأصبحت ضمن دول المدن المستقلة (عصر دول المدن الثاني). امتد العصر الآشوري القديم على مدى الفترة ٢٠٠٠ - ١٥٠٠ ق.م. ورغم المحاولات التي شهدتها هذه الفترة لبناء بلاد آشور إلا أنها خضعت لمملكة أشنونا بعد عام ١٩٤٢ ق.م. ومع ظهور ملكها القوي (شمس- أدد) الأول وإقامته مملكة واسعة فإن بلاد آشور في عهد خليفة هذا الملك دخلت ضمن إمبراطورية حمورابي، ولم تُحقق استقلالها إلا بعد انهيار السلالة البابلية الأولى لتدخل بلاد آشور في عصرها الوسيط[٢].

دام العصر الآشوري الوسيط زهاء أربعة قرون (١٥٠٠- ٩١١ ق.م). شهدت بلاد آشور خلال هذه الفترة تقلبات وتغيرات سياسية وعسكرية بين القوة والضعف والازدهار والركود وبين السيادة والتبعية. ولم تنفصل أحداثها عن تطورات الأحداث

التي سادت منطقة الشرق الأدنى خلال هذه الحقبة التاريخية. وفي منتصف الألف الثاني ق.م وعلى مدى قرن ونصف من الزمن خضعت بلاد آشور لسيطرة الدولة الميتانية[٣]. وعند مجيء الملك آشور- أوبالط الأول (١٣٦٥- ١٣٣٠ ق.م) نجح في إرساء دعائم الدولة الآشورية بعد قضائه على المملكة الميتانية وضمها لمملكته، ومع ذلك استمرت بلاد آشور تواجه حالة الصعود والهبوط لغاية نهاية هذا العصر[٤].

تميز العصر الآشوري الحديث (٩١١- ٦١٢ ق.م) بتصاعد القوة العسكرية للآشوريين لأقصاها وأصبحت بلاد آشور من أعاظم الإمبراطوريات التي عرفها العالم القديم. قُسِّمت هذه الفترة لمرحلتين: الإمبراطورية الآشورية الأولى (٩١١- ٧٤٤ ق.م) والإمبراطورية الآشورية الثانية (٧٤٥- ٦١٢ ق.م). سجَّل هذا العصر عموماً كثرة الأعمال العسكرية وتصاعد قسوتها وانفجار أحداث داخلية متواصلة امتدت حتى قلب المملكة وداخل العائلة المالكة ذاتها. كما وصادف قيام الإمبراطورية انتشار استعمال معدن الحديد في الشرق الأدنى، فاستغله الآشوريون في بناء أضخم جهاز حربي عرفه العالم القديم، وصنعوا منه أسلحتهم الهجومية الفتاكة.

سجَّلت بداية العصر الآشوري الحديث ظهور رجل الساعة الملك الآشوري أدد- تيراري الثاني (٩١١- ٨٩١ ق.م) مؤسس الإمبراطورية الآشورية الأولى. ومن الملوك الآشوريين الأقوياء في هذه الفترة آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣- ٨٥٩ ق.م) الذي وطَّد كيان الإمبراطورية وجعلها قوية ومستقرة. جمع الصفات النموذجية للملك الآشوري: العسكري الفاتح القاسي والإداري المنظم والبَناء الكبير وشخصية قوية حازمة وقاسية. خلفه شليمنصر الثالث (٨٥٨- ٨٢٤ ق.م) الذي استمر في توسيع الإمبراطورية. صرف ٣١ عاما من فترة حكمه (٣٥ عاما) في سلسلة حملات عسكرية متواصلة جعلته سيد الشرق الأدنى وآسيا الغربية والخليج العربي وتخوم الأراضي الماذية وسواحل البحر المتوسط. وفي الفترة الأخيرة من حياته تمرَّد عليه أحد أبنائه تُسانده ٢٧ مدينة بضمنها آشور، نينوى، أربيل، عرفة (كركوك). أوكل الملك العجوز إلى ابنه الثاني شمس- أدد إخماد الثورة التي فجَّرت حرباً أهلية شعواء استمرت أربعة أعوام قبل القضاء عليها، حيث مات أثناءها شليمنصر الثالث[٥]. ولم تكن ثورة ٨٢٧ ق.م الكبيرة وليدة أزمة داخل العائلة المالكة، بل كانت انتفاضة للنبلاء القرويين وللمواطنين الآشوريين الأحرار ضد (بارونات) المملكة الكبار واستغلالهم وتجاوزهم لسلطاتهم[٦].

اتسمت الإمبراطورية الآشورية الثانية بتصاعد واتساع قوتها وجبروتها بفضل تسلم تجلاتبليز الثالث (٧٤٤- ٧٢٥ ق.م) العرش الآشوري، الذي بدأ تطبيق إصلاح

إداري- عسكري شامل بهدف تقوية السلطة الملكية بصورة تدريجية مقابل التقليل من النفوذ المتفاقم للأمراء الكبار[٧].

اتخذ خليفة تجلاتبليز الثالث لنفسه لقباً أكدياً (سرجون الثاني)، وحكمت العائلة السرجونية بقية فترة الإمبراطورية في تعاقب مستمر على مدى قرن تقريباً (٧٠٤- ٦١٢ ق.م) ومدوها بمزيد من القوة والعظمة، خاصة: سرجون الثاني، سنحاريب، أسرحدون، آشور بانيبال، الذين بلغوا بالإمبراطورية الآشورية أقصى حدودها.

بدأ سرجون الثاني السنة الأولى من حكمه بمعالجة الاضطرابات التي انفجرت في بلاد آشور ذاتها، حرَّر أهلها من التجنيد القسري وجباة الضرائب قبل أن يوجه حملاته لتثبيت دعائم إمبراطوريته، علاوة على إزالته مملكة إسرائيل من الوجود ونقل الكثير من أهلها أسرى وأسكنهم في بلاد ماذي (الميديين).

بعد أن خلف سنحاريب أباه سرجون (٧٠٤- ٦٨١ ق.م)، وجَّه نشاطه الحربي أولاً لإخضاع التمردات في الشام وبابل، وحاصر مملكة يهوذا. وفي تعامله مع بابل، أظهر سنحاريب قسوة بالغة.دحر المتمردين عام ٧٠٣ ق.م، وعندما ثارت بابل ثانية (٦٨٩ ق.م) صبَّ جام غضبه عليها. دمَّر "المدينة المقدسة والعاصمة الثانية للإمبراطورية التي حظيت باحترام الملوك السابقين كافة". وبعد ثماني سنوات من تخريبه بابل (٦٨١ ق.م) لقي سنحاريب، وهو يتعبد في معبده، "المصير الذي يستحقه"، حيث "هُشِّم بنصب الآلهة الحامية" على يد أحد أبنائه[٨].

أوقع اغتيال سنحاريب الدولة الآشورية في أزمة سياسية حادة نتيجة الصراعات التي نشبت داخل الأُسرة المالكة. ورغم عدم استمرارها طويلاً، فإن أسرحدون اضطر لشق طريقه إلى عرش والده بحد السيف ضد جيوش إخوته. وكان أول عمل له التكفير عن فعلة والده سنحاريب تجاه بابل، فأمر بإعادة بنائها، بينما تعامل مع الأطراف الأُخرى المتمردة في إمبراطوريته بالقسوة والبطش. ومع أنه حقق سلاماً قلقاً محفوفاً بالمخاطر،لكنه وجَّه جيوشه لفتح مصر وحاصر ممفيس العاصمة وفتحها (٦٧٩ ق.م).

وحسب وصية أسرحدون، اعتلى عرش آشور ابنه الأصغر آشور بانيبال (٦٦٨- ٦٢٧ ق.م) الذي اشتهر بمكتبته في نينوى ولُقب بـ (نساخ نينوى)[٩]. بينما عين أخاه الأكبر حاكماً على بابل. واصل سياسة أسلافه بتجريده الحملات الحربية ضد حركات التمرد في أرجاء إمبراطوريته، واستكمل مشروع والده في فتح مصر، ودخلت جيوشه

مدينة طيبة عاصمة مصر العليا. وفي عام ٦٥١ ق.م تمرَّد عليه أخوه حاكم بابل فنشبت حرب أهلية بين الأخوين دامت ثلاث سنوات انتهت بدخول جيوش آشور بانيبال بابل واحتراق أخيه داخل قصره. وهكذا تحقق في عهده تهشيم كافة حركات التمرد والعصيان، ولم تظهر الإمبراطورية الآشورية بمثل تلك العظمة ولا بمثل تلك القوة الهائلة في أي وقت مضى. لكن ثمن ذلك كان كبيراً، فالحروب والقتل والخراب تركت آثارها في النفوس غضباً وحقداً ورغبة عارمة في الانتقام بانتظار اللحظة الحاسمة، وأصبح الجيش الآشوري مرهقاً ومستنزفاً بفعل قرون من الحروب الدموية الطاحنة، ووجدت الإمبراطورية الآشورية نفسها محاطة من كل الجهات بحلفاء مشكوك فيهم وأعداء حاقدين. وهكذا، فرغم مظاهر العظمة تلك، كانت الإمبراطورية الآشورية في واقع الحال أضعف منها في أي وقت مضى باتجاه الانحدار والانهيار السريع. إن حالة الغموض التي اكتنفت السنوات الأخيرة من حكم آشور بانيبال، وهو المشهور كغيره من الملوك الآشوريين بالتباهي بتسجيل أحداث انتصاراته سنوياً، قد تُفسر الاضطرابات الداخلية والنكسات العسكرية التي قادت سريعا إلى زوال بلاد آشور عام ٦١٢[١٠].

لسقوط الإمبراطورية الآشورية أسبابه الخاصة، يتقدمها تطرف ملوك آشور في سياسة الفتوحات والإغراق في النواحي العسكرية على حساب الحياة الحضارية. وتكاد تكون أعوام حكم ملوكها حروباً متواصلة، وبذلك حمَّلوا البلاد أكثر من طاقاتها البشرية والمادية. كما أن سياسة القسوة والتدمير والبطش والقتل الجماعي والتمثيل بالأسرى والإرهاب واتباع سياسة الأرض المحروقة زادت من نقمة الشعوب وسخطها. أما بدعة الملوك الآشوريين في التهجير الجماعي فكانت أقسى الوسائل الجهنمية التي ابتكروها والتي قادت ليس فقط إلى موت أعداد ضخمة من الأطفال والنساء والشيوخ ممن هُجِّروا واقتُلعوا من أرضهم وأُجبروا تحت تهديد السلاح على قطع مسافات طويلة جدا تحت الشمس المحرقة، بل وقادت كذلك إلى محو العديد من الأقوام من على خريطة المنطقة. وفي حين كان الملوك الآشوريون في حملاتهم السنوية المتكررة يعودون بمختلف الغنائم لبلادهم فإنهم لم يعطوا اهتماما يُذكر لتحسين أحوال البلدان والمقاطعات التابعة، من هنا جسّدوا أقسى مظاهر الاستعمار القديم[١١]. ففي ربيع كل عام تقريباً كان الملك يدعو جنوده "بأمر الإله آشور"، ليقودهم إلى الحرب، ويعود بالغنائم والجزية وقطار من الأسرى، والويل لمن يحنث بعهده أو يتمرد حيث يُنكل به

ويُقتل الناس أو يُستعبدون وتُحرق المدن والقرى والغلال الزراعية وتُقلع الأشجار، ثم تعود الحملة ترافقها أرتال من الأسرى وسلسلة من العربات المملوءة بالغنائم والأسلاب المنهوبة: منتجات زراعية، معادن ومصنوعات معدنية- الذهب والفضة والرصاص والنحاس، مصنوعات عاجية، أواني معدنية وأثاثاتُ خشبية بما في ذلك ممتلكات قصور الحكام المتمردين المنهوبة مع نسائهم.

وكلما مرت السنون توسعت "حدود صيد" الدولة الآشورية، وتحولت حروب النهب بالتدريج إلى حروب ضم والحاق غالية التكاليف. ولم يبذل الفاتحون الجدد أيما جهد لتمثيل حضارة وادي الرافدين- المتطورة جداً- لإمبراطوريتهم الممتدة أو تحسين الأحوال المعيشية للشعوب الخاضعة لسيطرتهم. وهكذا صارت الثروة تنتقل بانتظام من مناطق الأطراف نحو المركز. فكان الآشوريون يأخذون الكثير ولا يعطون سوى النزر اليسير. شُيد ازدهار الدولة الآشورية على حساب بؤس أحوال رعاياها، الأمر الذي جعلهم تواقين للمشاركة في أحداث العصيان المتتالية. من هنا كان النظام الذي ارتقت الدولة الآشورية على أساسه يحمل في "أحشائه" الـ "جرثومة" التي ستقود إلى سقوطه.

كان آشور ناصر بال من مشاهير ملوك آشور ممن عُرف بقسوته وبطشه وكثرة حملاته العسكرية بحيث أثار اسمه الفزع في منطقة الشرق الأدنى. لم يكتف هذا الملك بسلخ جلود الحكام المتمردين ونشرها على أسوار مدنهم، بل كان يأمر أيضاً بتعذيب الأسرى العُزَّل والمدنيين نساءً ورجالاً وأطفالاً وباستمتاع سادي."أقمتُ عموداً على مدينته وسلخت (جلود) كل الرؤساء المتمردين وكسوت العمود بها. وبنيت بعضهم داخل العمود وخوزقت عليه آخرين. وأوثقت بعضهم حول العمود... وبترت أوصال الضباط الملكيين الذين أعلنوا العصيان.وحرقت العديد من أسراهم بالنار واتخذت الكثير منهم عبيداً، وجدعت أنوف بعضهم وقطعت آذانهم وأصابعهم وقلعت عيون آخرين. وضعت عموداً من الأحياء وآخر من الرؤوس، كما علقت جماجمهم على جذوع الأشجار حول المدينة ثم أحرقت شبابهم وفتياتهم بالنار. أمسكت بعشرين رجلا ودفنتهم أحياء في جدران قصره..." وأهلكت بقية جنوده عطشاً في صحراء الفرات...[١٢]"

يصف سنحاريب هجومه على بابل "هاجمتها كالأعصار، وكالعاصفة أطحت بها... لم أترك من سكانها شيباً وشباناً أي فرد فملأت بجثثهم طرقاتها. أما المدينة نفسها وبيوتها فقد حطمتها وخربتها وبالنيران دمرتها من أسسها حتى سقوفها. ولكي ينسى (الناس) في

المستقبل حتى تراب معابدها... سلّطت عليها المياه فحولّتها إلى مراعي.[١٣]"

كان الاستيلاء على قلعة معادية/ ثائرة إنذاراً بنهب المدينة وممارسة عملية الحرق والتخريب وتجريد محتويات القصور وإشعال النار فيها. ويُنصَب عرش الملك أمام باب المدينة ويتم استعراض الأسرى أمامه يقودهم حاكم المدينة المستسلمة الذي يتحمل أعظم تعذيب مبرح، كأن تقلع عيناه أو أن يحضر في قفص، لغاية وضع نهاية لآلامه الطويلة من قبل الملك. أما زوجات الحاكم المهزوم وبناته فيكون مصيرهن بيت الحريم الآشوري، ويتم تحويل اللواتي من أصل غير نبيل للرق والعبودية. وفي ذات الوقت يبدأ الجند بذبح السكان، والإتيان برؤوس الضحايا في حضرة الملك حيث يتم إحصاؤها من قبل الكتبة. ولم يكن كل الأسرى من الرجال يقتلون، بل يتم تحويل الصبيان والصناع للأسر ليعهد إليهم بأشق الأعمال في مشاريع البناء الملكية التي تُسبب موت الكثير منهم، أما البقية الباقية من السكان فكانوا يُستأصلون من أرضهم ويُبعث بهم لأقاصي الإمبراطورية فيحل محلهم قوم آخرون[١٤]. يُصور عامل مدني بابلي من نفر نقمة الناس وسخطهم على بلاد آشور عندما تجرأ فكتب لملكه أسرحدون قائلاً "إن مليكي يعلم بأن كافة البلدان حاقدة علينا بسبب الدولة الآشورية.[١٥]"

وفي محاولة بحثية لجدولة حالات التهجير القسري وأعداد المهجرين وأماكن التهجير بالاعتماد على مدونات ملوك آشور أنفسهم ووثائق مُكملة.. قُدِّر عدد المهجرين في عصر الإمبراطورية الآشورية بـ ٥ر٤ مليون مُهجَّر اقتلعوا من أوطانهم في أكثر من ٢٢٠ حالة تهجير وبمسافات بعيدة بين أقاصي أطراف المملكة. شملت هذه الأعداد مختلف سكان الإمبراطورية، بمن فيهم أعضاء من العائلة المالكة وعناصر وظيفية مدنية وعسكرية عالية ولغاية الجنود والعبيد. ومن بين ١٢٢ حالة تهجير معروفة شملت حصة بابل (القبائل الكلدانية والآرامية)٣٦ حالة تهجير والميديين ١٨ وعيلام ١٣[١٦].

قُدمت بعض المبررات لكثرة حروب الآشوريين وقسوتهم وبشاعة ممارساتهم ضد الأقوام الأخرى. يرى طه باقر أن هذه السمعة السيئة التي تكونت عن الآشوريين تعود إلى دعايات اليهود ضدهم نتيجة الحملة الآشورية ضد اليهود[١٧]. لكن الدولة البابلية الكلدانية (العصر البابلي الحديث)- ف٩- اشتهرت بسبي اليهود مرتين في عهد ملكها المشهور نبوخذ نصر الثاني، ومع ذلك عُرفت (الدولة البابلية) بأنها حاملة مشعل الحضارة السومرية- الرافدينية. بينما يرى جورج رو أن الحروب الآشورية اقترنت بالمعتقدات الدينية التي تعظم الإله الوطني (الإله الحامي) وحماية أرضه وتوسيع

مملكته والحفاظ على مكانته وتعظيمها[١٨]. وهذا صحيح جداً، لكن هذه المعتقدات الدينية وجدت وبقيت سائدة منذ نشوء الحضارة السومرية الناضجة، بدءاً بدول المدن، شاملة مراحل هذه الحضارة كافة ولغاية سقوطها دون أن تظهر هذه السمعة القاسية على أي من الممالك والإمبراطوريات التي ظهرت في وادي الرافدين باستثناء الآشوريين.

ربما سبب العاملان التاليان، بالإضافة إلى العقيدة الدينية والدوافع الاقتصادية، زخما أقوى في دفع العجلة الآشورية نحو الحرب والقتل. الأول والأهم هو الفجوة الحضارية بين جنوب البلاد وشمالها (ف١/١، ف٢/٢)[١٩]. العامل الآخر، تمثل في انتشار استخدام الحديد واستغلاله من قبل الآشوريين بتركيز شديد لبناء آلتهم الحربية. وهكذا فإن العقيدة الدينية والدوافع الاقتصادية مقرونة بالتخلف الحضاري وتوفر سبل بناء الآلة الحربية (الحديد) كلها اجتمعت لدى ملوك اشور لإظهار قسوتهم وبطشهم وإشباع أطماعهم واستغلالهم.

هوامش الفصل الثامن

(١) سليمان، عامر، "العصر الآشوري"، العراق في التاريخ، ص١١٩ . . . نفسه، "جوانب من حضارة العراق القديم"، العراق في التاريخ، ص١٩٤ . . . باقر، طه، مقدمة في تاريخ . . . ، ص١٢٠(و)٤٧٦ . . DeMieroop, p.48.., Hallo, William W., p.113..

(٢) سليمان، عامر، العراق في التاريخ، ص١٩٩ . . . باقر، طه، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٤٨١- ٤٨٢ .

(٣) امتدت الدولة الميتانية من بحيرة آن (الاناضول) وحتى اواسط نهر الفرات الاعلى ومن جبال زاكروس حتى الساحل السوري . كانت غالبية سكانها من الخوريين . . انظر، سليمان عامر، العراق في التاريخ، ص١٣١ . . . رو، ورج، ص١٢٩ . . . باقر، طه، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٤٨٩ . . وسبقت الاشارة الى ان هناك من يرى في اصل الخوريين والميتانيين والكاشيين انهم جميعاً ينتمون الى مجموعة عرقية لغوية واسعة (الهندو اوربية)، اي انهم آريون . . (رو، جورج، ص٣٠٦) .

(٤) سليمان، عامر، العراق في التاريخ، ص١٢٨- ١٣٣ . . . باقر، طه، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٤٨٦-٤٨٧ .

(٥) باقر، طه، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٥٠٦ . . . رو، جورج، ص٤٠٠ .

(٦) رو، جورج، ص٤٠٣- ٤٠٤ . . Hallo,WilliamW., p.125..

(٧) باقر، طه، مقدمة في تاريخ . . . ، ٥١١ . . . سليمان، عامر، العراق في التاريخ، ص١٣٢- ١٣٣ . . . رو، جورج، ص٤١١ .

(٨) رو، جورج، ص٤٣١ .

(٩) عثر في مكتبة قصر آشور بانيبال على اكثر من ٢٥ الف رقيم نقلت جميعها الى المتحف البريطاني . . انظر، علي، فاضل عبدالواحد، سومر، اسطورة وملحمة، ص٣٠ . . Nicholas,p.16. Postage,.

(١٠) سليمان، عامر، العراق في . . . ، ص١٥٥- ١٥٩ . . . باقر، طه، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٥١٢-٥٢٨ . . . رو، جورج، ص٤١٤- ٤٤٧ .

(١١) في اسباب سقوط الامبراطورية الآشورية، انظر، باقر، طه، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٥٢٧- ,٥٢٨ . . رو، جورج، ص٣٨٢- ٤٤٨ . . Hawkes Jacquetta, P.92..

(١٢) رو، جورج، ص٣٩١- ٣٩٢ .

(١٣) نفسه، ص٤٣٠- ٤٣١ . . . وأيضاً Hawkes,Jacquetta,P.84-85.

(١٤) كونتينو، جورج، ص٢٥٧- ٢٥٨ .

(١٥) رو، جورج، ص٤١٢ .

(١٦) Mass Deportation and Deportees in Neo-Assyrian Empire.by Oded, Bustenay and others, Bonn,Germany, 1979, p.2-28.

(١٧) باقر، طه، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٥٢٠- ٥٢١ .

(١٨) رو، جورج، ص٣٨٣- ٣٨٤ .

(١٩) نفسه، ص١٠٠- ١٠١، ١١٧- ١١٨ . . . سليمان، عامر، العراق في . . . ، ص١٩٢ .

الفصل التاسع
العصر البابلي الحديث
(العصر الكلدي)

شغل هذا العصر المملكة الكلدية في بابل (٦٢٦- ٥٣٩ ق.م)- السلالة البابلية الحادية عشرة. ورغم أن هذه الفترة لم تتجاوز القرن الواحد لكنها تُعَدّ من العهود المجيدة. تميزت بإحياء وانبعاث حضارة ميزوبوتاميا وكثرة مخلّفاتها الأثرية المسمارية. والكلديون ينتمون إلى قبيلة كلدو، إحدى القبائل الجزرية (السامية) الآرامية[١].

استقر الكلديون جنوب البلاد وفرضوا سيطرتهم على الخليج العربي (مملكة القطر البحري). وفي أواخر عهد آشور بانيبال ظهر أمير كلداني (نبولاصر) تزعم ثورة بابل ضد بلاد آشور (٦٢٧ ق.م). وفي العام التالي أعلن ملوكيته وجلس على عرش بابل معلناً تأسيس السلالة الكلدية. وبعد أن قضى على الحاميات الآشورية وفرض سيطرته الكاملة على المدن السومرية والأكدية (بلاد بابل) أخذ بتوجيه هجماته نحو بلاد آشور نفسها. وبمساعدة حلفائه الماذيين استطاع القضاء على الدولة الآشورية التي سقطت عاصمتها نينوى عام ٦١٢ ق.م وخُربت بقية عواصمها ومدنها الرئيسة، ثم طوردت فلول الجيوش الآشورية وتم القضاء على بقايا مقاومتها في حدود ٦١٠ (أو) ٦٠٩ ق.م.

يصف نبولاصر انتصاره بكلماته الموجزة التالية "ذبحت بلاد السوبارتوم (آشور) وأحلت أرض العدا إلى أكوام ورميم... وأرغمت الآشوريين، الذين حكموا منذ زمن بعيد كافة الشعوب على ترك (بلاد) أكد، وخلعت نيرهم". كانت الضربة قاضية ومدمرة أنهت الوجود الآشوري وتركت عواصم آشور ومدنها الرئيسة خرائب وعبَّرت عن حقد دفين وانتقام قاس. ورغم شهرة أهل الرافدين بأدب الرثاء "فلم يُكلف أحد نفسه عناء الجلوس على أطلال نينوى المخربة ليبكيها بمرثاة مُعبِّرة.[٢]"!

ويظهر أن الماذيين- الذين شاركوا بالقضاء على الإمبراطورية الآشورية- لم يطمعوا بالأرض، بل إنهم اكتفوا بالغنائم التي حققوها ثم انسحبوا إلى بلادهم في جبال زاكروس تاركين لحليفهم نبولاصر التصرف كما يشاء بأقاليم الإمبراطورية الآشورية، وبذلك صار البابليون يسيطرون على كامل منطقة بلاد آشور، وشكل عهدهم آخر عهود وحدة واستقلال بلاد الرافدين[٣].

بالإضافة إلى مؤسس السلالة الكلدية (نبولاصر)، اشتهر من بين ملوك هذه السلالة نبوخذ نصر الثاني (٦٠٤- ٥٦٢ ق.م) بسلسلة معاركه الطويلة ومشاريعه العمرانية الواسعة خاصة في مدينة بابل التي أصبحت في عهده من أشهر مدن الدنيا وعنوان حضارة وادي الرافدين. كما اشتهر نبوخذ نصر بسبيه لليهود مرتين، الأولى عام ٥٩٧ ق.م وفرضه (صدقيا) ملكاً على أورشليم وأخذ معه ثلاثة آلاف أسير. وعندما تمرد الأخير عليه، جهَّز حملته الثانية ودخل اورشليم ودمرها وهدم أسوارها ودكَّ معالم سليمان[٤]. وكان هذا هو السبي الثاني لليهود (٥٨٦ ق.م). تصرف الملك البابلي بدرجة عالية من القسوة. أمر بقتل أولاد صدقيا أمام عينيه وفقأ عيني صدقيا وأخذه مع ٤٠ ألف أسير بضمنهم الأُمراء والوجهاء والحرفيون ومكثوا في بابل لغاية سقوط السلالة الكلدية. وفي هذه الفترة تم تدوين أجزاء من التوراة في بابل[٥].

حكم نبوخذ نصر ٤٣ عاماً، ويُعد عهده عموماً من العهود الزاهرة في تاريخ بابل الحديث، لكن السنوات الأخيرة من حكمه يكتنفها الغموض وربما شهدت بعض الاضطرابات الداخلية. خلفه بضعة ملوك سجل حكمهم فترة ضعف وعدم استقرار. بل إن الملك الأخير نبونائيد (أو) نبونيدس- أحد أبناء النبلاء في حران، الذي كان من الشخصيات الرفيعة في عهد نبوخذ نصر الثاني- جلس على عرش بابل بانقلاب داخلي. كانت أُمه كاهنة عليا في معبد إِله (سين)- إِله القمر- في تلك المدينة، تأثر بعقيدتها الدينية، فركَّز على الإِله (سين)، رغم عدم إنكاره لبقية الآلهة، ووضع حسابات المعبد تحت إشراف الدولة، مع أنه لم يزد حصة الدولة في عوائد المعبد المقررة سلفاً (٢٠.٠٪)، فأثار كهنة بابل ضده. كما اشتهر بولعه بالحفريات بحثاً عن أحجار الأسس العائدة لبناة المعابد الأولى، مما زاد في إنهاك الخزينة العامة- التي أخذت بالضعف نتيجة إسراف نبوخذ نصر في مجال الإعمار (الإنفاق الضخم على أسوار بابل بالإضافة لحملاته العسكرية المستمرة). وبذلك شهدت هذه الفترة تدهور الأوضاع

الاقتصادية ومستويات معيشة عامة الناس، وحصول القحط والمجاعة والارتفاع الشديد للأسعار، واضطرار الفقراء إلى بيع أولادهم أو التخلي عنهم لصالح المعبد ليتولى أمر معيشتهم. سقطت السلالة الكلدية على يد كورش الفارسي (٥٣٩ ق.م). ويُقال إن الخيانة لعبت دورها في هذا الانهيار. ويستند هذا الرأي للمثل البابلي الذي ذكره هيرودوتس "إن الفرس قادرون على احتلال بابل فقط عندما يلد البغل"[٦].

ورغم انتهاء عهود الاستقلال في البلاد، فإن الحضارة التي صنعها السومريون بقيت حية مشعة ولم تندثر خلال سنوات التدهور السياسي. فبعد أن أُبيدت هذه الحضارة في بلاد آشور استطاعت البقاء متألقة في بابل فترة أُخرى قبل اختفائها، حيث اختفى آخر خط مسماري مع بداية الفترة المسيحية. لكن الحضارات من هذا النوع نادراً ما تموت دون أن تخلف آثارها. فالعالم الحاضر يدين للسومريين والبابليين بالمبادئ الأساسية لرياضياتهم وفلكهم، بضمنها نظام الأرقام ذات القيمة المرتبية والنظام الستيني الذي ما زال يقسم على أساسه الدائرة والساعة علاوة على مبادئ الإدارة الكفوءة. ونظام الحسابات والقيم والأسعار والائتمان. كما تجسد المنحوتات والمعابد والزقورات وأسوار المدن خبرة هندسية رفيعة وفناً متقدماً في مجال العمارة والبناء. امتدت آثار هذه الحضارة لتتجاوز بلدان الجوار إلى وادي الهند وادي النيل والأناضول وكريت وإيجة وأوربا. يضاف إلى ذلك الكثير من أصول حضارة وادي الرافدين التي يمكن تحريها في الكتاب المقدس. يقول جورج بوييه شمّار "إن الديانة اليهودية أخذت أصولها من الديانة السومرية والبابلية والآشورية، وأن كل ما فعلته التوراة هو أنها غيرت الأسماء واستبدلت تعدد الآلهة بوحدانية الإله والإله (يهوه). [٧]"
ويقول فردريك ديلتش إن"العصور العبرية القديمة ترتبط من أولها إلى آخرها ببابل وآشور. [٨]"

كما أن عطلة السبت- التقليد اليهودي- هي تقليد بابلي أولاً، إذ كان البابليون يرتاحون يوم السبت ويمتنعون عن القيام بأي عمل. "لذلك لا يمكن الشك في أننا ندين براحة يوم السبت أو الأحد (أو الجمعة) في النهاية لهذا الشعب المتحضر بين الفرات ودجلة[٩]." كذلك ترسّخت الوصايا التي تنص على "أن لا تمس الآخر بسوء كما تريد أن لا يمسك أحدٌ بسوء. فلا تقتل ولا تزن ولا تسرق"، وهي من الأدبيات البابلية التي وردت في الوصايا الخامسة والسادسة والسابعة في العهد القديم (التوراة)[١٠]. وينتهي فردريك ايلتش بقوله "وأرجو أنني أفلحت في عرض الأدلة التي تشير إلى أن تفكيرنا الديني بواسطة الكتاب المقدس ما زال يلونه الكثير من العناصر البابلية... [١١]"

ويرى عالم السومريات (بوبل) إن الاسم العبري SHEM (في العربية سام)

مشتق من كلمة SHUMER (سومر). وحسب عالم السومريات الأمريكي صموئيل نوح كريمر "وإذا صحت فرضية بويل... فعلينا أن نفترض أن المصنفين العبرانيين للتوراة، أو في الأقل بعضاً منهم، عدَّ السومريين الأجداد الأصليين للعبرانيين... من الجائز أن يكون هناك قدر كبير من الدم السومري في عروق أجداد إبراهيم، الذين عاشوا أجيالاً عديدة في أور أو في مدن سومرية أُخرى. أما ما يتعلق بالثقافة والحضارة السومرية، فليس هناك من سبب للشك في أن طلائع العبرانيين هؤلاء قد استوعبوا وهضموا كثيراً من مفاهيم الحياة السومرية.(١٢)"

ويتبين التأثير السومري في معتقدات العبرانيين، أن أسفار التوراة بعامة وسفر التكوين بخاصة، احتوت على كثير من المعتقدات ذات الأُصول السومرية والبابلية وإلى حدود دفعت ديلتش إلى القول بِأن سفر التكوين "غارق في ذنوب الانتحال". وجاء رد أنصار التوراة بقولهم إن وجود أوجه متشابهة من النتاج الحضاري الرافديني والتوراتي دليل على عمق الروابط بينهما. فطالما أن الآباء الأوائل جاؤا فعلاً من وادي الرافدين، كما تؤكد ذلك التوراة مراراً، خاصة وأن التوراة نفسها تشير إلى أن إبراهيم الخليل كان أصلاً من (أور الكلدانيين)- سفر نحميا ٩:٧، عندئذ لنا أن نتوقع أن يكونوا على علم بنتاج موطنهم الأصلي. عليه، وحسب قولهم، فإِن وجود "مادة مستوردة" في سفر التكوين هو "برهان على أصالة اشتقاقها وليس على كونها سرقة نكراء"، وهذا الكلام بدوره اعتراف منهم بِأن التوراة كتاب وضعي دنيوي(١٣)! يضاف إلى ذلك أنّ هناك قدأر واسعاً من الاتفاق بين الباحثين على أن الديانة اليهودية كما هي معروفة الآن ولدت أثناء الأسر في بابل وأن الأسفار الأولى التي تبدأ بها التوراة أخذت شكلها الحالي من خلال وجود اليهود في الأسر ولغاية سقوط بابل(١٤).

واذا ما أردنا أن نكون موضوعيين في متابعتنا لتأثيرات المعتقدات السومرية في الديانات الأُخرى، وإذا ما اعترفنا بِأوجه التطابق أو التماثل أو التشابه القائمة بين التوراة والإنجيل: الديانة اليهودية والمسيحية (الوصايا القديمة والوصايا الحديثة) وبين القرآن (الديانة الإسلامية)، عندئذ يحق لنا أن نقر ونعترف أن هذه الديانات الثلاث الرئيسة تجد الكثير من جذورها في المعتقدات الدينية والأخلاقية السومرية.

بسقوط الدولة البابلية الحديثة صارت البلاد تابعة أولاً للفرس الإخمينيين (٥٣٩-٣٣١ ق.م) ثم السلوقيين المقدونيين (١٢٦/١٣٨- ٢٢٧ ق.م) واخيراً الفرس الساسانيين (٢٢٧ ق.م- ٦٣٧م)، أي لغاية الفتح العربي الإسلامي. ويعود العراق مهداً

للحضارة في العهد العباسي (٧٤٩- ١٢٥٨م) على مدى أربعة قرون فقط، مع ما انتابه من ضعف وتدخلات بدءاً بالنفوذ التركي (٨٦٢-٩٤٥م) ومروراً بالتسلط البويهي الفارسي (٩٤٦- ١٠٥٥) والتسلط السلجوقي التركي (١٠٥٥- ١١٥٥م) ومن ثم السقوط (١٢٥٨م) أمام الزحف المغولي والخضوع لسيطرة الدولة الإيلخانية، ثم هجمات تيمورلنك (١٣٩٣م ١٤٠١م،١٤٠٢م) والسيطرة الجلائرية التي شكلت امتداداً لسلطة المغول ثم الخضوع لدولة الخروف الأسود ودولة الخروف الأبيض (الأتراك) والاحتلال الصفوي (الإيراني) وأخيراً الحكم العثماني- التركي (١٨٣١/٤- ١٩١٤م) ومن ثم حكم الإنكليز ولغاية الاستقلال الرسمي (١٩٣٢م). وهذا العرض السريع يبين أن بلاد الرافدين ذات الحضارة العريقة استقبلت طوال عهودها أمواجاً بشرية لمختلف الأقوام فأثرت في تركيبتها السكانية وغرست فيها تعددية لغوية- قومية عاشت معها حتى الوقت الحاضر وأصبحت جزءاً من مكونات ووجود المجتمع العراقي المعاصر.

هوامش الفصل التاسع

(١) سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ ، ص٢٤٧- ٢٤٨، . ، رو ، جورج ، ص٥٠٢ . . . ، باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٥٤٨ . . هناك من يرى ان اصل الكلدانيين محل خلاف لندرة المصادر عنهم (الاحمد ، سامي سعيد ، العراق في التاريخ ، ص١٦٣) .

(٢) رو ، جورج ، ص٥٠٥ .

(٣) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٥٥٠ (و)٥٤٧ . . . ، سليمان ، عامر ، العراق في . . . ، ص٢٤٥ .

(٤) سليمان هو أحد ملوك مملكة اسرائيل التي ظهرت نتيجة الانتصارات التي حققها داود (١١٠٠-٩٥٥ ق .م) على الفلسطينيين والكنعانيين في فلسطين وعلى الدويلات الواقعة شرق الاردن . أُعتبرت فترة حكم سليمان عهداً مجيداً في تاريخ المملكة ، واصبحت اورشليم عاصمتها ، ويُقال ان ٢٠٠ الف عامل ساهم في انشاء معبدها . وكان سليمان ، رغم شهرته بحكمة القول ، يعيش في قصر منيف بين سبعمائة زوجة وثلاثمائة خليلة .كان هذا الاسراف أكبر من ان تتحملهُ المملكة . وبعد وفاته (٥٣٥ق .م) نشبت حركات عصيان ادت إلى انشطار المملكة شطرين : المملكة الاسرائيلية في الشمال وعاصمتها (السامرة) ومملكة يهوذا في الجنوب وعاصمتها (اورشليم) . وهكذا فإن المملكة الموحدة لم تدم اكثر من قرن واحد (رو ، جورج ، ص٢٦٢- ٢٦٣) .

(٥) كونتينو ، جورج ، الحياة اليومية في بابل وآشور (مترجم) ، بغداد، ١٩٧٩ , ص٢٢ . . . ، الاحمد ، سامي سعيد ، العراق في التاريخ ، ص١٦٦ . . . ، باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٥٥٠(و)٥٦٢ . . . ، رو ، جورج ، ص٥٠٨ .

(٦) الاحمد ، سامي سعيد ، العراق في التاريخ ، ص١٧٨ .

(٧) شمار ، جورج بوييه ، المسؤولية الجزائية في الآداب الآشورية والبابلية ، ص٦ . . وايضاً .Robinson,Jr.,p.41-48

(٨) ديلتش ، فردريك ، ص١٠ .

(٩) نفسه ، ص٣٤ .

(١٠) نفسه ، ص٤٢ .

(١١) نفسه ، ص٥٠ .

(١٢) علي ، فاضل عبدالواحد . من الواح سومر الى التوراة ، ص٢٥ .

(١٣) نفسه ، ص٣٩- ٤٠ .

(١٤) نفسه ، ص٤٣ .

الفصل العاشر
المؤسسة الدينيـة

احتل الدين موقعاً محورياً في حياة الشعوب القديمة، وعليه فهو يشكل مصدراً مهماً لدراسة مسيرة حياتها وطبيعة نموها ونضوجها ومن ثم سقوط حضاراتها. فالمعتقدات الدينية ترسم الخطوط العريضة لأفكار وممارسات وسلوكية الإنسان، قيمه ومزاجه، عاداته وأعرافه، تقاليده وقوانينه.. من هنا احتلت دراسة الدين موقعا بارزاً في فهم حضارات الشعوب القديمة. تزداد هذه الأهمية في استيعاب أول حضارة بشرية ناضجة (الحضارة السومرية) التي نشأت عام ٣٠٠٠ ق.م، خاصة ما يتعلق منها بمراجعة الذات لدى إنسان المجتمع العراقي المعاصر، أفكاراً وممارسات، بعد هذه الحقبة الزمنية الطويلة.

يمكن متابعة آثار الدين وبصماته في حضارة وادي الرافدين في كافة مجالاتها وعناصرها. فعلاوة على الأساطير والملاحم الدينية، التراتيل والصلوات، جداول بأسماء الآلهة والأرواح الخيّرة والشريرة، نصوص الفأل وقراءة الطالع والنصوص السحرية، تعاليم إقامة الشعائر والطقوس الدينية، الاحتفالات والأعياد الدينية، الرقى والتعاويذ، المخلفات الدينية: المعابد، الزقورات، التماثيل والنصب والألواح الجدارية، المشاهد الدينية المنقوشة على الأختام الأسطوانية والأواني الفخارية.. كذلك يمكن ملاحظة آثار الدين بسهولة في المجالات الأخرى بدءاً من القصص والأساطير والملاحم الأدبية، القانون والقضاء، الفلك والطب، ولغاية نظام الحكم والنظام العائلي- الاجتماعي[١].

من هنا يصعب فهم نشوء ونمو وموت حضارة وادي الرافدين قبل دراسة عقيدتها الدينية دراسة تتصف بالعمق والشمولية. لأن هذه الحضارة نشأت وماتت في أحضان

الدين. يقول طه باقر: "وإذا أخذنا في الاعتبار بأن عصر فجر السلالات يمثل ظهور حضارة وادي الرافدين الناضجة وأن فترة العصر البابلي الأخير كانت آخر عهودها، جاز لنا القول إنها لصدفة تاريخية عجيبة أن تكون هذه الحضارة قد ولدت وماتت في كنف الآلهة والمعبد.(٢)" وربما سيتضح مع نهاية هذا البحث أن نشوء وموت هذه الحضارة في كنف الدين- المعبد لم تكن صدفة تاريخية بقدر ما عبَّرت عن ظاهرة تاريخية موضوعية رافقت الحضارات الدينية القديمة بعامة، لأسباب يمكن أن تجد تفسيرها في قلب هذه الحضارة الدينية، وخلاصتها الفجوة التي تزداد اتساعاً بين عناصرها المادية التي ترنو إلى النمو المتصاعد لاستمرار هذه الحضارة وتطورها وبين القيود والمحرمات الدينية الكثيرة المعوقة والمانعة لحركة نمو تلك العناصر لغاية خنقها واختناقها. (ف١٧)

عليه تنطلق أهمية دراسة المعتقدات الدينية من أهمية الدين نفسه الذي شكل وعاء حضارة وادي الرافدين وروح المجتمع community spirit(٣). "ولم يلعب الدين الدور الكبير الذي لعبه هنا قط في أي مجتمع قديم آخر لأن الإنسان في هذا المكان كان يشعر على الدوام بأنه يعتمد كلياً في استمراره بالوجود على إرادة الآلهة(٤)." هذه الآلهة التي تجسدت في العوامل الطبيعية ذاتها (حسب عقيدة القوم) بكل مواصفاتها من خير وشر والتي كان يواجهها الإنسان يومياً في حقله وعمله وحياته.

والدين ظاهرة قديمة قدم وجود الإنسان نفسه، التصق بعقله وفكره وممارساته منذ أقدم العصور، وقدم خدمات جليلة للبشرية بتقويم سلوك الإنسان في وقت لم تتواجد بعد الدولة والشرطة والقوانين الضبطية. وتشير الدلائل الأثرية للقبور المكتشفة إلى أن أشكالاً من المعتقدات الدينية عاشت مع الإنسان منذ العصر الحجري القديم. وفي العصر الحجري الحديث عندما حلّت الزراعة والتدجين محل جمع القوت والصيد انصبَّت عناية الإنسان على تغيرات فصول السنة، وأصبحت طقوس الزراعة والخصوبة محور الفكر الديني. من هنا يلاحظ وجود تماثيل أنثوية (الإلهة الأم) رمزاً للخصوبة(٥).

١- المعتقدات الدينية

لعلَّ من الأمور الملفتة للنظر في ديانة وادي الرافدين هي كثرة عدد الآلهة. وجِدَتْ نصوص لاهوتية تتضمن قوائم بأعداد الآلهة في حدود ٢٠٠٠- ٣٠٠٠ اسم. لذلك فإن

تنظيمها قد يتطلب كتاباً أو معجماً ليس بالصغير، مع ملاحظة صعوبة تحديدها بدقة في فترات زمنية مختلفة لهذه الحضارة، نظراً لدخول آلهة جديدة في مجمع الآلهة مع مجيء أقوام جديدة للبلاد، علاوة على استمرار الاكتشافات الأثرية(٦).

تمثَّلت صلة الإنسان بالآلهة كصلته ببقية الناس، أي كانت لها درجاتها. من هنا صُنِّفَتْ إلى مستويات متباينة في أهميتها وأقدارها ومنزلة عبادتها وتقديسها. فإذا كان ملك بابل مثلاً يخضع مباشرة لأوامر (مردوخ)- إله بابل- فإن صلة الفلاح البابلي كانت أقرب لـ (إشنان)- إله الشعير أو (شوموكان)- إله الماشية. وهكذا كان الفرد من عامة الناس مهتماً بعدد محدود من الآلهة التي تساعده في حياته اليومية سواء بالعلاقة مع حقله- عمله أو لحمايته من هجمات الأرواح الشريرة: الشياطين- العفاريت أو تحذره من الأخطار المحدقة به أو تحقق توسلاته. فحيثما تطلبت الحاجة يمكن بترتيل ابتهال أو تقديم نذر (كمية من التمور، ضحية حيوانية..) استرضاء (كولا)- إلهة الإنجاب أو (باساك)- حامي المسافرين. وفي حالات الطوارئ الخطيرة يمكن التماس عون الآلهة الكبيرة بواسطة الكاهن أو بشكل مباشر من خلال (الإله الشخصي) الذي يتواجد دائما كالملاك الحارس إلى جانب المتعبد(٧).

صُنِّفتْ آلهة وادي الرافدين في مجموعات ثلاثية متباينة القوة والمكانة والأهمية ومركز العبادة. بعضها قليل الأهمية تقع في أسفل السُلَّم بحيث لم يُخصص لها أكثر من مزار أو مصلّى صغير في زاوية شارع. وهناك آلهة اقتصرت عبادتها على المدينة- الدولة ذاتها (الإله الحامي) وأشهرها (مردوخ)- إله بلاد بابل- و (آشور)- إله بلاد آشور. وتحولت قلة منها، بسبب طبيعتها، إلى معبودات بشرية مثل (سين) إله القمر- إله المعرفة الذي "يقرأ المستقبل المجهول ويعرف جميع المصائر"، و(شمش)- إله الشمس- إله العدالة "مبدد الظلام... يفضح الأشرار ويكشف العدل"، و عشتار (أنانا)- إلهة الحب والحرب التي اتخذت شكلها المنظور في كوكب الزهرة (فينوس) نجمة الصباح والمساء. وكانت إلى جانب أختها (ايريشكيكال)- ملكة العالم الأسفل- عالم الأموات، أقوى وأشهر إلهات وادي الرافدين. أما تموز (دموزي)- إله الخصب فإن شهرته الشعبية الواسعة تعدت حضارة وادي الرافدين لاشتهاره بالاقتران من (عشتار) حيث نشأ عن هذا الزواج عادة عبادة الخصب التي كانت تُمثَّل في احتفالات سنوية

(مطلع الربيع) وعُرف بـ (الزواج الإلهي المقدس) ويقوم بدورهما الملك أو الحاكم مع كاهنة عليا خاصة. وما جرى لـ (دموزي) على يد حبيبته عشتار بإنزالها له للعالم الأسفل، فأصبحت عادة البكاء على (تموز) ممارسة شعبية تقليدية وردت في التوراة (سفر حزقيال ٨:١٤)[٨].

وأخيراً، تأتي الآلهة الثلاثة الذكور الكبار على رأس الآلهة جميعا، حيث أخذوا يتقاسمون حكم الكون فيما بينهم (آنو Anu إله السماء وإنليل Enlil إله الجو وإنكي Enki أيا - إله الأرض ومياه العمق)، بعد القضاء على آبائهم من جيل الآلهة القديمة في حرب طويلة دامية، ثم تم خلق السماء والأرض والحياة والموارد، وأخيراً تمّ خلقُ الإنسان، لتكون مهمته العمل لخدمة الآلهة (ملحمة الخليقة البابلية (ف١٦).

جسَّد (آنو) شخصية السماء الجبارة التي اشتق اسمه منها. كان مقامه في السماء العليا (السماء السابعة). تمركزت طقوس عبادته في الوركاء مع ابنته عشتار. وكان شعار الملكية والصولجان وألواح القدر والمصائر عند مقام آنو السماوي. ومع أنه اعتبر ملك/ أب جميع الآلهة، وأعلى قوة في الكون، لكنه لم يلعب دوراً مهماً في تقرير شؤون الكون، وبقي رمزاً مهيباً منذ أوائل عهد السومريين واسماً مبهماً. ويظهر أن (إنليل) رُفع إلى "المنزلة العليا" لِلآلهة من الناحية العملية، رغم أن مكانته اهتزت بعد الطوفان لصالح (إنكي) وانتقلت هذه المكانة إلى (مردوخ) بعد اتساع رقعة وسلطة بابل. و(إنليل) هو ثاني إله كبير في الثالوث الإلهي الحاكم. وكان يُعرف عند الكنعانيين باسم (بعل) ومعناه (الرب). تمركزت عبادته في نفر. وهو سيد الرياح إله العواصف- إله الجو. وهو الذي أصرَّ على تدمير الجنس البشري بالطوفان. ويُعتبر (انكي) ثالث الآلهة الثلاثة الكبار. وهو سيد/ رب الأرض والمياه العذبة والجارية "هاوية المياه" التي يطفو فوقها العالم الأرضي. ويعني (أيا) بيت الماء، وهو وصف لمملكته. وكان البابليون يعتقدون أن المعرفة والحكمة تكمنان في هذه الهاوية التي كانوا يشخصونها باسم (أبسو)- مقر المعرفة. امتلك إنكي كل خصائص الماء- واهب الحياة: دائم الوجود، رائق، مُطَهِّر، ومخصب. وهو أيضاً إله الحكمة والمعرفة والذكاء "ذو الآذان الواسعة الذي يعلم بكل ماله اسم". وكان مُلَقِّن وحامي الصناعات والحرف والفنون والأدوات، وهو كذلك إله السحر (الأبيض) وراعي السحرة الخيرين ممن يعملون

على حماية العباد وطرد الشياطين والأرواح الشريرة. وهو المعلم العظيم والناظر الجبار الذي أخذ على عاتقه تأدية العالم المخلوق لواجباته. وهو لطيف على الدوام. وكان مُحباً وحامياً للبشرية، لعب دوراً أساسياً في منع دمار الجنس البشري بكامله أثناء الطوفان. وهناك بعض الأساطير التي تنسب إليه خلق الإنسان من الطين[٩].

جاءت هذه الكثرة من الآلهة التي تقوم على "مبدأ الشرك" بالعلاقة مع عقيدة القوم بوجود قوى خفية في مختلف الظواهر الطبيعية- الكونية: الشمس، القمر، الكواكب والنجوم، السماء، الأرض، الهواء، الأمطار، المياه، النبات.. وبمرور الزمن جُسِّدتْ هذه القوى في شكل آلهة لها صفات وخصائص مميزة وواجبات محددة، وصار لكل من هذه القوى إله، أو أن كلاً منها في ذاتها جَسَّدتْ إلهاً معيناً. وهو ما يسمى بـ "مبدأ الحيوية". وشبَّه القوم آلهتهم بالبشر فخلعوا عليها جميع الصفات البشرية، فهي تأكل وتشرب وتتزوج وتفرح وتحزن وتمرض وتحب وتكره وتغضب وتحقد وتعفو وتنتقم وتتخاصم وتتحارب وتُجرح وحتى تموت أحيانا وتذهب إلى العالم الأسفل. وهو ما يُعرف بـ "مبدأ التشبيه"، أي تشبيه الآلهة بالبشر في هيئتها العامة وحواسها وعلاقاتها الاجتماعية، عدا انفرادها عن البشر بالخلود والقدرة الخارقة. بإيجاز، كانت الآلهة تمثل أفضل الجوانب البشرية وأسوأها موضوعة في ميزان ما فوق بشري (خارق) superman. وكان الاتجاه العام في حضارة وادي الرافدين، عند رفع إله محلي إلى مركز إله عام، عدم نبذ الآلهة الأخرى، وهذا ما عُرف بـ "مبدأ التفضيل" أو "التفريد". وأخيراً، اتصفت هذه الديانة باستمرارها، بحيث بقيت محافظة على جوهرها طوال عصور حضارة وادي الرافدين[١٠].

وتبعاً لذلك صُوِّرَتْ الآلهة بأنها تعيش، كما يعيش البشر، في مجتمع تحكمه قوانين وضوابط محددة، وعلى رأس هذا المجتمع رئيس الآلهة (الملك/ الأب)، يساعده في إدارة شؤون مجمع الآلهة عدد من الآلهة الكبار. وكان للآلهة مجلس أعلى (أنوناكي) Anunnaki يضم خمسين آلهة عظاماً تجتمع فيه لاتخاذ القرارات التي تهم الآلهة والبشر. وكان ضمن هذا المجلس وفوقه "السبعة"، وهم بالإضافة إلى الثلاثة الكبار: ننهوساك Ninhusag، نانا Nanna، أوتو Utu، أنانا Annana. وإن وجود النساء في المجلس يبين أنهن في وقت ما شكلن جزءاً من الجمعيات (البرلمانات)

البشرية. واعتقد القوم أن معظم الآلهة تسكن في السماء، وهناك من يسكن العالم الأسفل، ولكل من الآلهة صفات ومسؤوليات معينة. واعتقد القوم أن المجتمع البشري الأرضي نسخة مطابقة للمجتمع الإلهي السماوي، وأن ما يقع من أحداث في السماء تقابلها أحداث مماثلة في الأرض[١١].

كما تخيل سكان وادي الرافدين الأرض في هيئة قرص محاط بحاشية من الجبال يطفو على محيط من المياه العذبة (أبسو) حيث تدور حوله الأجرام السماوية. وهناك نصف آخر مشابه يضم "العالم الأسفل" تحت الأرض تمكث فيه أرواح الموتى. أما كيف تم خلق العالم؟ ومن هو الذي خلقه؟ فقد تباينت الأجوبة حسب تباين المواريث الأسطورية والمراحل التطورية الحضارية التي مرت بها تلك المعتقدات ارتباطاً بأوضاع بيئتهم الطبيعية وبالعلاقة مع أساليب زراعتهم بين المطرية/الديمية المروية[١٢]. أما سر خلود وقدرة الآلهة فيقبع في تحملها مسؤولية إدارة الكون وحمايته من القوى الشريرة[١٣]. وإذا كان الأمر كذلك، فما هو سبب خلق الإنسان؟

خلقت الآلهة الكون أولاً، بما في ذلك الأرض والسماء والكواكب والنجوم والموارد. وفُرضت على الآلهة الصغار العمل تحت ضربات سياط الآلهة الكبار، مما ولَّد الشكاوى والاحتجاجات، فبادرت الآلهة الكبيرة لإيجاد بديل، بخلق الإنسان من أجل إراحتها، بأن يقوم الإنسان مقام الآلهة بالعمل في أراضيها وتزويدها بمتطلباتها (القرابين)، وأن يلتزم بنواميسها الحضارية التي وهبتها للبشرية لتنظيم مجتمعاتهم، بإطاعة الملك (نائب- ممثل الإله)- القانون- النظام- النواميس الأخلاقية، وأن يقوم بعبادتها ويقدم لها الطاعة. مقابل ذلك يأمل الإنسان أن يحصل من الآلهة على الحماية في حقله- عمله وصحته وعائلته، وأن تمد في عمره.

والآلهة قوى خارقة خالدة، مصدر كل شيء، محرك كل الأحداث التي تقع في حياة الإنسان والمجتمع والكون. وهي صفة مطلقة لقوة عظمى تُسَيِّر الكون والعالم. وهذه القدرة (القوة) تتميز بالعلو والرفعة، وهي قابعة في السماء، وحاضرة مع المخلوق (المتعبد) متجسدة في إلهه الشخصي(ملاكه الحامي)، وهي ذات مهابة وإلهام مخيف وموهوب بنور كاشف مقدس.[١٤] عليه فالإنسان ما هو سوى عبد للآلهة، وجبت عليه الطاعة والخدمة والعبودية. من هنا يلاحظ مثلاً "أن الملوك الآشوريين الأقوياء

الذين بسطوا سيادتهم على إمبراطورية شاسعة من نهر النيل إلى بحر قزوين، لا يعتبرون أنفسهم أكثر من عبيد متواضعين يسعون لإرضاء آلهتهم آشور..[١٥]"

أما سر القدرة الخارقة للآلهة، فيكمن في أربع سمات إلهية[١٦]: الأولى القدرة على الخلق، وهذه القدرة تقوم على النطق (الكلمة). فعندما يقول الإله لشيء "كن فيكون". يذكر (كريمر)- عالم السومريات "أن فلاسفتنا السومريين طوروا مبدءاً صار فيما بعد عقيدة في أنحاء الشرق الأدنى كافة، وهو مبدأ القوة الخالقة الكامنة في الكلمة الإلهية. فكل ما على الإله الخالق أن يفعله وفقاً لهذا المبدأ هو أن يضع خططه، ينطق بالكلمة ويعلن الاسم[١٧]." الثانية القدرة على تحديد هيئة المخلوق وصفاته الجسدية والروحية، أي تعيين جوهره- قواه البدنية والعقلية- وسلوكه من خير وشر. الثالثة القدرة على رسم مصير المخلوق مسبقاً: يوم ولادته، فترة حياته، طبيعة الأحداث اليومية التي ستواجهه، مكانته الاجتماعية- الوظيفية- المالية- الصحية.. والتي تتجسد في (ألواح القدر/ المصائر) المحفوظة لدى الآلهة في السماء. الرابعة القدرة على منح المخلوق وسائل يستطيع من خلالها تنظيم مجتمعه وبناء حضارته (النواميس الإلهية) التي قيل إنها بحدود المائة ناموس، تتقدمها الملوكية والتاج والصولجان.. وتمكينه من معرفة إرادة الآلهة وفق علامات كونية: طبيعية، بشرية، حيوانية، تتطلب الفحص والتفسير بقراءة الطالع والتنبؤ (الفأل) والسحر.

تشكل القبور المكتشفة وفي مقدمتها (مقبرة أور الملكية) دلائل واضحة على وجود فكرة الحياة الأخرى لدى القوم، إلا أن تفاصيل حياة الآخرة (ما بعد الموت) جاءت في الغالب قليلة مشوشة ومتناقضة. كما أن تلك القبور التي انحصر اكتشافها في مواقع محدودة، تعود إلى فترات مبكرة من عصر فجر السلالات التي تميزت بحركة التطور التدريجي لحضارة القوم ومعتقداتهم الدينية. عليه لا توجد دلائل مقنعة على اعتقاد سكان وادي الرافدين بقيامة الميت وبعثه وما يتبعه من ثواب وعقاب[١٨].

من الحقائق البديهية التي أدركها القوم حتمية الموت على الإنسان واستحالة نيله الخلود. فالآلهة جعلت الموت من نصيب الإنسان منذ بدء الخليقة بينما استأثرت هي بالحياة الخالدة (ملحمة كلكامش). وإن الموت وإله الموت كان موجودا قبل مجيء الآلهة إلى الوجود وخلق الإنسان. والموت ناموس الكون. بلغت حتمية الموت درجة أنه حتى

الآلهة الذين من ميزاتهم الخلود، لم يسلم بعضهم من الموت عن طريق العنف (القتل) كما حدث لجيل الآلهة القديمة (ملحمة الخليقة البابلية). لكن سكان وادي الرافدين لم ينظروا إلى الموت على أنه الفناء المطلق، بل انفصال ما بين الجسد والروح التي تلازمه مدى الحياة. وعند الموت (انقطاع آخر نفس للإنسان) تخرج روحه لتذهب إلى العالم الأسفل- عالم الأموات- عالم اللارجعة- بينما يعود جسمه إلى التراب. وبذلك اعتقد القوم أن الإنسان مركب من عنصرين أولهما حسي- مادي منظور هو الجسد، وثانيهما غير منظور هو الروح التي أطلق عليها السومريون (گِدِم) GIDIM. وفي هذا العالم المظلم الذي يلفه الغبار والتراب ويُعدم فيه الهواء والضوء، لا تجد أرواح الموتى ما تعيش عليه سوى ما يُقدم لها من نذور وقرابين. وإذا لم يتذكرهم أحد فسوف يردون إلى الأرض في شكل أشباح مؤذية للناس. ونفس الشيء يحدث عند عدم دفن الميت أو عدم أداء الطقوس الدينية أثناء الدفن وبعده من صلوات وقرابين[١٩]. ووفق هذه العقيدة يصبح الإنسان بعد الموت في حضارة وادي الرافدين أقل مما كان عليه، رغم ضآلته وتفاهته futile life في الحياة الدنيوية. عليه لا وجود لمفهوم الثواب والعقاب في الآخرة عند القوم "فآلهتهم آلهة حسودة وطاغية، خلقت الإنسان لخدمتها وليس هناك ما يسمى ثواب الإنسان ولكن عقاب فقط إذا لم يقم بواجبه تجاهها[٢٠]."

وبالإضافة إلى أهمية الالتزام بالطقوس الدينية عند موت الإنسان ودفنه حتى تستقر روحه في العالم الأسفل، فإن المآثر الصالحة التي تركها في دنياه تمنح روحه بعض الامتيازات، كما في أرواح الموتى الذين حققوا مجداً في الحرب أو خلّفوا كثرة من أبناء ذكور (أسطورة موت انكيدو). كما صوَّر القوم روح الميت بهيئة مخلوق بجناحين من الريش، وربما يفسر هذا اعتقادهم قدرة هذه الأرواح على التنقل السريع. أخذ عرب ما قبل الإسلام (الجاهلية) هذا المفهوم وصوَّروا روح الميت على هيئة طائر أطلقوا عليه اسم (الهامة). وحين تعود هذه الروح لشخص مقتول، عندئذ يهيم الطائر (روح المقتول)، في حالة عدم أخذ ثأره من قاتله، وهو ينعق "اسقوني! اسقوني!...[٢١]"

٢-الطقوس الدينية

تشكل هذه الطقوس ممارسات عقائدية للإيفاء بالمستلزمات الدينية.[٢٢] شملت في ديانة حضارة وادي الرافدين: التطهير والصلاة والتراتيل، النذور والقرابين، الاحتفالات

الدينية والترانيم، الأدعية والتعاويذ، التكهن بالغيب والتنبؤ (الفأل) بالمستقبل، معرفة الطالع وتفسير الأحلام، التنجيم والسحر. ورغم المحاولات التي تجري في العصر الحديث للتميز بين الأصناف المختلفة للدين واللاهوت والأخلاق، العرافة والسحر والتعزيم.. فإن هذه المحاولات لم يكن لها وجود في العالم القديم، إذ كانت هذه العناصر كافة "تشكل أجزاء من كل واحد عظيم[٢٣]."

تُعتبر الصلاة أولى طقوس العبادة في الديانة السومرية وحلقة وصل قوية بين الأرض والسماء أو بين الإنسان والإله، وارتبطت بممارسات محددة يتقدمها التطهير التام والوضوء بغسل اليدين والركوع والسجود ورفع اليدين إلى الآلهة والتمتمة ببعض الابتهالات والأدعية، بما فيها الشكاوى والتوسلات وعبارات الشكر والطاعة والعفو والمغفرة. وبذلك شكلت الصلاة طريقة لاتصال الفرد بالإله بقصد تحاشي غضبه وعقابه وكسب رضائه واستعطاف بركاته. وعبّرت عن الورع والخوف والخشوع ومحاولة تحقيق السلام الروحي للفرد وضمان مسيرة حياة المتعبد وتحقيق أُمنياته وتطلعاته من حيث الرخاء والصحة والأولاد وطول العمر. وفي غير ذلك، أي عند معصية الخالق، يُعتبر الشخص مسؤولاً عن مصيبته ومرضه وخيبته في غياب الحماية الإلهية[٢٤].

ومن خلال طقوس التعبد وأعمال التعزيم والسحر التي شكلت جزءاً من العقيدة الدينية، كان يتم دعوة الإله لاستدرار المطر[٢٥]. يذكر نيكولاس بوستيغ "وكان الملك... هو الكاهن الأكبر في آشور... وعندما يحدث قحط فاجع كان الملك نفسه هو الذي يكتب الرسائل إلى الحكام التابعين له لتنظيم مشاركة الناس في الابتهال إلى إله الجو أداد كيما ينزل المطر[٢٦]." وهي نفس الطقوس المتبعة في الديانة الإسلامية باستعطاف الله من أجل إنزال المطر عند حدوث جفاف أو قحط بتنظيم صلاة الجماعة (صلاة الاستسقاء).

شكلت تماثيل الآلهة في المعبد جانباً محورياً من عقيدة القوم وطقوسهم الدينية باعتبارها وسيلة لاتصال الإنسان بالآلهة، حيث أُعتبر الإله حاضراً في تمثاله[٢٧]. وبعد تقديم الطعام إلى الإله (تمثاله) والذي أُعتبر مباركاً، كانت الأواني ترسل إلى الملك ليأكل منها لكي تنتقل البركة إليه. كما أن عادة رش الماء (ماء الورد) من الإناء، "الذي لمسته" أصابع تمثال الإله، على الملك ورجال الحاشية عبّرت كذلك عن نفس العقيدة في كون ذلك الماء مباركاً[٢٨].

رغم أن المعبد كان يمارس مختلف أشكال الطقوس الدينية والمناسبات الاجتماعية بما فيها احتفالات الزواج والمراسيم الجنائزية، إلا أن احتفالات رأس السنة- التي نشأت في الأصل عيداً من أعياد الطبيعة- كانت الأكثر أهمية وشمولية وبهجة وحضوراً جماهيرياً[٢٩]. جسَّد مهرجان السنة الجديدة الحدث الديني الرئيس في السنة كلها في جميع أرجاء بلاد بابل وآشور. وامتد في بابل أحد عشر يوماً منذ الأول من شهر نيسان، ويتحقق فيه تجديد الملوكية والزواج المقدس واجتماع الآلهة في مجلسهم لتقرير مصائر البشر والعالم- الكون للسنة التالية. ويبلغ المهرجان ذروته في يومه الخامس عندما يأخذ الكاهن الأعظم بيد الملك ويقوده ليقف أمام تمثال (مردوخ)- إله بابل- ليعيد الملك سلطاته للإله، ويتلقى صفعة على وجهه من الكاهن الأعظم ويجبره على الركوع على ركبتيه لتقديم اعترافه أمام الإله. وعندئذ يقدم الملك تقريره مؤكداً أنه عمل وفق أوامر الإله بتنفيذ إرادته والحفاظ على أملاكه ومدينته- دولته وتحقيق العدل بين رعيته. وبعد ذلك تُعاد إليه سلطاته. ويصل المهرجان قمته في يومه العاشر عندما يقود الملك بنفسه الموكب من معبد مردوخ (إيساقلا) في بابل بعد كساء تمثال الإله ثياباً مقدسة مزينة بالذهب والأحجار الكريمة. ويسير الموكب في الطرقات إلى المعبد المخصص لاحتفالات رأس السنة في بداية الربيع (بِت- أكيتو) BIT-AKITU خارج المدينة. وهنا يقوم (مردوخ) بمعركة رمزية ضد الوحوش التي تمثل القوى الشريرة. وبعد انتصاره يعود الموكب إلى المدينة مزهواً، وترفع الجماهير هتافات بهجتها الشعائرية مراراً وتكراراً[٣٠]. "وإذا ما راقبنا تصرف الحشود أثناء التمثيليات الدرامية التي يحتفل فيها الشيعة... نستطيع أن نتصور مهرجات الإله مردوخ في مدينة بابل، وإن ارتفاع أصوات النائحين وهبوطها هذه الأيام، لا بد وأن يُردد صدى المناحات التي كانت تُسمع أثناء دفن الجنائز في العصر الآشوري الحديث[٣١]."

٣- الكهنة والمعبد

ظهر المعبد باعتباره مؤسسة دينية، بل وأول مؤسسة اجتماعية عامة في شمال البلاد مع بداية الاستيطان في القسم الجنوبي لوادي الرافدين في حدود ٥٠٠٠ سنة ق.م. وشكَّل مركز الحياة الحضارية فيها ومحور التجمعات السكانية. وهناك أسباب

مُقنعة على أن القَوامين على المعابد كانوا أقدم حكام المجتمعات المتحضرة في وادي الرافدين. وكان الكاهن الأعظم (إين) EN يجمع في شخصه السلطتين الدينية والزمنية. هذا قبل أن تبدأ عملية الانفصال التدريجي بين الوظيفتين في فترة ما من عصر فجر السلالات بظهور الحاكم الزمني المفوض من إله المدينة لإدارة شؤون دولته الأرضية. وأطلق على هذا الحاكم (إنسي) ENSI، وأعقبه ظهور الملك (لوگال) -LU-GAL عندما كان يتسنى لحاكم المدينة بسط نفوذه وإخضاع حكام مدن أُخرى لسلطانه[٣٢]. "وهكذا نجد أن المدينة السومرية تنمو ليس حول قصر أو قلعة، إنما حول (ضريح) أو مرقد. وفي كل الأحوال كان المعبد هو المحور الذي تدور حوله النشاطات الاقتصادية والاجتماعية."[٣٣]

شكّل المعبد طوال مسيرة حضارة وادي الرافدين أحد قطبين رئيسين في النظام الاجتماعي- الاقتصادي- السياسي. فبالإضافة لكونه مركزاً دينياً تُقام فيه الطقوس والشعائر من احتفالات ومناسبات دينية، بما في ذلك إقامة الصلوات وتقديم النذور والقرابين، كذلك كان مركزاً اقتصادياً واجتماعياً فعالاً مارس دوراً جوهرياً في الحياة العامة، وبلغت هذه الممارسة قمتها في عصر فجر السلالات.

ولما كانت المدينة مُلك الإله الحامي، والمعبد هو الوسيط بين الإله والناس، عليه يُفترض أن المعبد مارس دور راعي ممتلكات المدينة من أراضٍ وبساتين لصالح إله المدينة الحامي قبل أن يظهر الملك في فترة لاحقة. وهذا ما دفع بعض الباحثين الأثريين إلى الاعتقاد بأن المعبد كان يمتلك جميع أراضي المدينة في العصور المبكرة[٣٤]. وبموجب النصوص المسمارية المكتشفة في (لگش)- عصر فجر السلالات، يمكن الوقوف على النشاط الواسع الذي كانت تمارسه معابدها في حياة السكان الاقتصادية والاجتماعية. قُدر عدد الخدم والعبيد التابعين لمعابد لگش- التي لم تقل عن عشرين معبداً- نحو عشرة آلاف شخص مضافاً إليهم نحو عشرين ألفاً من الأحرار. وقُدرت أملاك هذه المعابد من الأراضي الزراعية في حدود ٢٥٪- ٥٠٪ من أراضي المدينة[٣٥].

كان كل معبد من معابد دولة المدينة (لگش) يمتلك حقوله الزراعية ومراعيه الخاصة وبساتينه ومواشيه وآلاته وأدواته وورشه، رغم أن الحصة الرئيسة منها تعود إلى المعبد الرئيس- معبد إله المدينة- الإله الحامي. ومن المتفق عليه تصنيف الأراضي

الزراعية للمعبد- غير الخاضعة للبيع والشراء- إلى ثلاثة أصناف من حيث كيفية استغلالها: الأولى (أرض المولى)- أرض الرب أو السيد- وكان يقع على سكان دولة المدينة (من أحرار وخدم وعبيد) استثمارها وتخصيص كامل غلّتها للطقوس الكهنوتية (الإله- المعبد).. الثاني (أرض الطعام)، وتكون مقسمة إلى وحدات زراعية، وتمنح بـ (اللزمة)، وتوجه غلّتها لصالح العاملين فيها ولمنتسبي المعبد.. والثالث (أرض المحراث)، وتؤجر للفلاحين لقاء حصة عينية بحدود سبع أو ثمن المحصول[٣٦].

وبالإضافة إلى العوائد التي كان المعبد يحققها من نشاطاته المتعددة (الزراعة والتجارة والحرف) كان يحصل أيضاً على الهدايا والقرابين من كافة الطبقات والشرائح الاجتماعية. عليه صارت في متناول المعبد موارد كبيرة مكنته من تحقيق الاكتفاء الذاتي وتكوين ثروة احتياطية (فائض اجتماعي) استُخدمت لأغراض المعبد وممارسة دوره الديني- الاجتماعي- الاقتصادي. وكان يرد إلى المعبد يومياً أفضل منتجات الحقول الزراعية والبساتين والمواشي لأغراض الأضاحي اليومية للإله- المعبد وإعادة توزيع الباقي بين استهلاك العاملين في المعبد وبين خزنها تحوطاً لمجاعة مرتقبة أو مبادلتها مع بضائع مستوردة كالمعادن والأخشاب والأحجار. ولأن السكان كانوا على الدوام رهن إشارة المعبد، أصبح بوسعه المساهمة في الأشغال العامة بما في ذلك بناء التحصينات وشق القنوات المائية وصيانتها. هذا علاوة على مساهمات المعبد الاجتماعية: فض المنازعات بين الناس، ضمان شرعية العقود، السيطرة على نسبة الفوائد بمنح القروض بفائدة محدودة أو بدون فائدة أحياناً، قبول الودائع والأمانات، والمساهمة في بعض الإجراءات القضائية أو المحاكمات بضمنها ما يُعرف بـ (الاختبار النهري) الذي كان يُمارس برمي الشخص نفسه إلى الماء لإثبات براءته من التهمة عند عدم توفر الأدلة المادية، معتمدة هذه المساهمات، بعامة، على مدى قوة أو ضعف العلاقة بين المعبد والقصر[٣٧]. وتعترف شريعة حمورابي بالدور الاجتماعي للمعبد، متضمناً: إذا لم تستطع عائلة تاجر سجين خارج البلاد جمع فديته، على المعبد فعل ذلك. ووجد اليتامى واللقطاء وغيرهم أنفسهم أعضاء في أسرة المعبد. وفي أوقات المجاعة قد يقرر رب الأُسرة تخفيف أعباء معيشة عائلته وإنقاذ حياة طفله بتكريسه لأحد المعابد. وكان للمعبد حصة في أسرى الحرب يُقدمهم الملك مع نهاية كل حملة عسكرية ظافرة[٣٨].

يضاف إلى ذلك أن المعبد كان مركزاً ثقافياً كهنوتياً يتعلم فيه الكهنة والكتبة وتحفظ فيه مختلف النصوص الأدبية والدينية والعقود التجارية. كما ظهر في كنف المعبد أعظم اختراع حضاري (الكتابة المسمارية) في مدينة الوركاء (٤٠٠٠- ٣٥٠٠ ق.م)، وبذلك أصبحت المؤسسة الدينية لحضارة وادي الرافدين أول مدرسة تعليمية في تاريخ البشرية[٣٩]. ورغم التغيرات المختلفة التي حصلت في مكانة المعبد من حيث زيادة أو انكماش أهميته بالعلاقة مع القصر، فقد ظلَّ أحدَ ركنين أساسيين في صرح النظام الاجتماعي على مدى كافة عهود حضارة بلاد الرافدين.

كان يُقام في كل مدينة كبيرة معبد رئيس، بل وأكبر المعابد في دولة المدينة لعبادة إله المدينة الحامي. وكان الملك رئيساً لكهنة المعابد المختلفة باعتباره (الراعي) المختار من قبل إله المدينة والمسؤول أمامه مباشرة. وكانت إحدى أكثر واجبات الملك قدسية هو بناء المعابد وترميمها. إلا أن بناء المعبد لم يكن قراراً اعتباطياً يتخذه الملك كيفما يشاء، بل كان ينبع من طقوس محددة تتحقق في حالات خاصة تظهر بشأنها "علامات إلهية"، كما في حلم للملك يفسره الكاهن الأعلى أنه أمر من الإله لبناء المبعد[٤٠].

ضم المعبد أصنافاً متعددة من الكهان والكاهنات للقيام بالطقوس التعبدية والإشراف على شؤون المعبد الإدارية والاقتصادية. وكان الملك على رأس الكهانة باعتباره ممثل الإله أو نائبه. ولأنه غير قادر على أداء كافة المهام الدينية، لذلك يختار بديلاً عنه (الكاهن الأعظم) الذي يتربع على عرش المعبد، تضاهيه في المرتبة الكاهنة العظمى (إنتين) ENTIN التي كانت مكرسة بالدرجة الأُولى لتمثيل زوجة الإله في الاحتفالات الدينية (الزواج الإلهي المقدس)، لذلك حُرِمتْ من الزواج أثناء حياتها الدينية، بل وحُرِمَتْ من الإنجاب حتى بعد زواجها وخروجها من المعبد. وبقيت وظيفة الكاهن الأعظم والكاهنة العظمى من المناصب الدينية- الاجتماعية الرفيعة التي انحصرت بالعائلة المالكة والطبقة الأرستقراطية العليا. يضاف إلى ذلك أن المعبد امتلك عددا كبيراً من الكهنة العاملين فيه، حيث يترعرع أبناؤهم بين جدرانه، ويحصلون على تربية متكاملة في مدرسته (بيت مومي)- بيت المعرفة[٤١].

وبالعلاقة مع وظائف وطقوس المعبد يمكن القول بإيجاز إن هذه الوظائف وطقوس العبادة المختلفة استهدفت تحقيق غرضين متكاملين: أولهما معرفة إرادة الآلهة لتنفيذها وكسب رضائها ودرء غضبها وانتقامها، وثانيهما جعل الفرد يعيش بسلام مع إلهه وذاته ومجتمعه. يتولى العرافون إنجاز المهمة الأُولى، أي معرفة إرادة الآلهة وتفسيرها، ويتولى المنشدون والعزامون والسحرة المهمة الثانية(٤٢). أما مواصفات الكهنة، وحسب النصوص المسمارية "لا يستطيع أحد أن يكون قيّماً على مراسيم (شمش و ادد) وهما آلها الكهانة من كان أبوه غير طاهر، وكان هو غير كامل الأطراف أو الملامح، وغير سليم العينين أو الأسنان أو الأصابع، أو من كان يبدو عليه المرض، أو به دمامل(٤٣)." ويظهر أن حق ممارسة وظيفة في المعبد (بضمنها حتى كناس الفناء أو البواب) والتمتع بدخلها، كان محل بيع وشراء بحرية(٤٤). وذلك منذ العهد البابلي القديم، في حين أن هذه الطريقة كانت أقلَّ شيوعاً في الفترات السابقة. و لم تزدهر كثيراً رغم أنها استمرت لغاية نهاية حضارة وادي الرافدين(٤٥).

بالإضافة للكهنة المسؤولين عن إدارة المعبد ونشاطه الاقتصادي والمشرفين على منتسبيه- الأحرار والعبيد- في حقوله وورشه، تواجدت كذلك أصناف مختلفة من الكهنة والكاهنات حسب اختصاصاتهم للطقوس الدينية، منهم: المشرفون على الأضاحي والقرابين وذبحها، المنشدون (الأعياد الدينية ومناسبات الزواج)، الندابون (المناسبات الجنائزية)، الطبالون والزمارون. يضاف إليهم العرافون (التنبؤ وقراءة الفأل) والعزامون والسحرة (طرد الأرواح الشريرة والتصدي للسحر الأسود).

كان المنشدون (النارو) متخصصين بأناشيد الفرح التي تستقبل أعياد رأس السنة التي شكلت أضخم مناسبة دينية، كما سبق الحديث، حيث يقومون بترتيل الصلوات، وتصاحب الإنشاد موسيقى عالية كان صوتها يُقارَن بـ "خوار الثور". بينما اختص الندابون (الكالو) بالمناسبات الحزينة من دينية (طقوس عبادة) واجتماعية (جنائزية)، فيتلون تراتيم مختلفة من النواح. وكان هدف التكهن البحث عن رغبات الآلهة بغية طاعتها وتنفيذها وكسب رضائها وتجنب غضبها وعقابها. وكانت عقيدة القوم

تتلخص في أن الآلهة تكشف عن إرادتها بدلالات كثيرة جداً يمكن ملاحظة علاماتها في كل مادة وحركة في الطبيعة. وكان العراف "الرجل الذي يفتش ويرى" يحظى بمكانة رفيعة ويخضع لفترة من الدراسة والتدريب، وينحدر من عائلات راقية، ويتصف بكامل الخلقة، ويقوم بالتنبؤ من خلال دراسة أحشاء الضحية الحيوانية خاصة الكبد علاوة على رمي الأقداح وسكب الزيت في الماء. وكانت الولادات البشرية والحيوانية غير الطبيعية وغيرها من الأحداث الغريبة على القوم تُعتبر نوعا من الفأل الذي يجسد إرادة الآلهة وتتطلب الكشف والتفسير. وكان العراف يحتل مكانة مهمة في القصر ويكلفه الملك باستمرار لمعرفة مستقبل الأحداث خاصة قبل إقدامه على حملة عسكرية. ويلاحظ أن قراءة الطالع لعبت دوراً بارزاً في تفسير ظواهر عديدة تتقدمها أمور الخير والشر والنصر والهزيمة. وكانت الأحلام، في الغالب، أكثر حاجة للتفسير من منطلق الاعتقاد أنها الواسطة التي تنتقل عن طريقها التحذيرات الإلهية. وكان المواطن البابلي يعتبر الحلم مساوياً للحقيقة. بينما اتخذ التنجيم البابلي (وهي من طرق العرافة التي اشتهرت في وادي الرافدين) من الأنواء الجوية قاعدته لأنه قام على مراقبة الرياح والنجوم والكواكب السيارة والخسوف والكسوف. "لقد كان التنجيم في الحقيقة معادلاً، من قريب أو بعيد، للتنبؤات الجوية الحديثة.[٤٦]"

وأخيراً، ارتبطت ممارسات السحر في بابل بشعائر التعزيم المضاد للشياطين من الأرواح الشريرة والعفاريت. ولم يكن السحر الأبيض هذا معترفاً به، فحسب، بل كان أداة مخاطبة الآلهة أيضاً. وكان الهدف من هذا السحر خيرياً يعمل إما على إبعاد الأرواح الشريرة عن المتعبد أو طرد هذه الأرواح من جسده عند إصابته بمرض بسبب معاصيه أو تعرضه للسحر الأسود الذي مارسه فريق من السحرة بصورة غير مشروعة (سراً) حيث كان القانون يُعاقب عليه. وكان الإلهان (مردوخ) و(أنكي)- أيا- يمثلان القوى الخيرة المتفوقة بالإضافة إلى خدمهما من الجن الصالحين، ويمثلان راعياً للسحر الأبيض الذي اكتسب طبيعته الجوهرية من تطبيق طقوس معينة من قبل المعزم (اشيبو)- قارئ التعاويذ الذي يستمد سلطته من كونه وسيطاً لإله السحر[٤٧].

هوامش الفصل العاشر

(١) سليمان ، عامر ، "جوانب من حضارة العراق القديم" ، العراق في التاريخ ، ص٢٠٨- ٢٠٩ .

(٢) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٥٥٩ . . Postage, Nicholas, P.12..,De Mieroop,P.43..

(٣) اوينهايم ، ليو ، ص٢٥٢ . .

(٤) رو ، جورج ، ص١٢٨ .

(٥) حنون ، نائل ، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين ، بغداد ، ١٩٨٦ ، ص٢٧- ٣٩ . . . سليمان ، عامر ، "جوانب من حضارة العراق القديم" ، العراق في التاريخ ، ص٢١٠ .

(٦) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٢١٢ . . . رو ، جورج ، ص٤٢٠ . . وفيما يخص أسماء الآلهة وأصولها وعلاقاتها . . . ، وانظر : الماجدي ، خزعل ، إنجيل سومر ، عمان ، ١٩٩٨ .

(٧) ساكز ، هاري ، ص٢١٢ . . . رو ، جورج ، ص١٤٣ . . ولمزيد من التفصيل في ديانة حضارة وادي الرافدين ، انظر : الماجدي ، خزعل ، الدين السومري .

(٨) علي ، فاضل عبد الواحد ، "حضارة بلاد وادي الرافدين : أصالتها وتأثيرها في بلدان الشرق الأدنى القديم" ، العراق في التاريخ ، ص٢٨٦ . . . باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٢٣٦- ٢٣٧ . . . ساكز ، هاري ، ص٢٢٥-٢٢٦ .

(٩) كونتينو ، جورج ، ص٤١٢ . . ساكز ، هاري ، ص٢٢٢ . . . رو ، جورج ، ص١٣٢ . . Hawkes,Jacquetta,P.210..

(١٠) رو ، جورج ، ص١٢٨ .

(١١) سليمان ، عامر ، "جوانب من حضارة العراق القديم" ، العراق في التاريخ ، ص٢١١ . . رو ، جورج ، ص١٣٠ . . . باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٢٣٢ . . Hawkes,Jacquetta,P.153..

(١٢) اوينهايم ، ليو ، ص٢٧٢ . . . رو ، جورج ، ص١٣٦- ١٣٧ . . . رشيد ، فوزي ، حضارة العراق ، ج١ ، ص١٦٥ .

(١٣) حنون ، نائل ، ص٤٤ .

(١٤) اوينهايم ، ليو ، ص٢٢١- ٢٢٢ .

(١٥) رو ، جورج ، ص١٢٨ .

(١٦) الماجدي ، خزعل ، متون سومر ، ص٢٥٧- ٢٦٧ .

(١٧) نفسه ، ص٢٥٧ .

(١٨) كونتينو ، جورج ، ص٤٩٧- ٤٩٨ . . . رو ، جورج ، ص١٤٥- ١٤٦ .

(١٩) باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص٢٢٣- ٢٢٤ . . . حنون ، نائل ، ص١٠٧- ١٠٨ .

(٢٠) شمار ، جورج بوييه ، ص٢٣١ . . Hawkes,Jacquetta,P.12..

(٢١) حنون ، نائل ، ص ١١٠- ١١١ (و) ص ١٣٠- ١٣٤ . . وكذلك ص١١٢ الهامش١٨ ، بشأن اصل مفهوم الثأر لدى عرب الجزيرة .

(٢٢) الماجدي ، خزعل ، متون سومر ، ص٣٠٩ .

(٢٣) ساكز ، هاري ، ص٢١١ .

(٢٤) عبد الواحد ، فاضل (و) سليمان ، عامر ، ص١١٧ . . . اوينهايم ، ليو ، ص٢١٩ . . . كونتينو ، جورج ، ص ٢٥٠- ٢٥١(و) ص ٤٧٢- ٤٧٣ .

(٢٥) كونتينو ، جورج ، ص٤٨٦ .

(٢٦) بوستغيت ، نيكولاس ، ص١٤٩ .

(٢٧) سليمان ، عامر ، "جوانب من حضارة العراق القديم" ، العراق في التاريخ ، ص٢١٢ . . اوينهايم ، ليو ، ص ١٣٢(و) ص ٢٣٣ .

(٢٨) اوينهايم ، ليو ، ص٢٣٦- ٢٣٧ .

(٢٩) كونتينو ، جورج ، ص٤٧٤ .

(٣٠) ساكز ، هاري ، ص٢٢٧- ٢٢٨ .

(٣١) كونتينو ، جورج ، ص٥٠٠ .

(٣٢) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٣٢١ . . . ، كونتينو ، جورج ، ص٤٦٣ . . . ، رشيد ، فوزي ، حضارة العراق ، ج١ ، ص١٨٤- ١٨٦ . . . ، الاحمد ، سامي سعيد ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٨ ,. Kagan,Donald,P.17.., Hammond,Mason,P.47..

(٣٣) رو ، جورج ، ص١٠٢ .

(٣٤) سليمان ، عامر ، "جوانب من حضارة العراق القديم" ، العراق في التاريخ ، ص٢١٢ .

(٣٥) باقر ، طه ،مقدمة في تاريخ . . . ، ص٢٣٧- ٢٣٨ .

(٣٦) الاحمد ، سامي سعيد ، "الزراعة والري" ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص١٨٤ . . . ، باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٢٣٧- ٢٣٨ . . . ، رو ، جورج ، ص١٨٥ .

(٣٧) كونتينو ، جورج ، ص٢٢٤ . . . ، رشيد ، فوزي ، حضارة العراق ، ج١ ، ص١٨٧ .

(٣٨) بوستغيت ، نيكولاس ، ص٢٢ .

(٣٩) سليمان ، عامر ، "جوانب من حضارة العراق القديم" ، العراق في التاريخ ، ص٢١٢- ٢١٣ . . . ، باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٣٢١ .

(٤٠) اوينهايم ، ليو ،ص١٣٣ (و) ص٢٣٣ . . . ، رو ، جورج ، ص١٨٨ . DeMieroop,P.56..

(٤١) ساكز ، هاري ، ص٢٢٨- ٢٢٩ .

(٤٢) كونتينو ، جورج ، ص٢٦٣- ٤٦٥ .

(٤٣) نفسه ، ص٤٦٥ .

(٤٤) ساكز ، هاري ، ص٢٢٨- ٢٢٩ .

(٤٥) بوستغيت ، نيكولاس ، ص٢٢ .

(٤٦) كونتينو ، جورج ، ص٤٧٦- ٤٨٠ . . وأيضاً ، الماجدي ، خزعل ، متون سومر ، ص١١٧ .

(٤٧) اوينهايم ، ليو ، ص٢٢٣ .

الفصل الحادي عشر
المؤسسة السياسية

شكلت حضارة سومر أُولى الحضارات البشرية الناضجة التي أهدت للبشرية نظاماً اجتماعياً بجوانبه المتعددة المتكاملة (نظام الحكم، الدين، القانون، الأخلاق، الكتابة..). كتب طه باقر "ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا أكدنا أن حضارة وادي الرافدين تفردت بأول ظهور لنظام دولة المدينة على أنه أول شكل من أشكال الحكم في التاريخ البشري." وذكر جورج بوييه شمّار أنه "عميق الاقتناع بأن سومر هي مهد الحضارة... وأن الرقي الذي وصلت اليه بلاد ما بين النهرين لم تصل اليه أية أُمة أُخرى من الأُمم القديمة..[1]." بينما جعل كريمر عنوان أحد أهم كتبه في حضارة وادي الرافدين (التاريخ يبدأ من سومر). كما أكد عالم الآثار الإنكليزي ليونارد وولي "بأن الحضارة السومرية كانت أول حضارة بالفعل.[2]"

تميزت الحضارة السومرية منذ نشوئها في عصر فجر السلالات بالعلاقة مع خصائصها السياسية بظهورها على أساس عدة دول مدن مستقلة لكل منها حدودها وأسوارها وأُسرتها الحاكمة وإلهها الحامي (الوطني) ونظمها وقوانينها. شكلت دول المدن السومرية هذه أُولى الأنظمة السياسية المعروفة وأساس نشوء المجتمع السياسي المنظم. وكانت كل مدينة من هذه المدن مركزاً سياسياً واقتصادياً ودينياً تضم القرى والمزارع المحيطة بها. وهو ما أُصطلح عليه بـ (دولة المدينة) City State. وبالعلاقة مع عقيدة القوم الدينية فإن ما يحدث في السماء يقع نظيره في الأرض، وأن الآلهة خلقت البشر لخدمتها، والمدينة بما فيها من أرض وموارد هي مُلك (الإله الحامي)، عليه كان على أهل المدينة المحافظة عليها وتوسيعها. كما قررت الآلهة أيضاً أن تهب البشر النظام الملكي الذي يحكم مجتمعها في السماء، فاصطفت من بينهم من ينوب عنها أو يمثلها وينفذ أوامرها ومنحته شارات الملوكية القابعة في السماء.

وتشير النصوص المكتشفة إلى هذه الملكية السماوية المقدسة، وتؤكدها (وثيقة الملوك السومرية) التي تبدأ فاتحتها بالقول "هبطت الملكية من السماء في اريدو قبل الطوفان[٣]." بينما تضمنت أسطورة (إيتانا والنسر "صعود إيتانا الى السماء" (ف١٦/٤) هبوط الملكية من السماء إلى الأرض بعد الطوفان في مدينة كيش، إضافة إلى النواميس الإلهية (مظاهر أو فنون الحضارة التي أوجدتها الآلهة ومنحتها للبشر لتنظيم مجتمعاتهم)، حيث عددت الأسطورة نحو مائة عنصر من عناصر التحضر[٤]، لصالح نشوء المدنية والتحضر[٥].

وهذا النظام الإلهي يشكل أصل نظام الحكم في حضارة وادي الرافدين القائمة على الملكية الوراثية والتفويض الإلهي، وبذلك فإن السومريين هم أصحاب مذهب الحق الإلهي المقدس The Divine Right Of King الذي نشره توماس هوبز Thomas Hobbs (1588- 1679)[٦]. ونظراً لأهمية الملك باعتباره مصدر رفاه شعبه وأن أي شر يلحقه يضر بالبلد، عليه تمت حمايته بمختلف الطقوس(ف٦). فإذا ظهرت علامات سماوية أو أرضية يرى الكهنة في تفسيرها نذر شؤم وشراً يلحق بشخص الملك، تحتم عليه حينئذٍ الاختفاء لفترة زمنية (بحدود مائة يوم) حتى تزول تلك العلامات ويعود الملك إلى عرشه. وهذا ما عُرف في حضارة وادي الرافدين بطريقة (الملك البديل)، حيث يختفي الملك الحقيقي فترة الخطر بعد أن يعين (الملك المؤقت) محله، وبعد زوال فترة الشؤم يعود الملك الحقيقي إلى عرشه ويأمر بتصفية الملك البديل. حدث هذا فعلاً في عصر دول المدن الثاني- سلالة إيسن (٢٠١٧-١٧٩٤ ق.م) عندما تنازل الملك التاسع في هذه السلالة (إيرا- إيميني) عن عرشه مؤقتاً لصالح البستاني (إنليل- باني). ولكن قبل أن تزول فترة الخطر (ف٦)، مات الملك الحقيقي "بعد أن فرط حساءً ساخناً." وصار البستاني ملكاً حقيقياً على إيسن وحكم طوال عشرين عاماً.[٧] طُبقت عادة (الملك البديل) كذلك في العصر الآشوري، حيث وجدت رسالة من عهد آشور بانيبال تشير إلى اختيار الملك البديل من بين أحد النبلاء الأكديين ليمارس دور الملك بعد تزويجه بسيدة من البلاط الآشوري، ثم جرى قتلهما بعد انتهاء فترة النحس وزوال العلامات وعودة الملك الأصيل إلى عرشه[٨].

اعتبر الآشوريون الأيام ٧، ١٤، ٢١، ٢٨ أياماً نحسة يمتنع خلالها الملك عن تناول طعام مطبوخ أو لبس حلّة نظيفة أو ركوب عربة. ولا يمارس الكهنة التكهن وحتى

الطبيب لا يضع يده على مريض. وهي تحمل نفس العقيدة البابلية (ف٩) التي شكلت أصل العطلة الاسبوعية في الأديان الثلاثة الرئيسة. واعتبر كذلك اليوم الأول من السنة الجديدة يوم شؤم على الملك فكان عليه أن يبدو كفلاح ويصوم فيها لخير شعبه.[٩]

ولكن رغم هالة القدسية التي أحاطت بالملك استمر التأكيد على شخصه باعتباره بشراً ولم يصل إلى مرحلة التأليه إلا استثناءاً. وللتأكيد على ذلك شملت طقوس أعياد رأس السنة في يومها الخامس حضور الملك أمام تمثال إله المدينة مع الكاهن الأعلى وخلعه جميع شارات الملوكية دلالة على نزع الملوكية عنه (ف١٠/٢). وبعد أن يُقدم اعترافه أمام تمثال الإله بأنه قام بتنفيذ جميع رغبات الآلهة وأشرف على أملاكها ومساكنها، تُعاد له شارات الحكم ليُجعل من جديد ملكاً على البلاد[١٠].

ولأن إله المدينة (الإله الحامي) هو الملك والمالك لها، ولأنّ الناس خُلقوا لخدمته وطاعته، ولأنه اختار من بينهم الملك لتمثيله في الأرض وتنفيذ أوامره وتعظيمه، فمن أولويات واجب الملك قيادة شعبه لرفع شأن ومنزلة الإله الحامي (الوطني) في مجمع الآلهة، وهو ما يجسد في نفس الوقت رفع شأن مدينته ورفع منزلته بين الملوك. كما أن نظام الملوكية في بلاد الرافدين قام أصلاً على أساس ديني وأن العلاقة بين الملك والإله الحامي تتمثل في أن انتصار الحاكم في الحرب يعزز دور إلهه ومنزلته ورخاء مدينته[١١].

وهنا ربما يقبع أحد المبررات الرئيسة ذات الجذور الدينية العميقة لظهور النزاعات والصراعات بين دول المدن المختلفة والتي استمرت بصفة متصاعدة في المراحل اللاحقة من حضارة وادي الرافدين، سواء كان هذا الصراع دفاعاً عن أرض الإله من الهجمات المعادية أم بهدف توسيع أرض الإله الحامي من خلال الفتوحات العسكرية. وعامل التبرير هذا لا ينفي بطبيعة الحال الدوافع الاقتصادية بقدر ما يمنحها زخماً أكبر كترجمة عملية لهذه الصراعات. من هنا يبدو أن التنافس والتناحر بدأ منذ نشأة هذه المدن وأنظمتها السياسية القائمة على العقيدة الدينية للاستحواذ على الأراضي الزراعية ومصادر المياه وطرق التجارة الموصلة إلى المواد الاولية، خاصة وأن ابتلاع مدينة لأخرى كان يعكس حسب عقيدة القوم أحداثا مرادفة في السماء. من هنا صار هذا النظام الإلهي المقدس (النظام الملكي) هو الأقل استقراراً في وادي الرافدين.[١٢] وهكذا ظهرت الحروب المنظمة لأول مرة في تاريخ الحضارة في عصر فجر السلالات، وتضمنت وثيقة (إثبات الملوك السومرية) هذه النزعة العسكرية.[١٣]

وكانت القاعدة العامة في جميع الأدوار التاريخية لحضارة وادي الرافدين اختيار موقع المدن بالقرب من مجاري المياه الرئيسة[١٤]. بينما ضمت دولة المدينة مركز المدينة مع المعبد والقصر وبيوت السكان الحضريين ضمن سور المدينة، في حين شملت ضواحي دولة المدينة على المعبد المخصص لأعياد رأس السنة في بداية الربيع ومساكن وحقول المزارعين وبساتين المدينة وحظائر الماشية. أما القسم الثالث فكان يشمل الميناء والتجارة ومستودع البضائع.

وكان المعبد المركز الاجتماعي لحياة المدينة من النواحي الدينية والاقتصادية والسياسية. انفرد المعبد بهذا المركز عند نشوء المدينة ثم أخذ يضاهيه ويزاحمه في النفوذ تدريجياً قصر الحاكم من حيث السلطة والمساحة والتنظيم ليستمر رجحان كفة القصر منذ تولى الأكديين الجزريين (الساميين) زمام السلطة، واتضح هذا الاتجاه بدرجة أكبر في العصر البابلي القديم. وهو ما يُفسَّر عادة بنشوء ظاهرة فصل السلطة الزمنية (سلطة الملك) عن السلطة الدينية (المعبد)[١٥]. ومع ذلك علينا أن لا نفهم من هذا التطور السياسي لتعاظم سلطة الملوك على أنه بداية للتوجه نحو العلمانية، بقدر ما عبَّر عن إعادة توزيع السلطة وتحولها تدريجياً من المعبد إلى القصر، لتمتد سلطة الملك (ممثل الإِله) بالهيمنة على شؤون دولته ولغاية تعيين الكاهن الأعلى حتى يمارس نيابة عن الملك الشؤون الدينية. ذلك أن الحياة الاجتماعية لحضارة وادي الرافدين بقيت تستمد جذورها وديمومتها من العقيدة الدينية التي شكلت وعاء هذه الحضارة. فاستمرت الحياة الدنيوية متغيراً تابعاً للحياة الدينية على مدى تاريخ حضارة بلاد الرافدين، بل والفترة اللاحقة عليها. ويرتبط بذلك أن الحاكم بقي رأس السلطة الزمنية والدينية بدءاً بالملك السومري ومروراً بالملك الآشوري، ولغاية الملك البابلي باعتباره ممثل/ نائب الإله. وبقيت واحدة من الوظائف الأساسية للملك هي بناء المعابد وتعيين كهنتها الكبار ورعاية الاحتفالات الدينية الكبيرة[١٦]. ولقد مرَّت فترات أصبح فيها الحاكم في صراع مكشوف مع كهنة المعبد[١٧]، كما حصل في عهد اوروكاجينا (ف١٣).

تُسجَّل للمجتمع السومري- الذي انفرد بأول ظهور للمجتمع السياسي المنظم (دولة المدينة)- خاصية في غاية التحضر وفق المفهوم الحديث، وهي غياب أي أثر للنظام القبلي في هذا المجتمع. وبدلاً من الأنظمة القبلية نشأت هيئات سياسية واجتماعية منذ أبعد العصور التاريخية مثل مجلس المدينة الذي ضمَّ مجموعة مواطنين لإدارة المدينة. ولعلَّ تفسير ذلك هو أن الوحدة السكانية في السهل الرسوبي في هذه الحضارة اعتمدت بدءاً

على الاقتصاد الزراعي وجهاز الري والتجارة، فنشأت أُولى مراكز التمدن والعمران والتحضر urbanization، ونمت فكرة المواطن والمواطنة citizenship والولاء للمدينة-الدولة بدلاً من الولاء القبلي[١٨]. وفوق ذلك تكشف النصوص الاقتصادية التي عُثِرَ عليها في لگش (تلو) وشروباك (فارة) انخراط السكان العاملين في تنظيمات مهنية (نقابات) بضمنها تلك الدقيقة التخصص[١٩]. مما يوحي بوجود نوع من منظمات المجتمع المدني في حضارة وادي الرافدين منذ فجر عصر السلالات.

وهكذا فإن المجتمع السومري كان أبعد ما يكون عن البدائية، بل كانت الحياة الاجتماعية في المدن السومرية راقية مقارنة بالمناطق الأخرى وسادها التنظيم المتكامل. وعُرف الشعب السومري صارماً في عمله وجهده وذا عقلية "بيروقراطية" ترك الآلاف من السجلات والقسائم والعقود. وخلّف حضارة معطاء مفتوحة. تؤكد عبارة وردت في نص شعري سومري كُتبت في مدح مدينة (أور) أنه حتى مواطن مارهاشي (منطقة جبلية تابعة إلى بلاد عيلام- إيران) أصبح متمدنا عندما عاش في مدينة أور. هذه المدينة التي ساهمت كثيراً في إنجاز عملية التمدن[٢٠]. والتالي تعبير شاعري لمفكر سومري عن واقع التفوق الحضاري للقوم على جيرانهم " إيه سومر، أيتها الأرض العظيمة بين كل أراضي الكون، أنتِ التي يغمرك ضوء لا يخبو، يا من تسنين القوانين الإلهية لكل الشعوب من المشرق إلى المغرب![٢١]" ويقول كريمر في مؤلفه السابق الذكر "كان السومريون يتمسكون بالطيبة والصدق، بالقانون والنظام، بالعدل والحرية، بالاستقامة والصراحة، بالرحمة والشفقة، وكانوا يمقتون الشر والكذب، والفوضى والاضطراب، والظلم والقهر، والأفعال الآثمة والإيذاء، والقسوة وعدم الشعور.[٢٢]"

تمتد جذور أصول نظام دولة المدينة، على الأرجح، إلى زمن نشوء أُولى مراكز الاستيطان البشري في السهل الرسوبي منذ الألف السادس أو الخامس ق.م، وكانت هذه المستوطنات تقوم على الزراعة المروية بما تتطلبه من جهود جماعية ضخمة ومنظمة للسيطرة على مصادر المياه (تجفيف المستنقعات، شق الترع، بناء السدود والخزانات، درء أخطار الفيضان..) وتغطية الاستهلاك المحلي من الإنتاج وتبادل الفائض مع الخارج. وهذه الامور ما كانت لتتحقق دون وجود سلطة قوية تضمن الأمن والنظام. وهناك اتفاق على أن النظام السياسي للمدينة السومرية في عصورها المبكرة اقترن بشيء من الديمقراطية البدائية، إذ تواجد في المدينة مجلسان أحدهما للمسنين والآخر للشباب القادرين على حمل السلاح وبيدهما سلطة

إدارة شؤون المدينة[٢٣]. وهذا ما يدعمه قصة كلكامش عند تسلمه إنذار حاكم مدينة كيش المجاورة بالاستسلام أو الحرب، عرض كلكامش الأمر على مجلس المسنين أولاً ثم على مجلس الشباب قبل أن يتخذ قراره (ف١٦/١).

وفي ظروف الأزمات التي كانت تواجه المدينة (المخاطر الخارجية، الفيضانات، الأوبئة..) كان المجلسان ينتخبان حاكما (أنسي) لممارسة السلطة الزمنية الإدارية والعسكرية إلى جانب الكاهن الأعلى (إين). ففي نص سومري "اجتمع أهل كيش واختاروا للملكية كيش Ipuhurkish من أهالي كيش." وكان صعود أوروكاجينا لعرش لكش نتيجة "خلع دائرة الشعب للحاكم السابق وانتخابهم له."[٢٤]

ومع ولادة وظيفة الـ (أنسي)- الحاكم الزمني- بدأ الانفصال التدريجي بين السلطتين الزمنية والدينية باتجاه إعادة توزيع السلطة بين القصر والمعبد تدريجياً لصالح الملك منذ بدء عصر فجر السلالات، وبقيت آثارها التي عكست قدراً من التنافس بينهما لغاية آخر العهود البابلية وآخر ملوكها (ف٩).

وكان مجيء أوروكاجينا إيذاناً لبناء استقلال سلطة الملك بالاتجاه نحو الانفصال التام عن سلطة الكهنة. وأصبح للحاكم قصره الخاص ونمت حوله فئة جديدة من الموظفين ليدير بهم شؤون الدولة. ويبدو أن الحاكم المنتخب احتفظ بصلاحياته ووظيفته، وكذلك الحال بالنسبة لبقية المراكز القيادية في دولة المدينة التي كانت تميل أن تكون بيد شخص واحد على نحو ثابت ووراثي. وأخذ الحاكم بتقليص نفوذ وسلطات المجلسين وإخضاعهما لسلطته "ونتيجة لذلك فإن المنظمة الديمقراطية الأصيلة كانت تفسح المجال إلى نظام حكام ومحكومين[٢٥]."

يؤكد ذلك جاكسون في نظريته القائلة إن الملكية ذات التفويض الإلهي جاءت لاحقاً على نظام سومر الذي قام أصلاً على نوع من "الديمقراطية البدائية" Primitive democracy، وإن الملكية لم تظهر حتى وقت متأخر من العصور الشبيهة بالتاريخية عندما بادر الحاكم المنتخب لفترات قصيرة عند الأزمات بالسيطرة على دولة المدينة وتحويل المجالس المحلية إلى هيئات استشارية. ويدعم نظريته هذه استناداً إلى (ملحمة الخليقة) التي تصف كيفية انتخاب (أنليل) أو (مردوخ) لمنزلة بطل الآلهة لمحاربة (تيامة) والانتصار عليها، وذلك بالعلاقة مع عقيدة القوم أن ما يحدث في السماء ينعكس على الأرض. وهكذا فإن المعلومات الوثائقية التاريخية والدينية والأسطورية

"لا تترك مجالا للشك" أن دولة المدينة السومرية بزغت إلى التاريخ مع مجلسين أحدهما للشيوخ والآخر للشباب (المحاربين). وكانت الجمعية العامة بمجلسيها تختار أشخاصا سواء للقيام بإدارة أعمال المدينة و/ أو اختيار قائد عسكري مؤقت أيام الأزمات. ويظهر أن زيادة الثروة والتعقيدات الاجتماعية والطموحات الشخصية، عملت على استمرار هؤلاء وتوريث وظائفهم لغاية ظهور الملك الأوتوقراطي. وبذلك فقدت الديمقراطية التقليدية traditional democracy معظم قوتها.[٢٦]

ظهرت الدولة المركزية في العصر الأكدي وشكلت سلالة أور الثالثة إمبراطورية "أديرت باحكام[٢٧]". واستمر الملك في كافة مراحل حضارة وادي الرافدين الحاكم المطلق ومصدر الشرائع بإعتباره منفذاً لإرادة الآلهة[٢٨]. وأدت مركزة السلطة السياسية والاقتصادية بيد ملوك أور إلى تكون مجتمع تهيمن عليه الدولة داخل أقليم موحَّد إدارياً[٢٩]. وكانت إحدى الخصائص المميزة للعصر البابلي القديم تعاظم سلطة الملك على حساب سلطة المعبد. بلغت هذه الظاهرة أوجها إبان حكم حمورابي الذي نقل جميع السلطات من المعبد إلى القصر. كما طبَّق حمورابي قانوناً موحَّداً شمل أرجاء مملكته التي أدارها بمركزية شديدة ومتابعة يومية وزيارات ميدانية لحكام مقاطعاته، وطبق نظام منح الأراضي مكافأة للخدمة المتميزة في الحروب وللموظفين الأكفاء. وبقي الملك الآشوري يجمع في شخصه السلطات الزمنية والدينية باعتباره الحاكم المطلق والكاهن الأعلى. وكان جهاز الدولة من كبار الموظفين وصغارهم مدنيين وعسكريين "خدم الملك العظيم" الذي يستمد سلطته من الإله آشور وبقية الآلهة العظام[٣٠]. كما ورثت الملكية في آشور وبابل صلة قوية بماضٍ بدوي عندما كان أفراد القبيلة جميعاً يستطيعون الاتصال بالشيخ. "غير أن الملوك الآشوريين بخاصة اقتربوا في الألف الأول ق.م من ذلك النوع من الحكم المطلق الذي كان الأغريق يمقتونه[٣١]."

وكان نظام الجيش والحروب محور المجتمع الآشوري، وتشكل الجيش أول الأمر بالدرجة الأولى من الفلاحين في بلاد آشور. وبدأ الملوك منذ مطلع عهد الإمبراطورية الثانية يؤلفون جيوشاً من أهل المقاطعات التابعة للإمبراطورية. وظل الآشوريون من طبقة الأحرار يدعون للخدمة العسكرية ولكن كان باستطاعتهم أن يجهزوا الملك بعبيدهم مع أسلحتهم وعدتهم[٣٢]. بينما شهد عهد نبوخذ نصر الثاني (العصر البابلي الحديث) قيام الجيش النظامي الذي يتطلب الإنفاق المنتظم لإعالته وتجهيزه. كما شهد

هذا العهد ليس فقط عودة تعاظم أهمية المعبد في الحياة الدينية بل كذلك في الحياة الاقتصادية للمجتمع البابلي بدرجة تضاهي أهمية المعبد في عصر فجر السلالات(٣٣).

هوامش الفصل الحادي عشر

(١) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٣٢٥ . . . ، شمار ، جورج بوييه ، ص٥ .

(٢) غولايف ، فاليري ، ص٢٠- ٢١ . . ، وايضا : DeMieroop,p.2,23,24.., Hawkes,Jacquetta,P.3,5,69..,Hallo,William W.,p.173.

(٣) سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ ، ص١٨٢ . . . ، باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٢٩٩ . . . ، ساكر ، هاري ، ص٢٧ Kramer,p.1-3.. .

(٤) الاحمد ، سامي سعيد ، "الادارة ونظام الحكم" ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص١٠- ١١ . . . ، باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ،ص٢٩٠ (و) ص٣٠٣ . . . ، علي ، فاضل عبدالواحد ، سومر : اسطورة وملحمة ، ص٥٤ .

(٥) الوردي ، علي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، ج٤ ، لندن ١٩٩٢، ص٤٠٢ .

(٦) رشيد ، عبد الوهاب حميد ، الديمقراطية والتحول الديمقراطي ، السويد ٢٠٠٠ ، ص٣١ .

(٧) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٤١٤ .

(٨) رو ، جورج ، ص٤٥٨ .

(٩) كونتينو ، جورج ، ص٢٠٦ . . . ، الاحمد ، سامي سعيد ، ص١٤- ١٥ .

(١٠) سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ ، ص١٨٤ .

(١١) اوينهايم ، ليو ، ص١٢٠ .

(١٢) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٢٨٧- ٢٨٨ . . . ، سليمان ، عامر ، العراق في التارخ ، ص١١٩ . . . ، بوستفيت ، نيكولاس ، ص٢٤ .

(١٣) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٢٤٢- ٢٤٤ .

(١٤) الاحمد ، سامي سعيد ، ص٢٠ .

(١٥) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٢٢٧- ٢٢٩ . . . ، الاحمد ، سامي سعيد ، ص٢٤ .

(١٦) رو ، جورج ، ص٢٣٧ .

(١٧) نفسه ، ص١٩١ .

(١٨) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٢٢٥- ٢٢٦ . . . ، اوينهايم ، ليو ، ص١٤٥ .

(١٩) رو ، جورج ، ص١٨٦ .

(٢٠) اوينهايم ، ليو ، ص١٣٦ .

(٢١) غولايف ، فاليري ، ص٦٤ .

(٢٢) شمار ، جورج بوييه ، ص٢٧١ .

(٢٣) سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ ، ص١٨٤- ١٨٦ .

(٢٤) الاحمد ، سامي سعيد ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٢١ .

(٢٥) ساكز ، هاري ، ص٢٧. KaganDonald,P.5-15.., Robinson,Jr,P.37.., Hawkes,Jacquetta,P.152-155.

(٢٦) الاحمد ، سامي سعيد ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٢٢ .

(٢٧) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٣٩٨ .

(٢٨) رو ، جورج ، ص٢٣٧ .

(٢٩) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٥٢٢-٥٢٥ . . . ، الاحمد ، سامي سعيد ، ص٢٧ . . . ، رو ، جورج ، ص٤٥٤- ٤٥٨ .

(٣٠) سوستفيت ، نيكولاس ، ص٢٥ .

(٣١) كونتينو ، جورج ، ص٢٥٧- ٢٥٨ . . . ، باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٥٣٨- ٥٣٩

(٣٢) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٥٥٨ .

الفصل الثاني عشر
النظام الاقتصادي
(الزراعة، التجارة، والحرف)

شكلت الزراعة أساس الحضارة وعماد المدينة السومرية، كما هو حال البلاد في الوقت الراهن، خاصة عند استبعاد النفط. وتميزت المدينة السومرية بميزتين بارزتين: هما نظام الري ومعبدها الرئيس[١]. واشتهرت بلاد الرافدين في كافة عصورها الحضارية بأولوية الزراعة[٢]. ومع أن الزراعة بقيت المصدر الأساس للازدهار الاقتصادي، فإن التجارة الخارجية- التي جاءت لاحقاً- حققت مصدراً لا يقل عنها أهمية وشأناً. ويرتبط بذلك فقر البيئة الطبيعية التي نشأت فيها حضارة وادي الرافدين من المواد الأولية الضرورية[٣].

جسَّدت أعمال الري جانباً أساسياً في حضارة جنوب وادي الرافدين وقادت إلى تقوية المنظمة الاجتماعية والسلطة. كان هذا واضحاً في استغلال كل جزء متاح من الأرض على امتداد مساحة الـ ١١٥٠٠ ميل مربع للسهل الرسوبي. وكانت القنوات تشكل إنجازات عظيمة، عبَّرت عن واحدة من ثلاثة أعمال ضخمة افتخر بها ملوك سومر وأكد وبابل إلى جانب الانتصار في الحروب وبناء المعابد. إن أول قناة موثوقة في كل التاريخ البشري لا تزال قائمة جزئياً وهي Al-Gharrif على دجلة في الكوت. تم حفرها من قبل حاكم كيش قبل منتصف الألف الثالث ق.م. كما توجَدُ قناة أُخرى موثقة في السنة التاسعة لحكم حمورابي باسم Hammurabi-hegal تطلب حفرها ٢٤ سنة. بينما مدونة حكمه في السنة الثالثة والثلاثين تذكر قناة Hammurabi(spells)abundance -for-the-people التي وفَّرت المياه الدائمة لكل من نيبور، أور، أوروك، إيسن. وكانت القنوات كذلك تعمل كخزانات لتخفيف اندفاع المياه أثناء الفيضان[٤].

تمتد علاقات بلاد الرافدين في مجال التجارة الخارجية إلى عصور ما قبل التاريخ خاصة بالعلاقة مع البلدان القريبة في الشرق الأدنى:إيران، آسيا الصغرى، سوريا، مصر، وبعض أجزاء البحر المتوسط. تركزت الواردات في المعادن والأخشاب والأحجار بما فيها الأحجار الكريمة، علاوة على العاج والتوابل والعطور والبخور واللبان. بينما شملت الصادرات المنتجات الزراعية والحيوانية بضمنها الحبوب والأصواف والجلود والمنسوجات والخمور والزيوت والأواني الفخارية والأختام الأسطوانية[٥].

عرف سكان وادي الرافدين منذ العصر الحجري صناعة الفخار والأواني المنزلية والأدوات والآلات الزراعية والحياكة وصناعة المنسوجات. ومع حلول الألف الثالث ق.م ظهرت صناعة القطع الفنية من تماثيل ونصب ومسلاّت. وكان النحاس أول معدن استخدموه منذ العصر الحجري- المعدني، ثم الفضة والذهب والرصاص، وعرفوا صناعة البرونز بخلط القصدير والنحاس. ومن الصناعات (الحرف) المهمة الواردة في الوثائق المسمارية المكتشفة صناعة الجلود وبناء السفن، النجارة والبناء، البواري والحصر والقصب والحلفاء على نحو ما يلاحظ حالياً في العراق. وكانت تربية ورعي المواشي (الغنم، الماعز، الخنزير، البقر) وصيد الأسماك من مصادر الثروة المهمة. وهناك نصوص تعود إلى عصر فجر السلالات تشير إلى وجود مشاغل (ورش) متخصصة في المعابد بضمنها مشغل للخياطة. وكانت صناعة البيرة (الجعة) والشراب (الخمور) بِأنواعها منتشرة تستخلص من التمور والكروم، وتخصصت المرأة في إدارة محلات بيعها (صاحبة الحانة)، وتمتع صانعوها بمباركة الآلهة."إنها الإلهة نِنجرس Ninkasi التي تملأ أفواه الآلهة بشراب قوي". وتساعد على نضوج وتحسين جودة الشراب أثناء تخميره. وعندما يصبح جاهزاً، تُشارك أنانا- عشتار نفسها في الشرب[٦].

يُعَدّ عصر فجر السلالات من عهود الرخاء الاقتصادي المتميزة في حضارة وادي الرافدين بالعلاقة مع خصب الأرض وجهاز ري منظم، رغم مشكلات الفيضانات والملوحة. وكان بوسع سكان وادي الرافدين العيش بسهولة على المحاصيل الزراعية من إنتاج أرضهم ومبادلة الفائض مع الخارج. ومع أنهم كانوا يزرعون مختلف أنواع الحبوب، بقي الشعير - ولم يزل- المحصول الرئيس لتحمله النسبي للملوحة. ورغم أن طرق الزراعة كانت بدائية لكنها كانت كافية في نفس الوقت، وجرى وصفها بشكل مفصل في نص مسماري كُتب عام ١٧٠٠ ق.م والمعروف بـ (تقويم المزارع السومري)

متضمناً ارشادات يقدمها مزارع لابنه بكيفية تهيئة حقله للزراعة: تسويته وحرثه وبذره وريه وحصاد المحصول ودرسه وتذريته.. وأخيراً، وكما ورد في (سفر راعوت- التوراة) ينصح المزارع ابنه "بجعل الأرض تقدم قوتاً للصغار واللقّاطة بترك بعض السنابل الساقطة على الأرض"[٧]. خُمِّنَ محصول الحنطة المنتج جنوبي البلاد أوائل حضارتها "بحجم يمكن مقارنته مع إنتاج أفضل حقول الحنطة الكندية المعاصرة[٨]."

تتوافر في الكتابات الأدبية تشبيهات منزوعة من الحياة الزراعية، كما في تشبيه تحمل الظروف القاسية بـ "صبر القصب". وفي إحدى كتابات العصر البابلي القديم يُدلل الكاتب أُمه: "إن أُمي مطر السماء...الماء الجاري الذي يروي أحسن البذور... الحصاد الوفير الذي يقدم محصولاً ثانياً... بستان مملوء بالمرح... شجرة الشربين المملوءة بالمخاريط... الفاكهة الأُولى المبكرة... قناة تجلب المياه الوفيرة إلى قنوات الري، إنها تمر دلمون الحلو في موسمه[٩]".

كما وفَّر الطقس الحار والرطب لجنوب البلاد بيئة ملائمة جداً لنمو أشجار النخيل. وتبين النصوص المسمارية وجود غابات النخيل الشاسعة في بلاد سومر منذ وقت مبكر جداً يعود إلى الألف الثالث ق.م، رغم صعوبة معرفة مكانها الأصلي وتاريخ بداية وجودها. وكانت النخلة أهم شجرة ومحور الحياة الاقتصادية. ومع وجود الخبز والتمر (ويمتلك الأخير قيمة حرارية عالية- غذاء متكاملاً)[١٠]، عندئذ يكون قد توفَّر الغذاء الرئيس للسكان. ومع أنهم كانوا يربون الماشية، فإن القنوات والبحيرات (الأهوار) والخليج كانت تزودهم بالسمك الوفير. وزُرعت الفواكه في ظلال أشجار النخيل، علاوة على زراعة الخضروات[١١]. وهكذا توفرت- عدا أزمنة المجاعات الاستثنائية الناجمة عن الحروب والكوارث الطبيعية- غذاءً غنياً متنوعاً. وكان السكان عموماً في هذا المضمار أفضل بكثير من جيرانهم في إيران وآسيا الصغرى وسوريا[١٢].

عرف سكان وادي الرافدين منذ أقدم الأزمنة فوائد أجزاء النخلة، فاستعملوا ثمرها واستخرجوا منها أنواعاً عدة من الخمور وكذلك الدبس والخل. واستعملوا البذور وقوداً ثم علفاً بعد سحقه. وصنعوا من السعف والجريد الأثاث ولوازم الحياة اليومية، ومن أليافها الحبال، ومن خوصها الحصر والسلال، ومن جذوعها مادة للوقود وتسقيف البيوت. جاء في نص بابلي متأخر ٣٦٥ فائدة للنخلة، وعددت أُغنية تدمرية فوائدها بثمانمائة، وقال المؤرخ سترابون إن النخلة تزود البابليين بكل حاجاتهم عدا الحبوب. وعرف أهل الرافدين منذ أقدم الأزمنة طريقة تكاثر النخيل

بالفسيل وهي الطريقة الغالبة، والتلقيح الاصطناعي، وترك المسافات المناسبة بين أشجار النخيل. وذكرت النصوص المسمارية درجات الجودة في بعض التمور، ولا تزال التعابير المستعملة في زراعة النخيل وجنيه تحتفظ بأصلها البابلي مثل (تال) و (تبلية)- آلة التسلق- والشيص (التمر الرديء). وصورت النخلة على أختام كثيرة وظهرت في مسلة من عصر أسرحدون الآشوري. وفي رسالة من العصر البابلي القديم يُشبه المرسل أمه بالنخلة: "طيبة الرائحة، مدللاً كونها خيراً وبركة. "ولم تكن شجرة الحياة المقدسة في المنحوتات الآشورية سوى النخلة". وكانت الإلهة (انانا)- عشتار- ربة مخازن (عذوق) التمر، وزوجها (دموزي)- تموز رب التمور والحياة الجديدة في النخلة. وكان مسكن عشتار هو بيت عذوق التمر(١٣).

استعمل المزارعون في بلاد الرافدين وسائل شتى لري أراضيهم منذ العصور المبكرة، منها: الدالية- الدلو، الناعور المائي، الكرد. وكانت أعمال الري جزءاً رئيساً من اهتمامات الملوك في مختلف مراحل حضارة وادي الرافدين. وبلغ اعتناء حمورابي بالري درجة بحيث تم تثبيت تقويم التاريخ لبعض سنوات حكمه بما فتح من مشاريع للري. كما اهتم ملوك العصر البابلي الحديث بشؤون الزراعة والري، خاصة نبوخذ نصر الثاني الذي حفر قناة أسماها (قناة جالبة الخير) لتوجيه مياه نهر الفرات، وهي تحتوي على خزان اصطناعي كبير يمكن فتحه وغلقه عند الضرورة(١٤).

شكل المعبد قلب دولة المدينة وأحد محورين مركزيين في النشاط الاقتصادي- الاجتماعي، إلى جانب القصر (ق.١٠/٣). احتفظ بحقوله ومواشيه وأدواته وآلاته الزراعية وورشه ومشاغله الحرفية التي عمل فيها الناس من مختلف الفئات:مهنيين وحرفيين وعمال من أحرار وعبيد. وكانت السلطة الدينية للمعبد توفرله إمكانية دعوة الناس لخدمة ممتلكات الإله بالعمل المجاني (السخرة) من وقت لآخر. وعمل التجار والحرفيون وغيرهم تارة لحسابهم وأخرى لمصلحة المعبد. وإضافة لحصة المعبد العالية من الأراضي الزراعية، كان للقصر- الملك وحاشيته من النبلاء والكهنة وكبار الموظفين- أراضٍ واسعة، وما بقي من أراضي المدينة كانت مجالاً للتملك الفردي(١٥).

بكلمات أخرى، كانت الملكية الخاصة متاحة للأحرار (امتلاك: البيوت، البساتين، برك الاسماك، الحمير، الأغنام، الماعز..)، في حين كانت أراضي دولة المدينة موزعة في معظمها بين القصر والمعبد. والغالب أن عامة الناس كانوا يفضلون العمل أجراء في أراضي القصر أو المعبد لقاء إعالتهم ودفع تكاليف معيشتهم، تخلصاً من تراكم الديون

والعبودية[١٦]. وبالنتيجة أصبح العمل الحر، خاصة ملكية الأراضي الزراعية بالنسبة لعامة الناس محدوداً ويتحمل مخاطر عالية، حيث ولّتْ أيام كان الفلاح سعيداً وملكية الأراضي مشاعة[١٧]. يقول جورج رو "وإذا كان يتوجب إطلاق تسمية ما لمجتمع كهذا تركزت أغلب وسائل الإنتاج فيه بيد (دولة قيادة الكهنة)، والذي وجدت فيه الملكية الفردية أيضاً، فيمكن أن تكون تسمية (الاشتراكية الثيوقراطية) مقبولة[١٨]."

وهكذا، فعلى خلاف الأيام الخوالي حيث كانت الأرض مشاعاً، وكان المزارع يتمتع بحرية الملكية الفردية، وكانت الزراعة مصدر رفاهيته، وكان يُشار إلى الفلاح السومري أوائل نشوء حضارته على أنه "رمز السعادة"، أصبحت حياة الفلاح بسيطة مع ظهور السلطة المنظمة ومستواه المعيشي منخفضاً حتى تولّد الاعتقاد أن الفلاحين كانوا يباعون ويشترون مع الأرض التي يعملون عليها شأنهم شأن الفلاحين في ظل النظام الاقطاعي الذي ساد العصور الوسطى الأوربية[١٩].

هوامش الفصل الثاني عشر

(١) ساكز، هاري، ص٢٧

(٢) الاحمد، سامي سعيد، ص١٥٢ (و) ١٥٨- ١٦٠ . . . اوبنهايم، ليو، ص١٠٤ .

(٣) سليمان، عامر، العراق في التاريخ، ص١٩٥ . . باقر، طه، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٢٤١ . . Hammond Mason,p.25.

(٤) Hawkes,Jacquetta,p.92-94.

(٥) الاحمد، سامي سعيد، العراق في التاريخ، ص١٠٢- ١٠٣ .

(٦) Hawkes,Jacquetta,p.105. وايضاً : عبدالواحد، فاضل (و) سليمان، عامر، ص٩٦-١٠٥ . . . سليمان، عامر، العراق في التاريخ، ص٢٠١- ٢٠٢ . . . باقر، طه، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٤٠٠-٤٠١ . . Robinson,Jr.,p.48-49..,De Mieroop,p.185..

(٧) رو، جورج، ص٢٨ . . . وايضاً : الاحمد، سامي سعيد، حضارة العراق، ج٢، ص١٥٧- ١٥٨ .

(٨) رو، جورج، ص٢٨ . . Hawkes,Jacquetta,p.95-96..

(٩) الاحمد، سامي سعيد، ص١٥٥ . . يرجح الباحثون الاثريون أن المقصود بـ (دلمون) هو البحرين .

(١٠) مشكلات انتاج وتسويق التمور في العراق، دراسة استشارية، (فريق عمل : كاظم حبيب، منيب السكوتي، عبد الوهاب حميد رشيد)، مؤسسة البحث العلمي، مجلس التخطيط، النشرة العلمية رقم ٥/ ٧٥، بغداد ١٩٧٥، ص٧- ٨ . . . رشيد، عبالوهاب حميد، واقع التطور في انتاج وصادرات التمور في العراق، المصرفي، مجلة المصرف التجاري العراقي، العددان ٢٥- ٢٦، حزيران- تموز، السنة الثالثة، بغداد ١٩٧٣، ص٣٢- ٣٣ .

(١١) باقر، طه، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٢٤٠ .

(١٢) رو، جورج، ص٢٩ .

(١٣) الاحمد، سامي سعيد، ص١٦٦- ١٦٨ . . . رو، جورج، ص٢٩ .

(١٤) الاحمد، سامي سعيد، العراق في التاريخ، ص١٠٢، ١٧٩ .

(١٥) باقر، طه، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٢٢٨- ٢٢٩ . . . ساكز، هاري، ص٢٨ . . Robinson,Jr.,p.48-49..

(١٦) باقر، طه، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٤٠٠ .

(١٧) الاحمد، سامي سعيد، ص١٨٥ .

(١٨) رو، جورج، ص١٨٦ . والثيوقراطية THEOCRACY تعني حكومة دينية .

(١٩) الاحمد، سامي سعيد، حضارة العراق، ج٢، ص ١٥٨- ١٦٠ .

الفصل الثالث عشر
القانون- القضاء والعدل
(أوروكاجينا، أورنمو، لبت عشتار، قانون أشنونا، شريعة حمورابي)

يعتبر القانون وسيلة حضارية لتنظيم المجتمع السياسي لأنه يقود إلى تثبيت الحقوق والواجبات في مجال العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية[1]. وفي مقدمة هذه العلاقات تلك التي تقوم على أساس تنظيم العلاقات بين الناس ونخبة الحكم الذي يشكل عقداً اجتماعياً بين الحاكمين والمحكومين، ويجسد المصدر- والمرجع- لكافة القوانين والمراسيم والأنظمة التي تصدر عن السلطتين التشريعية والتنفيذية. وفي بيئة حضارية غاب عنها مفهوم توزيع السلطات وارتكنت بدءاً إلى الملوكية وفق العقيدة الدينية- حق التفويض الإلهي للملك- يصبح الحاكم (الملك) هو الدولة والدستور، باعتباره ممثل الإله ومصدر العدل. وتبقى القوانين الصادرة باسمه تُعبِّر، بعامة، عن تنظيم العلاقات بين الناس. وهذا ما جسَّدته قوانين الحضارات القديمة، تتقدمها قوانين حضارة وادي الرافدين.

تتصف قوانين حضارة وادي الرافدين بأنها أقدم القوانين المكتشفة في التاريخ، وتجسّد- إلى جانب اختراعها المبدع للكتابة- قمة الأصالة الحضارية الأولى التي منحت البشرية أساس الحضارة الحديثة: الكتابة- العلم، والقانون- النظام.. فاستحقت حضارة وادى الرافدين صفة المعلم الأول للحضارة البشرية المعاصرة. كما أن طبيعة القوانين المكتشفة من حيث تنظيمها وشموليتها، بدءاً بالشؤون الزراعية- أساس اقتصاد حضارة وادي الرافدين- ولغاية الأحوال الشخصية- محور النظام الاجتماعي- تدلُّ على وجود مجتمع راق متمسك بالقواعد القانونية، دليل ذلك أن ٩٠٪ من النصوص

المسمارية المكتشفة تُعالج موضوعات المعاملات القانونية (العقود). ففي قانون حمورابي تأكيد على إلزامية تسجيل الاتفاق بالأسلوب القانوني، بما في ذلك عقد الزواج. يُضاف إلى ذلك أن هذه القوانين اعتمدت عددا من المبادئ القانونية المتواجدة في القوانين المعاصرة حالياً، مثل (مبدأ القوة القاهرة) و (مبدأ عدم جواز التعسف في استخدام الحق الفردي)[٢].

وهناك مثال تاريخي بارز يؤكد البحث عن القصد الجرمي في هذه الحضارة منذ عهود ممعنة في القِدَم. يذكر كريمر جريمة حدد تاريخها بحدود ١٨٥٠ ق.م في بلاد سومر، تضمنت قيام ثلاثة أشخاص بقتل كاهن كبير. أبلغ هؤلاء زوجة الضحية بقتل زوجها. لكن الزوجة كتمت السر ولم تخبر السلطات بذلك. بعد رفع أمر الجريمة للملك في عاصمته (إيسن) وتحويلها إلى جمعية المواطنين الذين شكلوا محكمة في (نيبور)- نفر. تلخصت المطالبة بإدانة المتهمين وإنزال عقوبة الإعدام بحق الرجال الثلاثة والزوجة، بعد اعتبار الزوجة شريكة في الجرم لكتمانها الخبر. لكن اثنين من أعضاء الهيئة اعترضا على طلب الحكم على المرأة. انحاز أعضاء المحكمة إلى الرأي المعارض مبررين ذلك أنه: كانت للمرأة أسبابها للبقاء صامتة. ويبدو أن زوجها قصَّر في واجباته تجاهها و/ أو خافت من إخبار السلطات. عوقب بالموت القتلة الثلاثة مقابل تبرئة الزوجة[٣].

اتبعت قوانين حضارة وادي الرافدين تقاليد كتابية متشابهة في المقدمة والخاتمة. تضمنت المقدمة صدور القانون عن الملك مع تمجيده وبيان خصاله الحميدة واختياره من قبل الآلهة وتفويضه أمر الناس ليحكم بينهم بالعدل. ولا تهمل المقدمة الإشارة للأوضاع المتردية وسوء الإدارة والفساد، خاصة في الفترة السابقة (العهد المباد) والتي دعت الملك إصدار قانونه بغية القضاء على الظلم الذي لحق بالناس. وهي قيم وتقاليد ليست بعيدة عن أفكارنا وممارساتنا التي تبرز عند حدوث الانقلابات بخاصة. بينما تضمنت الخاتمة تعظيم إنجازات الملك وتشديد الحرص على دقة تنفيذ القانون وصب لعنات الآلهة على كل من تسول له نفسه تحريفه.

غلب على القوانين السومرية، عدا الجرائم الكبرى، تطبيق (مبدأ الإصلاح- التعويض) في معاقبة المذنبين بدلاً من (مبدأ الانتقام- القصاص) المستند إلى قاعدة

(العين بالعين والسن بالسن..) في شريعة حمورابي وما تتضمنه من أساليب التعذيب وبتر أجزاء من الجسم[٤]. وهو المبدأ الذي نقلته الشريعة العبرانية ثم الشريعة الإسلامية والقائمة في بعض البلدان العربية- الإسلامية حتى الوقت الحاضر.

كانت مهمة القضاة والمحاكم من اختصاص الكهنة- المعبد عادة في حضارة وادي الرافدين- لكنها نُقلت للمحاكم المدنية تحت إشراف الملك وسلطته في عهد حمورابي. وفي بعض الحقب شارك المواطنون الأحرار مع القضاة بتشكيل هيئة تمثل نوعاً بدائياً من هيئة المحلفين، ولم يكن هناك ادعاء عام أو محامون. ولمعرفة الحقيقة في الدعاوى المقدمة وفي غياب أدلة وثائقية، على الخصوم والشهود أداء القسم بالآلهة، فإذا لم تظهر دلالات تفيد في إصدار الحكم لجأ القضاة للتعذيب و/ أو الخضوع لحكم إله النهر، خاصة في الجرائم الكبرى، حيث يطلب القاضي من المتهم رمي نفسه في النهر، فإذا نجا، استحق من اتهمه الموت[٥].

شهدت حضارة وادي الرافدين بدءاً بالعهد السومري صدور قوانين عديدة توجت بشريعة حمورابي. كما وسبقت قوانينُ حضارة وادي الرافدين أقدم جهد قانوني ومحاولة إصلاحية في التاريخ البشري يعود إلى أوروكاجينا.

عُرف أوروكاجينا/ أورونيمجينا (٢٤٠٠ ق.م) كونه آخر حكام لگش (تلو- منطقة الفرات)، اشتهر بإصلاحاته لصالح عامة الناس فاستحق أن يكون الحاكم المصلح الأول في تاريخ البشرية. جاء للحكم إثر ثورة اندلعت في المدينة بسبب زيادة الضرائب والارتباك الاقتصادي والفساد. بادر بإصدار إصلاحاته الاقتصادية والاجتماعية وترك نصًّاً مفصلاً بشأن معالجته للأوضاع المتردية. غير أن فترة حكمه القصيرة (ف٣) لم تتح لإصلاحاته تلك فرصة النضوج[٦]. وتكاد إصلاحات أوروكاجينا ترتقي لمستوى القانون لولا خلوها من المقدمة والخاتمة وحصر موضوعاتها في معالجة الوضع الضريبي وشؤونه تقريباً. ومع ذلك يضعها معظم الباحثين في تاريخ القانون مع المناهل الأُولى للقانون والتشريع في وادي الرافدين. وبذلك فهي تُعَد من أقدم التشريعات في تاريخ البشرية[٧].

لم يكن يسود وادي الرافدين أي نظام معين باستثناء "القانون العرفي" الشائع والمتوارث من عهد لآخر. ولكن أصبحت مهمة إقامة العدل (الميشاروم) واحداً من

واجبات حكام وادي الرافدين، على الأقل، منذ عهد أوروكاجينا. وكان هذا هو المقصود بالعبارة الواردة في قانون حمورابي والقائلة إنه "أرسى دعائم العدل في البلاد"[٨]. كما أكدت إصلاحات اوروكاجينا على فكرة "الحرية في حدود القانون"، وأن الوظيفة مهما علتْ لا تعفي صاحبها من المسؤولية. من هنا أعلنها حرباً ضد الموظفين وجامعي الضرائب ممن خرقوا التقاليد وتجاوزوا على حقوق وممتلكات الناس[٩].

حقق أوروكاجينا بإصلاحاته تأييد وإسناد عامة الناس بضمنهم فئة المحاربين ممن رفع عنهم اضطهاد الكهنة وجباة الضرائب، إذ كان مفتشو المحاكم يتدخلون في كل الأمور ويفرضون الضرائب الباهظة على الزواج والطلاق وحتى دفن الموتى. وتُشترى البيوت بأثمان بخسة من قبل الموظفين والأغنياء. فعم الفساد وقاسى الفقراء من الأوضاع المؤلمة، وما هو أدهى أن (الأنسي)- الحاكم- اجتنى أراضي شاسعة لزراعة "البصل والخيار" متجاوزاً على أفضل حقول الآلهة، في حين تُحرث مقاطعاته بواسطة حمير وثيران تعود ملكيتها للمعابد. يستمر أوروكاجينا في وصف حالة البؤس التي آلت إليها فئات العمال والصناع بحيث "أنهم صاروا يستجدون الطعام ويأكلون الفضلات من أبواب المدينة، في حين كانت مخازن الحكام وأهرائهم وبيوتهم وقصورهم وأملاك حاشيتهم تفيض بالخيرات. وأينما ولّى المرء وجهه من حدود ننجرسو إلى تخوم البحر وجد جباة الضرائب." ثم يعدد أعمال السخرة التي كانت تفرض على الفقراء والضعفاء وحتى العميان منهم من جانب وكلاء الحكام الذين بلغت بهم القسوة أنهم كانوا لا يجهزونهم بما يحتاجون من قوت[١٠]. "وأن كل هذه المساوئ كانت تُرتكب في غابر الأيام، ولكن حين أعطى (ننجرسو) ملوكية لگش إلى (اوروكاجينا) مصطفياً إياه من بين الجموع الغفيرة- أمره بتنفيذ الإرادة الإلهية فصدع بالأمر، وعزل الموكلين الملاحين ومنعهم من الاستيلاء على (قوارب موكليهم)، وحرَّم على رئيس الرعاة الإستحواذ على (قطعان الماشية)... وجعل سلطان ننجرسو يسمو على سلطة الحاكم"[١١]. وهكذا حق لـ (اوروكاجينا) أن يفتخر بأنه حرر مواطنيه من كل أنواع الظلم وأعاد لهم العدل والحرية. وذكر أنه بفضل الإجراءات التي طبقها لصالح اليتيم والأرملة، فلم يرتكب الأقوياء أي خطأ. وذكر أوروكاجينا أن إصلاحاته كانت محل رضا الإله ننجرسو- إله مدينة لگش. وكان الملك يصدر القانون باسم إله مدينته إضافة

إلى شمش (شمس) UTU إله العدالة[١٢]. وباعتباره نصير الإله ونائبه، أراد أوروكاجينا وضع حد للمفاسد التي كانت متفشية قبل عهده والعودة للقوانين القديمة العادلة، وعاهد إله المدينة بأنه لن "يُسلم الضعيف والأرملة إلى القوي". وهذه العبارة مماثلة لتلك الواردة في نهاية مقدمة شريعة حمورابي (العمود ٤٠/ السطر ٥٩-٦٠) الذي صدر بعد حوالي ١٣٠٠ سنة من هذا التاريخ[١٣].

تلخصت إصلاحات أوروكاجبنا في: تخفيض الضرائب التي كانت تُجبى من عامة الناس سواء ما كان يذهب منها للحاكم وموظفيه وحاشيته أو الرسوم الباهظة التي فرضها الكهنة على معاملات الأحوال الشخصية (الزواج، الطلاق، دفن الميت)، تخفيض الضرائب حتى عن بعض فئات الكهنة ممن كانوا عرضة لابتزاز أموالهم من جانب جباة الحكام، وضع حد لاستغلال الحكام أملاك المعابد. وبذلك شملت هذه الإصلاحات فئات الكهنة إلى جانب فئات الحكم الذي كان هو نفسه على رأسها، فعبَّرت إصلاحاته عن جرأته وحياده ونزاهته وعدله. كذلك غطت إصلاحاته معالجة الجرائم وتنظيم العقوبات الخاصة بها وجوانب من الأحوال الشخصية مثل تحريم التقليد الذي كان سائداً وهو زواج المرأة بأكثر من رجل في نفس الوقت وفرض عقوبة الرجم على المرأة المخالفة. كما أمر بالعفو العام عن المسجونين والموقوفين بسبب ديونهم السابقة أو بسبب استحقاق الضرائب عليهم من القصر (السلطة الحاكمة). وفرض الرجم على السارق. ومن تشريعاته "إذا أراد وجيه (متنفذ) شراء حمار أو بيت يعود إلى فقير فباستطاعة الفقير أن يطلب الثمن الذي يريده من الوجيه، وعلى هذا أن يدفع الثمن بنقود معتمدة (فضة) ولا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يضطهد الفقير إذا رفض البيع"[١٤]. وهكذا اتجهت إصلاحات أوروكاجينا نحو تقليص نفوذ الوجهاء وكفٍّ أيدي العديد من الموظفين وتخفيض الضرائب "وأعاد إلى إله المدينة (ننجرسو) مركزه السابق في بنايات وحقول الحاكم." وبذلك "حرر مواطني لگش من الربا والاحتكار، والجوع، والسرقة، والاعتداءات، وأرسى دعائم حريتهم"[١٥].

يُعَد قانون أور- نمو (٢١١٣- ٢٠٩٦ ق.م) أقدم قانون مدون في تاريخ وادي الرافدين وفي تاريخ البشرية جمعاء. عُثِرَ على أجزاء منه في مدينة نفر ومدينة أور، أمكن قراءة أكثر من ٢٢ مادة منه رغم التلف الذي أصابه. كُتب باللغة السومرية،

وتوضح بقايا مقدمته كيف فرض الإله (ننا) إله القمر، إله مدينة أور، الملك أور- نمو لحكم المدينة، ووصفه بالملك الورع التقي العادل، وأن مجيئه كان إيذاناً بالقضاء على الفساد والفوضى وسوء الإدارة والتجاوز على حقوق الآخرين، وبذلك تمتع الناس بحقوقهم وحريتهم. ويثير ما تبقى من مواد القانون إهتماماً كبيراً حيث يظهر أن بعض الجرائم، على الأقل، كالأذى الجسدي، لم تُعاقب بتشويه وقطع أعضاء الجسم كما هو الحال في شريعة حمورابي والقانون الآشوري، بل كان الجاني يُرغم على دفع تعويض نقدي. "وهذا يدل على وجود مجتمع راق إلى درجة أعلى مما كان يُتصور عادة"[١٦].
أما المواد القانونية المتبقية فهي تُعالج الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وبعض المخالفات والإساءات وأوضاع العبيد وضوابط للعمل القضائي وسير المحاكم خاصة ما يتعلق بشهادة الزور وتبعاتها، وقضايا الأرض والزراعة.[١٧]

القانون المكتشف التالي من حيث القدم أصدره لبت- عشتار (١٩٣٤- ١٩٢٤ ق.م) خامس ملوك سلالة دولة مدينة إيسن (ف٦). ضمَّ القانون في أصله أكثر من مائة مادة، بينما أظهرت بقايا الرُقُم الطينية ٣٨ مادة، وهو كسابقه مدون بالسومرية. تضمنت مقدمة القانون، كما في سابقه، تمجيد الآلهة السومرية وتعظيم الملك لبت- عشتار. في حين ذكرت الخاتمة إنجازات الملك في نشر العدل والقضاء على البغضاء والعنف وتحقيق الرفاهية. كذلك أخذ هذا القانون بـ (مبدأ التعويض) بدلاً من (مبدأ القصاص) في الجرائم الاعتيادية[١٨]. وعالجت المواد التي سلمت من التلف شؤون الأرض والزراعة والسرقة والعبيد والاعتداء والضرائب. وكثيراً ما تغنى الملك لبت- عشتار بعدله وبِأنه كان شديداً مع الأقوياء رحيماً بالفقراء وأقام الحق وأعطى الحرية للناس[١٩]. يُنسب القانون الثالث إلى مدينة أشنونا (قانون أشنونا)، وبسبب التلف الذي أصاب اسم الملك الذي أصدره، لم يكن بالامكان معرفة تاريخ صدوره. أشنونا هي عاصمة مملكة أشنونا . قامت فيها سلالة آمورية في منطقة ديالى واتسعت لغاية أطراف بغداد (ف٦). وهو أقدم قانون مدون باللغة الأكدية، ويسبق قانون حمورابي بحدود قرن من الزمن. ويضم بشكله الحالي مقدمة قصيرة وسبعين مادة قانونية تعالج مواضيع مختلفة مثل الأسعار والأجور والسرقة والمعاملات التجارية والأحوال الشخصية[٢٠]. وهناك اتفاق على وجود تشابه كبير نسبياً بين قانون أشنونا وقانون

حمورابي، بل أن الأول شكل في الكثير من مواده أساساً لقانون حمورابي[٢١].

ورغم هذا التشابه، هناك بعض المواد في قانون أشنونا لا نظير لها في قانون حمورابي، وهي جديرة بالاستشهاد ما دامت تعكس ممارسة معروفة شكلت مادة أساسية لإحدى القصص الواردة في العهد القديم (التوراة)، وهي المادة ٢٥ من قانون أشنونا: إذا تقدم رجل للخدمة في بيت حميه (أبو خطيبته أو زوجته) ولكن حماه استبعده ثم أعطى ابنته إلى رجل آخر، فعلى والد البنت أن يعيد المهر الذي قبضه (في شكل خدمة) مضاعفاً. وهذه المادة تشير إلى وضع مماثل لخدمة (يعقوب) لدى (لامان) سبع سنين للزواج من (راحيل) لكنه خُدع في النهاية (التكوين ٢٩، س١٥-٣٠). رغم أن (لامان) اعترف (التكوين٢٩، س٢٦) أنه وفقاً للقانون المألوف في منطقة حران كان مُنصفاً في عمله تجاه يعقوب[٢٢]. ويبدو أن قانون اشنونا يتماثل مع القوانين السابقة في الأخذ بمبدأ الإصلاح- التعويض بدلاً من الانتقام- القصاص.

اعتمدت القوانين الآشورية من حيث مبادئها وأحكامها والعقوبات القاسية التي أخذت بها على تلك التي وردت في القانون البابلي خاصة قانون حمورابي. شملت في موادها: السرقات، التجديف، التحريض على الفتن، الاعتداءات، القتل، الأحوال الشخصية، الاغتصاب، الزنا والبغايا، الحجاب، المتهمون بالسحر الاسود، الديون، اعتداء الرجل على فئات مختلفة من النساء وإجهاضهن، ضرب الزوج لزوجته وإجهاضها[٢٣]. والمقتطفات التالية تقدم نماذج من محتويات القوانين الآشورية[٢٤]:

م ٢٣- إذا كان الرجل مريضاً او متوفى وسرقت زوجته شيئاً من بيته لشخص آخر، تُعدم الزوجة ومن تلقى منها (الشيء المسروق). أما إذا سرقت الزوجة شيئاً من بيت زوجها وهو حي وأعطته لشخص آخر، فإن الزوج يتهم زوجته ويفرض العقاب عليها. وعلى من تلقى منها الشيء المسروق أن يعيده وتفرض عليه عقوبة مماثلة للعقوبة التي فرضها الزوج على زوجته.

م ١٥- إذا ضبط رجل رجلاً مع زوجته ووجه إليه التهمة وأثبتها عليه فيعدم كلاهما. وفي حالة جلبه أمام الملك أو القضاة ووجه اليه التهمة وأثبتها عليه، فإذا قتل الزوج زوجته فيمكنه كذلك قتل الرجل، وإذا جدع أنف زوجته فعليه أن يخصي الرجل ويشرط وجهه كله (بسكين) ولكنه إذا عفا عن زوجته يعفو عن الرجل.

م ٢٧- إذا كانت زوجة تعيش في بيت والدها وزارها زوجها بانتظام، فكل هبة شرعية يقدمها لها زوجها هي ملكه، ويمكنه أن يأخذها. (لعلَّ ذلك يشير إلى نمط قديم من الزواج تستمر فيه الزوجة بالعيش مع أُسرتها التي ترعرعت فيها، وزيارة زوجها لها تكون ليلاً فقط. ويسمى هذا النوع من الزواج بـ: الكَعيدي، ويُعَدّ أمراً معيباً)[٢٥].

م ٤٠- لا يجوزللمرأة الحرة الخروج للشارع حاسرة الرأس (دون حجاب على رأسها)، حتى السرية التي تخرج مع سيدتها عليها أن تتحجب وكذلك البغي المقدسة التي تزوجها رجل، ولكن التي لم تتزوج فعليها أن لا تتحجب، والزانية لا تتحجب. وعلى كل من يرى زانية محجبة أن يلقي القبض عليها، ويجلبها للقصر، وعليه أن يأخذ ملابسها دون حليها. ويجب ضربها خمسين ضربة بالعصا، وصب الزفت على رأسها. واذا رأى رجل زانية محجبة وتركها تذهب ولم يجلبها إلى القصر فعليهم أن يجلدوا ذلك الرجل خمسين ضربة بالعصا، ويأخذ المخبر ملابسه. وعليهم ثقب أذني الرجل وسلكهما بخيط وربطه خلف (رأسه)، وعليه أن يخدم الملك شهراً... (ويستمر القانون فيقول إن البنت الأمة يجب أيضاً أن لا تتحجب. وعند مخالفتها تُقطع أذنها، ونفس العقوبة تُفرض على الشخص الذي يخفق في الإبلاغ عنها).

م ٥٩- للرجل أن يجلد زوجته وينتزع شعرها ويشق أذنيها ويؤذيهما فلا جرم يترتب على ذلك.

اكتشف علماء الآثار الفرنسيون مسلّة حمورابي في سوسة (عاصمة عيلام- جنوب إيران). فُسِّر وجودها في سوسة بكونها نُهِبَتْ أثناء غزوة عيلامية. وهي الآن في متحف اللوفر (باريس). تمتاز بأنها دونت باللغة الأكدية وبأسلوب رفيع. كما وبوبت محتوياتها على نحو يضاهي أحدث القوانين بالعلاقة مع الترابط الموضوعي لموادها[٢٦].

قانون حمورابي هو أحدث وأكمل وأنضج قانون مكتشف في وادي الرافدين حتى الآن. ويمثل أقدم الانجازات القانونية الرائعة في تاريخ الحضارة البشرية. يسبق قانون الإمبراطور الروماني جستنيان بنحو ألفي عام. كما أن قوانين حضارة بلاد الرافدين تعكس عموماً درجة عالية من الرقي والتنظيم الذي بلغه مجتمع وادي الرافدين، وأحدَ أبرز مقومات حضارته الراقية[٢٧]. وبصدور قانون حمورابي (١٧٧٠ق.م) صار لبلاد بابل قانونٌ موحدٌ، وأصبح تطبيقه من اختصاص السلطة المدنية[٢٨].

تضمنت المقدمة تمجيد الآلهة واستعرضت أعمال حمورابي وألقابه، وبينت طاعته وتقواه وعنايته بمدن ومعابد الآلهة، والأسباب التي دعته لإصدار شريعته وهي انتداب الإِله (مردوخ) له ليحكم مدينة بابل من أجل "إقامة العدل على الأرض وإبادة كل شخص خبيث وفاعل شر وإلا سوف يستعبد القوي الضعيف." بينما ذكر في الخاتمة الغرض من تدوين الشريعة وهو "إعالة اليتيم والأرملة... والمظلوم." وتبين الشريعة النتائج المتوقعة من تطبيقها بقولها: هذه هي "الأحكام العادلة التي أصدرها حمورابي الملك العظيم للبلاد فازدهر فيها العدل والحكم الصالح"[٢٩]. شملت مسلة حمورابي، عدا المقدمة والخاتمة، ٢٨٢ مادة يمكن توزيعها على خمسة أبوب رئيسة: التقاضي وأصول المحاكمات (م١- م٥).. الأموال والمعاملات المالية (م٦- م١٢٦).. الأشخاص وقوانين الأحوال الشخصية (م١٢٧- م٢١٤).. الأجور (م٢١٥- م٢٧٧).. العبيد (م٢٧٨- م٢٨٢)[٣٠].

أثار نشر قانون حمورابي جدلاً عنيفاً بين الباحثين بالعلاقة مع ما ورد من نصوص مشابهة لمواده في العهد القديم (التوراة). أصبح من الواضح أن الشرائع المثبتة في العهد القديم موجودة قبل قرون على فترة (موسى) مشرع القوانين العبرية. كما وصار واضحاً أيضاً أن قانون حمورابي شُرِّع لنوع مشابه من الظروف، أحياناً ترد بعبارات تكاد أن تكون مطابقة لتلك التي يُفترض أنها ذات أصل إلهي وترتبط باسم موسى، حيث يظهر عليها دلائل الاقتباس المباشر، "وقد سعى اللاهوتيون السلفيون الذين صاروا يتلوون في اضطراب عقلي للإشارة، حيث لا يمكن إنكار التشابه، إلى أن القوانين العبرية تُظهر محتوى أسمى أخلاقياً (هذا غير صحيح في الحقيقة دائماً). وأصبح المناوئون للدين فرحين أن واضع الشريعة العبرية (سواء كان موسى أم مشرعاً بعده تستَّر بهذا الاسم الموقَّر) قد استعار بكل وضوح باسم إلهه،كثيراً من الشريعة البابلية بقدر ما كان يناسبه، وكيَّفها بما يفي المجتمع العبري الأكثر بدائية". يؤكد الدكتور هاري ما ذهب اليه أحد الكتاب جازماً "أنه إذا كانت هناك أي علاقة بين التشريع العبري والبابلي (توضح بقية الكتيب أن المؤلف لا يُساوره شك في هذه المسألة) فثمة نتيجة واحدة محتملة، وهي أن التشريع العبري اقتبس من التشريع البابلي الأقدم[٣١]".

اتصف قانون حمورابي بأنه استبدل مبدأ التعويض الذي كان يشكل أساس نظام العقوبات السومري بالقصاص الجسدي[٣٢]. وفي السطور التالية نماذج من مواده:

م٣- م٤: شهادة الزور- إذا تقدم رجل في دعوى قضائية بشهادة كاذبة دون إثباتها، فإن كانت الدعوى عقوبتها الموت يُعدم الرجل، وإذا أدلى بشهادة (كاذبة) بشأن حبوب أو فضة، فعليه أن يتحمل العقوبة (التي تُفرض في تلك القضية).

م٦- م٢٥: السرقات- تعتبر السرقة في بابل جرماً خطيراً، وينفذ حكم الموت بكل من يسرق خزينة المعبد أو القصر أو إخفاء المسروقات. وإذا ما ثقب أحد جدار منزل يقتل أمام الثغرة التي أحدثها ويدفن عندها. وإذا سرق أحد وأُمسك به في الجرم المشهود فإنه يقتل، وإذا هرب فللشخص المسروق أن يطلب من الإله كل ما فقده وعلى المدينة وزعيمها أن يدفعا له كل ما يدعي به.. وإذا شبت النار في بيت شخص وهرع آخر لإطفاء النار ثم مدَّ يده لشيء من أموال صاحب البيت المشتعل فإن السارق يلقى في النار. وإذا أخفى رجل عبداً هارباً (أو أمة هاربة) يعود إلى القصر أو لأحد الرعايا في بيت ولم يخرجه (أو يخرجها) لدى سماع بلاغ المنادي، فإن صاحب الدار يُعدم.

م٤٨: تأجيل دفع الدين عند الشدة- إذا كان رجل مديناً بدين يقتضي فائدة، وأتلف (أدد)-إله الجو- حقله أو جرف الطوفان غلته أو أن الحبوب لم تنتج في ذلك الحقل لنقص الماء، فإنه في تلك السنة لا يعيد أي شيء من الحبوب لدائنه، ويبلل رقيمه (يلغى عقده)، ولا يدفع فائدة لتلك السنة.

م١٢٨: الزوجة الشرعية تعتمد على عقد- إذا اتخذ رجل زوجة ولم يسجل لها عقداً فإن تلك المرأة ليست زوجة (شرعية).

م١٢٩، م١٣٢: الزنا- إذا ضُبطت زوجة رجل مضطجعة مع رجل آخر، فعليهم أن يربطوهما ويلقوهما في الماء. وإذا أبقى الزوج على حياة زوجته للملك أن يبقي على حياة خادمه. وإذا وجه إصبع (الاتهام) لزوجة رجل بسبب رجل آخر دون أن تُضبط مضطجعة مع الرجل الآخر فعليها من أجل زوجها (لإثبات براءتها) أن تلقي بنفسها في النهر المقدس. (يشير ذلك إلى الانتحار القسري لإثبات براءة المرأة لنفسها).

م١٤١: معاملة المرأة المتهتكة- إذا أزمعت زوجة رجل، تعيش في بيت زوجها، الخروج (من البيت) وإنفاق أشيائهما الثمينة والإسراف في الإنفاق والحط من كرامة

زوجها فعليهم أن يثبتوا ذلك ضدها، وإذا قال زوجها إنه سيطلقها فله أن يطلقها ولا يعطيها شيئاً من مال طلاقها، وإذا لم يقل زوجها إنه سيطلقها فيمكنه أن يتزوج ثانية، وتبقى الزوجة الأولى أمة في بيت زوجها.

م١٤٦: التسري- إذا تزوج رجل من كاهنة (ناديتو) وأهدت زوجها أمة وولدت له (الأمة) أطفالاً فإن الأمة تضع نفسها بعد مدة على قدم المساواة مع سيدتها. وبما أنها ولدت أطفالاً فليس لسيدتها أن تبيعها بالفضة ولكنها يمكن أن تسمها بوسم العبودية وتسجلها في عداد الإماء. وإذا لم تلد أطفالاً فيمكن لسيدتها أن تبيعها بالفضة.

م١٥٣: خيانة الزوجة- إذا تسببت زوجة بقتل زوجها من أجل رجل آخر فعليهم أن يعدموا تلك المرأة على الوتد.

م١٥٧: غشيان المحارم- إذا ضاجع رجل أمه فعليهم أن يحرقوا الاثنين.

م١٨٨، م١٨٩: التبني وتعليم المهنة- إذا أخذ حرفي ولداً ليربيه (ليتبناه) وعلّمه مهارته اليدوية (حرفته) فلا يُطالب أحد باسترداد الولد. وإذا لم يعلمه حرفته اليدوية فإن لذلك الولد أن يعود إلى بيت أبيه.

م١٩٥-٢١٤: قاعدة العين بالعين- إذا ضرب ولد أباه فإنهم يقطعون يده (م١٩٥). وإذا فقأ رجل عين رجل آخر من أبناء طبقته، تُقلع عينه. وإذا كسر عظمه، يُكسر عظم الفاعل. وتكون العقوبة أقل عند حصول هذا الجرم مع شخص من طبقة أدنى (تعويض مالي) وأشد عندما يكون المعتدى عليه من طبقة أعلى منه.

أما تطبيق مبدأ (العين بالعين) في مجال القتل بخاصة، فإن الأخذ بالثأر من القاتل (القصاص) كان واجباً مقدساً تتطلبه العدالة الإلهية في نظر القوم الذين ينتمون للأصول الجزرية. والانتقام هو واجب تجاه الميت، ليس فقط بسبب حرمان الضحية من الحياة، بل وأيضاً لأن روح الميت لا تعرف الراحة عند عدم الأخذ بالثأر[٣٣]. حيث تهيم روح المقتول على هيئة طائر صائحاً "اسقوني! اسقوني!"(ف١٠/١)[٣٤]. وهكذا يتبين أن مبدأ (العين بالعين) في شريعة حمورابي وشريعة التوراة والشريعة الإسلامية تعود إلى عادة الثأر الدينية- القبلية لدى عرب ما قبل الإسلام، ومع ذلك فهي ممارسة لا زالت قائمة في العديد من البلدان العربية والإسلامية!!

م٢١٥- م٢١٨،م٢٢٩- ٢٣٠: الأجور والعقوبات المتعلقة بِأصحاب المهن- إذا أجرى طبيب عملية جراحية وأنقذ حياة المريض، يتسلم عشرة شيقلات من الفضة وشيقلين في حالة العبد المريض. وإذا أدت العملية لوفاة الرجل فإنهم يقطعون يد الطبيب. ويُعدم البنَّاء إذا انهار المنزل الذي بناه وقتل صاحبه. وإذا أدى الحادث إلى موت ابن صاحب الدار عندئذ يُعدم ابن ذلك البناء، ولكن إذا تسبب الحادث بمقتل عبد المالك فعلى المعماري تقديم عبد مقابله لمالك البيت.

رغم أن مواد شريعة حمورابي تبدو الآن صارمة جداً إلا أنها تقترب في تفصيلات عديدة، وبشكل يبعث على الدهشة، مع تصورنا الحديث للعدل. فالقوانين المتعلقة بشؤون العائلة والملكية بخاصة، تمثل جهداً لحماية النساء والأطفال من المعاملة التحكمية والبؤس والإهمال. وإذا كانت العقوبات قاسية هنا أيضاً فإن تطبيقها كان يخفض بتقديم التماسات العفو والظروف المخففة. كان زنا الزوجة يُعاقب بالموت، ولكن كان بوسع الزوج أن يغفر لزوجته والملك لعاشقها، فينقذون بدلا من أن يجري "شدهما مع بعضهما وقذفهما في النهر"- م١٢٩. ولا يُعاقب القانون زوجة سجين تدخل- أثناء غياب زوجها- بيت رجل آخر إذا ما اضطرت إلى ذلك بسبب "عدم وجود شيء تأكله في بيتها"- م١٣٤. وكان بوسع الرجل أن يطلق زوجته دون تعويض إن أساءت التصرف- م١١٤، أما إذا طلقها لكونها لم تلد له طفلاً فإن "عليه إعطاءها مالاً يساوي قيمة خطوبتها إضافة للنوطة (البائنة) التي جلبتها من بيت أبيها"- م١٣٨. ويمكنه الزواج بأخرى في حالة الزوجة المريضة، غير أن عليه الاحتفاظ بزوجته الأُولى في بيته والعناية بها ما دامت حية تُرزق- م١٤٨. وعند موت الرجل، تُقسم تركته بين أبنائه، غير أن من الجائز لأرملته الانتفاع بها- م١٧١، كما ولها الحق في التصرف بحرية بِأي "حقل، مزرعة، بيت، ملك مشغول" كان زوجها قد وهبها لأولادها- م١٦٢. وهناك قوانين مشابهة تستهدف حماية أولاد "الزوجة الأولى" من العبدة (الأمة) أو الخليلة، وتأمين الأطفال ضد معاملة لا يستحقونها- م١٦٨[٣٥].

وفي الشريعة مسألة أُخرى وهي تواتر ذكر لفظة (الكوم) في المواد ٢٢-٤١. ويبدو أنه قد وجد آنذاك عدد من الأشخاص ذوي المهن المحددة كرجل الجندرمة (ريدوم) والبحار (بائيروم) أو الـ (ناش بِلْتُمْ)- ويعني حرفياً (حامل الجزية) ممن كانوا يتسلمون

من الملك الأرض والحبوب والماشية مقابل تقديمهم خدمات، أكثرها وضوحاً هي تلك التي تتعلق بالمجال العسكري (ف٥)، و يمكن تحويلها لشخص آخر في حالة عدم إيفاء الأول بالتزاماته تجاه الملك أو إذا هرب من الخدمة. ويبدو واضحاً أن هبة الألكوم إجراء ربما ابتدعه حمورابي نفسه لربط عدد من رعاياه بالأرض وخلق وثاق قوي معهم يمكن مقارنته بالوثاق الذي كان يربط بين السيد وأقنانه في أوربا القرون الوسطى.[٣٦]

وتجدر الإشارة أن سلطة الملك المطلقة المستندة للعقيدة الدينية باعتباره ممثل الإله لم تكن تسمح بأي شكل من المعارضة، حيث قننت شريعة حمورابي هذه الظاهرة ، إذ نصَّت المادة ١٩ على إعدام صاحبة الحانة عندما لا تخبر باجتماع المتآمرين على الدولة في حانتها أو إلقاء القبض عليهم[٣٧].

تلك هي بإيجاز الخصائص الأساسية لشريعة حمورابي المشهورة. وتبقى قطعة فريدة بطولها وعرضها ورشاقتها ودقة أسلوبها والضوء الساطع الذي تلقيه على مجتمع تلك الحقبة المتطورة جدا. ولقد توجت هذه الوثيقة، التي دونت في سني حكمه الأخيرة، عهد هذا العاهل الكبير المليء بالمنجزات. وحينما يستذكر الملك حمورابي نجاحاته العديدة، يحق له أن يعلن بفخر واعتزاز.. "استأصلتُ شأفة العدو شمالاً وجنوباً، ووضعت حداً للحرب، وطورت ازدهار البلد ولم أدع أحداً يرهبهم. فنادتني الآلهة، فأصبحت الراعي المحسن الذي صولجانه الحق، ونشرت ظلي الوارف على مدينتي، التي نعمت بحمايتي، وحكمت بسلام، وحميتهم بقوتي[٣٨]".

هوامش الفصل الثالث عشر

(١) الهاشمي ، رضا جواد ، "القانون والأحوال الشخصية" ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٦٤ .

(٢) نفسه ، ص٦٧- ٦٨ . . . سليمان ، عامر ، "جوانب من حضارة . . ." ، العراق في التاريخ ، ص٢٠٦-٢٠٧ .

(٣) شمّار ، جورج بوييه ، ص٢٤٧- ٢٤٨ .

(٤) رو ، جورج ، ص٢٧٨ ، الماجدي ، خزعل ، متون سومر ، ص١٩ . . . الهاشمي ، رضا جواد ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٦٩ .

(٥) ساكز ، هاري ، ص١٧٩ . . Hawkes, Jacquetta, p.173..

(٦) سليمان ، عامر ، العراق في . . . ، ص١٤٥- ١٤٦ . . . باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٣٢٢ .

(٧) الهاشمي ، رضا جواد ، ص٧٢ . . . باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٣٢١ .

(٨) رو ، جورج ، ص٢٧٥- ٢٧٦ .

(٩) الهاشمي ، رضا جواد ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٧٢ .

(١٠) رو ، جورج ، ص١٩١ .

(١١) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٣٢٢ .

(١٢) شمَار ،جورج بوبيه ،ص ٢٧١ .. Hawkes, Jacquetta, p.170.

(١٣) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٣٢١ .

(١٤) نفسه ، ص٣٢١– ٣٢٢ . . . ، الماجدي ، خزعل ، متون سومر ، ص٢٨٦ .

(١٥) رو ، جورج ، ص١٩١ .

(١٦) نفسه ، ص٢٢٥ .

(١٧) سليمان ، عامر ، "جوانب من حضارة . . ." ، العراق في التاريخ ، ص٢٠٢ . . . ، الهاشمي ، رضا جواد ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٧٢– ٧٣ .

(١٨) سليمان ، عامر ، "جوانب من حضارة . . ." ، العراق في التاريخ . . . ، ص١٨٠– ١٨١ . . . ، الهاشمي ، رضا جواد ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٧٤ .

(١٩) شمَار ، جورج بوبيه ، ص٢٧٢ .

(٢٠) ساكز ، هاري و .ف ، ص١٦٩– ١٧٠ . . . ، سليمان ، عامر ، "جوانب من حضارة . . ." ، العراق في التاريخ ، ص٢٠٣– ٢٠٤ .

(٢١) الهاشمي ، رضا جواد ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٧٦ . . . ، سليمان ، عامر ، العراق في . . . ، ص١٨٢– ١٨٣ . . . ، وقارن : Robinson,Jr.,p.52.

(٢٢) ساكز ، هاري ، ص١٧٣ .

(٢٣) نفسه ، ص١٧٣– ١٧٥ . . . ، سليمان ،عامر ، "جوانب من حضارة . . ." ، العراق في التاريخ ، ص١٣١ .

(٢٤) ساكز ، هاري ، ص١٧٥– ١٧٧ .

(٢٥) نفسه ، ص١٧٥– ١٧٦ .

(٢٦) نفسه ، ص١٥٧ . . . ، الهاشمي ، رضا جواد ، حضارة العراق ، ص٧٧ .

(٢٧) "فلافيوس انيشيوش جوستنيان العظيم" : امبراطور بيزنطي (٤٨٣– ٥٦٥ م) قنّن محلفوه شريعة باسمه ، يسبقه قانون حمورابي بنحو الف وخمسمائة سنة .

(٢٨) الاحمد ، سامي سعيد ، العراق في التاريخ ، ص٩٥– ٩٦ . . . ، باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٤٣٩ . . . ، الهاشمي ، رضاجواد ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٨١ .

(٢٩) ساكز ، هاري ، ص١٥٧ . . . ، الهاشمي ، رضا جواد ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٧٨ .

(٣٠) الهاشمي ، رضا جواد ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٨٠ . . وقارن : الاحمد ، سامي سعيد ، العراق في التاريخ ، ص٩٥– ٩٦ . . . ، ساكز ، هاري ، ص١٥٩ .

(٣١) ساكز ، هاري ، ص١٥٨ .

(٣٢) رو ، جورج ، ص٢٧٨ .

(٣٣) شمَار ، جورج بوبيه ، ص٣٣٦ .

(٣٤) حنون ، نائل ، ص١١٢ ، الهامش١٨ .

(٣٥) رو ، جورج ، ص٢٧٩– ٢٨٠ .

(٣٦) نفسه ، ص٢٨٠ .

(٣٧) الاحمد ، سامي سعيد ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٢٤ .

(٣٨) نفسه ، ص٢٨٠– ٢٨١ .

الفصل الرابع عشر
الحيـاة الاجتماعيـة

١- الطبقات والفئات والشرائح الاجتماعية

قام مجتمع وادي الرافدين أساساً على طبقتين رئيستين لا مجال للمقارنة بينهما هما الأحرار والعبيد. ضمَّت طبقة الأحرار فئات وشرائح عديدة منها الحاكمة والمتنفذة، ومنها المحكومة التي ضمت عامة الناس. وتقف على رأس الفئة الحاكمة الأُسرة المالكة التي اكتسبت وفق ملحمة الخليقة مركزاً خاصاً باعتبار الملك نائب الإِله في أرضه يتمتع بالتفويض الإِلهي، وبذلك أصبح مصدر السلطات والامتيازات. تلي الأُسرة المالكة حاشية الملك من النبلاء وكبار رجال الدولة من مدنيين وعسكريين وكبار الكهنة، أي الفئة الأرستقراطية. وكانت لهذه الفئة جميع الحقوق والامتيازات وفق القوانين والأعراف والتقاليد السائدة[١].

وكانت الفئة الغنية معروفة باسم (أديلم): الرجل أو المواطن الكامل[٢]. وضم بالإضافة للفئات الاجتماعية العليا كذلك الفئات الوسطى (البرجوازية) شاملة أصحاب المهن (الحرف) ممن يعملون لحسابهم كأصحاب المصارف والتجار والأطباء والكتبة والصناع. وكان هؤلاء منظمين في جمعيات أو نقابات على غرار نقابات القرون الوسطى في أوربا[٣]. وزاولوا نشاطاتهم العملية في أماكن خاصة بهم في المدينة ودربوا الصناع ونقلوا مهاراتهم لأبنائهم. وفي عهد الإمبراطورية الآشورية كان الملك يعاملهم باحترام كبير "ولم يكن (شعب آشور) الذي انحاز إلى جانب أسرحدون في صراعه على امتلاك التاج (والمدينة وأهلها) سوى هؤلاء (البرجوازيين) الآشوريين[٤]".

من الفئات الأُخرى تلك المعروفة باسم (مشكينو) أو (مسكينو)- مواطن الدرجة الثانية- وتقابلها بالعربية كلمة (مسكين). وهم الفقراء ويقعون في السلم الأخير لعامة

الناس الأحرار ممن كانت تهددهم حياة العبودية بسبب صعوباتهم المعيشية. ويظهر أن هذه الفئة اختفت من الحياة الاجتماعية منذ العهد البابلي القديم[٥]. وكانت أدنى الفئات الاجتماعية تُسمى (هويش) وهي غير معروفة بشكل واضح وتكونت ظاهرياً من العمال غير الماهرين في الزراعة والجنود العاديين والعبيد (الأردة) الذين كانوا يجندون من بين أسرى الحرب وبأعداد كبيرة مستمرة ومتزايدة[٦].

شكل أعضاء المعبد من الرجال والنساء مجتمعاً خاصاً قائماً بذاته، أو دولة داخل دولة، له قوانينه وحقوقه وواجباته وتقاليده وموارده الناجمة عن عوائد حقوله وورشه وأعماله التجارية والودائع، علاوة على عوائد المحراب: الهدايا والتبرعات والقرابين. وكان يتمتع بدور مؤثر في تقرير شؤون الدولة والحياة الخاصة لكل الناس. ورغم تجريده تدريجياً من السلطة الزمنية لصالح القصر منذ عهد حمورابي، فقد ظلّ المعبد يحتل مركزاً اقتصادياً- اجتماعياً محورياً في فكر وحياة المجتمع[٧].

اما العبد (الرقيق) فلم يُعترف بشخصيته الإنسانية، بل أُعتبر مجرد مال منقول وعومل بصورة متدنية اجتماعياً وقانونياً[٨]. وكان يُشار اليه بأنه مجرد (وحدة رقيق) ومثَّل قيمة نقدية لمالكه[٩]. وكان العبد يُميز عن بقية أفراد المجتمع بطريقة قص شعره أو وسمه كالحيوان رمزاً للملكية. ويتم ختمه عادة بقطعة حديد محميَّة كالجمر على جلده مباشرة. إلا أن شريعة حمورابي وضعت عقوبات شديدة بشأن قطع أو حرق أو وسم العبد وأصبح هذا التصرف يعرض مرتكبه لعقوبة قطع اليد أو الموت[١٠]. وكان الكثير منهم يعمل في الحرف والصناعات لتنمية موارد أسيادهم[١١].

تشمل طبقة الأرقاء العبيد والإماء. وكان المجتمع يحصل على أفراد هذه الطبقة من مصدرين: الأول خارجي، بواسطة الحروب (أسرى) ممن يباعون في الأسواق. وكذلك التجارة الخارجية، خاصة الإماء.. الثاني داخلي يضم الأحرار الفقراء ممن يؤولون للعبودية بسبب فقرهم واضطرارهم بيع أولادهم و/ أو نسائهم بل وحتى أنفسهم لقاء تسديد ديونهم. كما يشمل الأطفال (غير الشرعيين) الذين يرمون على أبواب المعابد وفي الطرقات وأولاد الفقراء الذين لا يتمكنون من تربيتهم، إضافة إلى إمكانية استعباد الحر عند ارتكابه جرائم معينة حدد القانون عقوبتها بالعبودية مثل عقوق الوالدين وإنكار الزوجة لزوجها وتخلي الولد المتبنى عن العائلة التي تبنته[١٢].

وكان أرقاء المعبد يؤلفون فئة خاصة يتكون معظمها من أسرى الحرب. عُرف هؤلاء الأرقاء باسم (شركو) SHIRKO وكانوا يخضعون لأوامر موظف تعينه سلطات المعبد لضمان استخدامهم في أفضل وجه لمصلحة المعبد. وتميزوا بوضع قانوني أفظع من الأرقاء الاعتياديين لأنه لم يكن أمامهم أمل للتحرر من العبودية. وحتى في حالة الزواج من امرأة حرة يصبح الأولاد ملكاً للآلهة بصفة ذاتية. ومع ذلك لم تشمل هذه الفئة على الأرقاء فحسب، وانما البابليين الأحرار أيضاً ممن نُذروا لخدمة المعبد- الإله.[١٣]

ورغم الحياة القاسية للعبد وخضوعه للبيع والشراء فإن الوثائق القانونية تكشف أن قسماً منهم كان بوسعه تعلم حرفة خاصة وتكون له ملكيته بل وعبيده واقتراض الحبوب والأموال والشهادة في المحاكم، وبين الحين والحين كان بإمكان القليل منهم الظفر بوظائف إدارية شبه راقية والزواج من امرأة حرة، خاصة عبيد القصر[١٤].

هناك عامل واحد في الوضع القانوني للرقيق من الأحرار الفقراء الذين فقدوا حريتهم بسبب عجزهم عن تسديد ديونهم. فاولاً بالنسبة للزوجة والأولاد الذين يودعون كرهينة لدى الدائن، لا يمكن إبقاؤهم لأكثر من أربع سنوات، نظرياً على الأقل.. وثانياً أن الأولاد الناتجين عن زواج عبد بامرأة حرة يكونون أحراراً، في حين أن الأمة المحظية وأولادها يستردون حريتهم بعد وفاة سيدها. وأخيراً فسح قانون حمورابي الطريق لتحرير البابلي الذي تحول إلى عبد بسبب أسره ودفع فديته عن طريق بيع إقطاعيته التي منحها إياه الملك أو بتمويل من المعبد. وفيما عدا ذلك فإن قدرة العبد أن يتملك وأن يوفر النقود، تمنحه فرصة استرداد حريته. ولكن بالمقارنة، كانت فرص التحول للرق أكبر من فرص التحرر منه، وتحققت الزيادة المطردة في أعدادهم بالقانون المتعلق بالولادة أو الحملات العسكرية أو تحول الحر إلى عبد بسبب ديونه[١٥].

تستلزم واجبات العبد عملاً يدوياً يعتمد إلى حد ما على حرفة أو مهنة صاحبه. أما الأمة الشابة فلعلّها لا تكون وصيفة فقط لربة البيت بل محظية لرب البيت أو أحد أبنائه المراهقين، ويصبح الأطفال الذين تلدهم عبيداً ما لم يقبلهم رب العائلة رسمياً أولاداً له، لا سيما إذا كانت زوجته لا تنجب أطفالاً[١٦].

لم يلعب العبيد دوراً مهماً في اقتصاد سومر خلال عصر فجر السلالات، بينما أخذت أهميتهم في التزايد في عصر الإمبراطوريات واتساع الحروب إلى أن بلغت

الذروة بحيث أصبح العبيد يشكلون أعداداً كبيرة ومصدر إثراء الإمبراطورية البابلية والإمبراطورية الآشورية(١٧).

والخلاصة، جسَّدت منظمة القصر ومنظمة المعبد مركز الثقل السياسي والاقتصادي والاجتماعي- الديني لمجتمع وادي الرافدين طوال مراحله الحضارية. فالملك نائب الإله في حكمه للأرض، والكاهن- العالم والمفسر لإرادة الإله والوسيط بينه وبين الناس، شكلا معا مصدر السلطة والامتيازات (الحقوق).

وفي هذا المجتمع الإلهي- الديني المقسم بين الحقوق والامتيازات (القصر والمعبد)- الممثل والوسيط الإلهي، وبين الواجبات والالتزامات (عامة الناس)- المخلوقين أصلاً لخدمة الآلهة، اعتراف أكيد منذ البداية، رغم تباين المسميات، بوجود طبقتين لا مجال للمقارنة بينهما، إحداهما تمتلك السلطة والثروة (الحقوق والامتيازات) والأخرى تتحمل التبعات (الواجبات والالتزامات). وكلما اقتربت العلاقة من عامة الناس زادت التبعات إلى حدود السخرة والعبودية.

وعندما نقف عند التطورات الاجتماعية المتصاعدة مع بدء قيام الدولة الموحدة لحضارة وادي الرافدين التي برزت في اختفاء فئة المجموعة الأكثر فقراً من عامة الناس (المشكينو) في ظروف كانت تدفعهم نحو العبودية، مقابل تزايد عدد الأرقاء في المجتمع نتيجة تصاعد الحروب وتحول الفئات الدنيا من عامة الناس للعبودية بسبب فقرهم، عندئذ قد يكون مفهوماً حالة هذا المجتمع الذي أخذ يتجه منذ بداية حضارته نحو التمركز والانشطار الاجتماعي باتجاه بروز طبقتين: إحداهما الأقرب للآلهة وعلى رأسها القصر والمعبد الموكلان بتنفيذ طلبات ورغبات الآلهة (الأسياد).. وثانيتهما من أكثرية الناس الذين خُلِقوا أصلاً عبيداً للآلهة ولوكلائهم ووسطائهم.

٢- الأُسرة: الاحوال الشخصية

يرتبط نظام الأُسرة، باعتبارها الخلية الاجتماعية المحورية، بالنظام الاجتماعي السياسي. وفي مجتمع وادي الرافدين كان النظام السائد هو نظام الأُسرة الأبوية، كما هو حال نظامه السياسي. وتميزت العائلة منذ العصر السومري بقوة روابطها "الصداقة تدوم يوماً والقرابة تدوم للأبد". وكانت العائلة منظمة جداً، وتتشابه العائلة البابلية-

إلى حدود واضحة- مع العائلة العراقية في الوقت الحاضر. فالأب رأس الأسرةُ وبيده جميع السلطات والصلاحيات الخاصة بإدارة وإعالة أُسرته، شأنه في ذلك شأن الملك في إدارة مملكته. وكان احترام الأب واجباً مقدساً على جميع أفراد العائلة. وتصل عقوبة الابن العاق إلى العبودية، كما هو مثبت في قانون حمورابي. ولم تكن هناك حدود لحقوق رب الأُسرة على أفراد عائلته، فله رهن أولاده لدى دائنه ضماناً لتسديد دينه أو بيع أولاده و/ أو زوجته. كما عرفت العائلة البابلية أصول الرضاعة ودفعت عائلات بابلية بأطفالها إلى مرضعات لتربيتهم فترة الرضاعة. والزمت إحدى مواد قانون حمورابي المرضعة وجوب إخبار والدي الطفل الذي تروم إرضاعه بحالات وفيات الأطفال الذين تولّت إرضاعهم، وإلا تعرضت لعقوبات صارمة تصل لقطع الحلمتين أو الثديين.

واشتهرت العائلة في حضارة ميزوبوتاميا برغبتها في الإكثار من الأطفال "الإكثار من الزوجات أمر يخص المرء نفسه، ولكن الإكثار من الأولاد أمر يخص الإله(١٨)". أي يُعتبر فضيلة وواجباً دينياً مقدساً. يؤكد ذلك أيضاً أسطورة موت إنكيدو (ف١٦/ ٥) وكيف أن أرواح من تركوا أبناء كثيرين تتمتع بمعاملة تفضيلية في العالم الآخر، وهو أمر انتقل للديانات التالية بدءاً بالتوراة. وكانت أولوية التفضيل في الإنجاب للذكور، والرغبة عند الأب جامحة أن يكون الطفل الأول ذكراً- الابن البكر الوريث الشرعي وحامل اسم وشجرة الأب والعائلة. وكان هذا (ألامل العظيم) يرنو إليه بشوق لا يوصف كل من الأب الملك والأب الفلاح على السواء. وكان حمل الأب لابنه بعد الولادة مباشرة دليلاً على اعترافه بشرعيته(١٩).

خضعت الأُم (الزوجة) لنفس القواعد بالعلاقة مع زوجها- صاحب السلطة المطلقة في أُسرته. بينما جاءت في المرتبة الثانية بالعلاقة مع أفراد الأسرة ومسؤوليتها المنزلية وإدارتها لشؤون بيتها وتربية الأطفال وتحضير الطعام لإفراد الأُسرة والاشراف على كل صغيرة وكبيرة في منزلها. أما المحظية التي تُختار أصلاً من بين الإماء فينبغي لها أن تنهض بواجبات وظيفتها بإحترام خالص للزوجة الشرعية وأن تحمل كرسيها عند ذهابها للمعبد، وتساعدها في زينتها. وهكذا الأمر بالنسبة للزوجة الثانية إذا ما تحقق ذلك. فالزوجة الأولى كانت تتمتع بمركز اجتماعي أعلى، وتسمى (زوجة رجل). وعاقبت القوانين من يحاول الإساءة لسمعة (الزوجة الأُولى) بعقوبات صارمة قد تصل للموت

إن لم يثبت التهمة عليها، كما عاقبت الزوجات الأخريات إن حاولن الانتقاص من مركز الزوجة الأُولى أو مساواة أنفسهن بها[٢٠].

رغم أن الزواج الأحادي كان الشكل السائد في بلاد الرافدين ولكنْ حقٌ للرجل اتخاذ محظية من الإماء، وزوجة شرعية ثانية عند مرض زوجته أو عدم إنجابها للأولاد. وهذا يعني احتمال زواج الرجل عملياً بأكثر من زوجة مع سريان قاعدة أُحادية الزواج. وفي مثل هذه الحالات تبقى الزوجة الأُولى محافظة على مركزها باعتبارها سيدة البيت. ويظهر حصول تحول قانوني- اجتماعي فيما يخص الزواج الأحادي نحو الزواج الثنائي والمحظية منذ عهد قانون لبت- عشتار[٢١].

لم يُعترف بالزواج إلا إذا كان بموجب عقد مكتوب حسبما هو وارد في قانون حمورابي الذي نصَّ أيضاً: "وإذا تزوج رجل بامرأة دون أن يفرض عليها شروطه فإنها لا تصبح زوجته[٢٢]". وكانت في مقدمة مسؤوليات المرأة والتي تحاسب عليها بقسوة هي الحفاظ على عفتها (شرفها) وملازمتها لبيتها وعدم الإساءة لسمعتها التي هي سمعة زوجها، وكانت العقوبة التي تواجهها قاسية تصل للموت (الرمي في النهر) عند القبض عليها متلبسة بالاضطجاع مع رجل آخر؛ أو تتحول إلى أمة مملوكة في بيت زوجها إذا عفا عنها الأخير. كما أشارت القوانين الآشورية إلى حق الزوج ضرب زوجته وسحب شعرها في حالات معينة. أما إذا تسببت في قتل زوجها بسبب عاشقها فتعدم على وتد. كذلك كانت عقوبة الزوجة قاسية (الموت) عند سرقتها من بيت زوجها، وتحاسب على كل علاقة تربطها بِأي رجل خارج بيتها. بينما لم تكن الأعراف والتقاليد تحد من تصرفات الزوج كثيراً بل كان حراً في كثير من تصرفاته شأنه في ذلك شأن الزوج في الأُسر العراقية المعاصرة بعامة[٢٣].

كما أن معاملة الزوج للمرأة في حضارة وادي الرافدين لم تكن تختلف في أسلوبها العام عما هو قائم في العراق المعاصر حالياً، فالأُسرة الأبوية منحت الزوج/ الأب السلطة المطلقة على أفراد أُسرته، ويظهر أن ضرب الزوج للمرأة كان عادة شائعة في حضارة وادي الرافدين، فالقانون الآشوري (م٥٩- ف١٣) منح الرجل الحق في أن يجلد زوجته وينتزع شعرها ويشق أذنيها ويؤذيهما.. كما كانت مسألة ضرب المرأة الحامل وإجهاضها عادة بابلية شائعة، وهناك حالات ماتت فيها نساء من كافة

الطبقات الاجتماعية بسبب الضرب.. وربما كان "ضرب الحوامل تسلية بابلية شائعة..." (ساكز، هاري، ص١٦٧، وأيضاً Weber,P.94).

يسبق عقد الزواج مراحل المفاوضات والخطبة وتقديم الهدايا. أما ابرام العقد فيتم بين الرجل (زوج المستقبل) ووالد (ولي أمر) الفتاة (زوجة المستقبل). ويعني هذا الموقف سلب المرأة حقها في ابداء الرأي قبولاً أو رفضاً. وجرت العادة أن يقتطع لها أبوها (ولي أمرها) جزءاً من ثروته (تركته) ويسمى (الشيرقتوم) وتسجل في عقد مدون وتمنح لها عند زواجها. وهذه الهدية هي الأموال الوحيدة التي تنالها الفتاة من أبيها وتعتبر بمثابة حصتها من الإرث، وتشكل ملكاً خالصاً لها ولأولادها فقط. وكان (الشيرقتوم) يمثل الحق المالي الأول للفتاة عند زواجها، أما الحق المالي الثاني فيتمثل في هدية زواجها وتعرف بـ (الترخاتم). ولما كان عقد الزواج يتم بين زوج المستقبل وولي أمر الفتاة، فإن صياغة هذه العقود توحي أن ولي الأمر كان يتسلم الهدية بنفسه. أما (البيبلوم) فهي هدية مالية تقدم برفقة هدية الزواج إلى والد الفتاة، وربما كانت تلك الهدية لمواجهة مصروفات الزواج من قبل أهل العروس؛ من خطوبة وزفاف[٢٤].

وقد يتزوج الرجل كاهنة. وهنَّ على أصناف (ف١٠/٣) ومنها: (ناديتم) و(شوكيتم)، وكان المركز الكهنوتي والاقتصادي للأولى أكبر من الثانية، وتنتمي للطبقة الارستقراطية الحاكمة. وعند الزواج منها (ناديتم) تنقل الزوجة معها مركزها الكهنوتي الرفيع لبيت زوجها وتكتسب مركزاً اجتماعيا عظيماً. ونظراً لأن القوانين والتقاليد الدينية لم تكن تسمح لها بإنجاب الأطفال، لذلك كان للزوج أن يتخذ إحدى إمائه سرية للإنجاب أو يتزوج امرأة ثانية أو تقدم الكاهنة بنفسها إحدى إمائها أو أخواتها لزوجها كي تنجب له أطفالاً. بينما حقٌّ لكاهنة الـ (شوكيتم) الإنجاب، رغم أنها لم تتمتع بمركز كاهنة (ناديتم)، بل كانت أحياناً بمركز الأمة التي تنجب الأطفال لسيدها، خاصة عندما تكون الزوجة الثانية[٢٥].

كانت اليد العليا في الطلاق للرجل بعد دفعه مبلغاً من المال لإعالتها (البائنة). وفيما عدا استثناء واحداً يشم منه رائحة حق المرأة طلب الطلاق من زوجها في حالة تهتكه وعدم أداء واجباته العائلية، فإن طلب الطلاق يرد دائماً على لسان الرجل. ومن المصطلحات المعبرة عن ذلك "ترك" و"انتِ لست زوجتي" وأن "يقطع حواشي ثوبها". أما

إذا تركت الزوجة زوجها أو كرهته أو قالت له "لن تأخذني" أو "أنت لست زوجي" أو امتنعت عنه، اعتبر تصرفها تمرداً على حقوق الزوج وإخلالاً بشروط العقد وتقع الزوجة تحت طائلة القانون والعقوبات الصارمة التي كانت تصل غالباً للموت.

وحسب قانون أور- نمو كان على الرجل أن يدفع لزوجته الأُولى التي يروم تطليقها مبلغاً من المال، وإذا كانت أرملة سابقة دفع لها نصف المبلغ المحدد. وفي قانون لبت-عشتار سمح للزوج تطليق زوجته بسبب عاشقته على أن يدفع لها ما تستحق من أموال، وفي نفس الوقت منع الزوج بعد ذلك الزواج من عشيقته. وفي قانون اشنونا نصٌ على طرد الزوج في حالة تطليق زوجته التي أنجبت له أولاداً وخسرانه جميع ما يملكه للزوجة والأولاد. وفي قانون حمورابي للرجل أن يطلق زوجته إن كانت من صنف الكاهنات بشرط إعطائها بائنتها التي جلبتها من بيت أبيها وهدية زواجها أو مبلغاً من المال يقابل ذلك، إضافة إلى حصة معينة من أملاكه غير المنقولة، وسمحت للزوجة أن تتزوج ثانية بعد أن يكبر أولادها. كما سمح قانون حمورابي للزوج بتطليق زوجته العاقر على أن يدفع لها بائنتها ومبلغ الطلاق. كما أعطى الحق للزوج تطليق زوجته أو اعتبارها أمة في بيته ويتزوج ثانية إن هي أساءت السلوك.. بينما لم يسمح له بتطليق زوجته إن أُصيبت بمرض عضال، وبعد أن أنجبت عددا من الأولاد، أما في حالة عدم إنجابها فيحق له تطليقها متذرعاً بالعقم[٢٦].

وفيما يخص الحدود القانونية للمحرمات عند الزواج والطلاق (الحلال والحرام في العلاقات الجنسية)، وردت حالات منها:حق الرجل أن يخطب امرأة لنفسه ويتزوجها بينما كان محرّما الاتصال الجنسي بها قبل استكمال إجراءات الزواج والزفاف. وهناك حالات خطيرة من المحرمات عقوبتها الموت في مقدمتها: اتصال الزوجة برجل آخر،أو اغتصابها، الاتصال بالابنة وزوجة الابن، اتصال الابن بأمه[٢٧].

من العادات والتقاليد التي شاعت في مجتمع وادي الرافدين منذ العصور الآشورية الوسيطة، على الأقل، عادة تحجب الزوجات الأحرار، حيث نصت القوانين الآشورية على أهمية الحجاب واعتباره العلامة المميزة للمرأة الحرة. في حين عاقبت هذه القوانين الإِماء والجواري والعاهرات عند التحجب[٢٨].

كانت التقاليد الاجتماعية والشرائع القانونية والدينية تسمح بممارسة التبني وفق عقد مدون على أن يقوم المتبني بالتزاماته تجاه من يتبناهم وفي سياق علاقة مماثلة بين الأب والابن. ويمكن للمتبنى الحصول على حق الإرث مثل بقية الأولاد "شريطة أن لا يؤدي إلى إلحاق الضرر بالأولاد الذين ولدوا بطريقة الزواج"(٢٩). واكبت هذه الممارسة تصرفات حاذقة للتحايل على القانون. كشفت الوثائق المسمارية عن تاجر غني في القرن الخامس عشر ق.م قرب كركوك (العهد الآشوري- السلالة السرجونية) تبنيه لأولاد أغنياء وفقراء على السواء. وقدم هؤلاء بالمقابل هدايا للوالد المتبني تضمنت نقوداً ومزارع مساوية في القيمة لما سيرثونه عند وفاته "فبواسطة التبني يحصل الأب على حقوق واسعة جداً، ويستطيع أن ينهي التبني حسب رغبته(٣٠)".

كانت القاعدة العامة في الإرث حصر التركة في الأولاد الذكور الأحرار فقط. وكان الأبناء الأحرار يتقاسمون التركة بالتساوي مع منح الأكبر بعض الامتيازات، كأن يكون له حق اختيار الحصة الأُولى أو منحه حصة إضافية. ويحق للأب قبل وفاته ترك وصية تتضمن تخصيص حصة من تركته لإحدى زوجاته أو ابنه المفضل فيُطرح ذلك الجزء من التركة ويُقسم الباقي بالتساوي بين الورثة. وبالنسبة لأخواتهم غير المتزوجات كان الأخوة يقتطعون حصة من التركة لتغطية المهر قبل اقتسام التركة بينهم. لذلك فالأرجح أن حصة الفتاة من الإرث هو مبلغ مهرها. ولم تترك قوانين حضارة وادي الرافدين أية حصة للزوجة عدا هدية زواجها شريطة أن تكون صادرة عن الزوج وموثقة رسمياً. ولا يحق للأبناء بالتبني المشاركة في التركة إلا إذا ترك الأب وصية رسمية، وكذلك الحال بالنسبة لأولاد المحظية حتى وإن اعترف بهم أبوهم قبل أن يترك وثيقة رسمية بذلك. وفي حالة وفاة الزوج دون ترك وصية، للأرملة أن تستمر في العيش في بيته وأن تُراعى من قبل أولاده، ولكن بموجب القانون الآشوري تُطرد الأرملة التي لا أطفال لها. فالقانون ينص باقتضاب قائلاً: "لها أن تذهب حيث تشاء(٣١)".

٣- الحياة اليومية

كيف كانت الحياة اليومية للمواطن العادي في ربوع وادي الرافدين قبل حوالي أربعة آلاف عام؟.. يمكن القول إن جوانب عديدة من هذه الحياة بقيت كما هي حتى

الوقت الحاضر أو أن هناك على الأقل أوجه شبه عديدة لهذه الحياة الحاضرة مع تلكمُ الحياة في الأزمنة الغابرة. فالحياة اليومية للطبقة الأرستقراطية وعلى رأسها صاحب السلطة بعيدة عن المقارنة بالحياة اليومية للرجل العادي من عامة الناس.."إذ لا يوجد شبه مهما كان نوعه بين حياة ملك بابل وآشور وحياة أي من رعاياه."[٣٢] وكانت حياة سكان بابل في حدود ٦٠٠ ق.م قريبة الشبه بشكل وثيق مع حياة سكان "الشرق الاوسط" قبل خمسين سنة مضت أو قبل ظهور الماكنة ذات الاحتراق الداخلي: شوارع مطينة شتاء ومتربة صيفاً، تضم صفوفاً متراصة من البيوت ذات الواجهات القديمة، وتتميز باعتدال الحرارة في داخلها، وتتطابق عموماً مع أي بيت عربي مشيد على الطراز القديم من مثل الموجود في بغداد وحلب ودمشق[٣٣] .

وفي الأحياء المأهولة بشكل كثيف من بغداد يمكن رؤية المظهر المجسّد لشوارع بغداد وأسواقها المكشوفة في الهواء الطلق وهي تعرض ذات السلع والأدوات الصغيرة للحرفيين.. "ولا بد أن شهد حكم نبوخذ نصر ذات النوعية من الشواهد التي يمكن رؤيتها اليوم، وذات الرقصات التي تتألف من صفين من الراقصين الذين يتقدمون ويتراجعون بمصاحبة النسوة اللواتي كن يولولن (يهلهلن) ويصفقن بأيديهن طبقاً لرتابة الرقص، واللواتي لا بد كن يسمعن نغمات ذات الأدوات الموسيقية[٣٤]...".

تشير الاكتشافات التاريخية إلى أن بيوت السكن في شمال وجنوب وادي الرافدين منذ أواخر العصر الحجري- المعدني وأوائل العصور التاريخية لم تكن مختلفة كثيراً عن البيوت التي انتشرت في المنطقة بعد ذلك التاريخ. إن أفقر أحياء المدن الكبرى- بغداد- في عصر المليارات النفطية تشبه عن قرب مدينة من مدن بلاد الرافدين في الألف الأول ق.م، كما أن الطراز البدائي للسكن (الكوخ) ما يزال قائماً في الريف العراقي، إضافة للأحياء الفقيرة في المدن (الصريفة). بينما البيوت الشرقية القائمة حالياً تشبه إلى حد بعيد البيوت البابلية. واستخدم ذات آلة الانارة التي كان قد استخدمها العراقيون قبل أن يصلهم الكهرباء (السُرُج والمشاعل النفطية[٣٥]).

كان بناء البيت الذي يعيش فيه البابلي يحقق له مطلبين: الاستقلال (أو العزلة) لا سيما فيما يخص نساءه، والوقاية من حرارة شمس بابل المحرقة. حقق المطلب الأول بجعل الجدران الخارجية لمنزله بلا أبواب ولا نوافذ تقريباً، وترتيب أبواب الغرف داخل

ساحة الدار (الحوش) فقط. وبذلك يكون للبيت البابلي فناء واسع يحيط به مجموعة من الحجرات على كل جانب. وكان واضحاً أن البابلي يحب الخصوصية المنزلية، فكانت أبواب الغرف المؤدية من مدخل الشارع الرئيس مرتبة دائما بطريقة تجعل من المستحيل- حتى لو كان الباب الخارجي مفتوحاً- أن يُرى ساحة البيت من الشارع. "إن بيت البابلي كانت قلعته[٣٦]". وبطبيعة الحال كانت ساحة البيت (الحوش) تتضمن المواقد (المطبخ) والتنور. وحقق المطلب الثاني بجعل جدران بيته سميكة مبنية من اللبن.

عرف عن البابليين المقتدرين تناولهم أربع وجبات في اليوم: فطور سخي، غداء خفيف، وجبة ثقيلة، ثم وجبة خفيفة في المساء. وكانت وجبة الطعام تبدأ بجلوس أفراد العائلة حول المائدة، ويصب أحد العبيد الماء على أيدي الجالسين بدءاً برب العائلة وتحت أيديهم طست (لقن). ثم يبدأ رب العائلة برفع الدعاء للآلهة، ويوضع الطعام على المائدة في إناء واسع واحد في الغالب ويأخذ كل منهم طعامه مستعملين أصابعهم، رغم أن السكاكين والشوكات كانت معروفة في العهد البابلي القديم.

شكلت لحوم البقر والغنم والماعز مواد منتظمة في طعام الآلهة (المعابد) وكذلك المقتدرين من البابليين. وكان الفقراء لا يتناولون اللحم الأحمر إلا في الاحتفالات الدينية، وربما كانت تواتيهم فرصة أكل لحم الخنزير. وكانت الأسماك والدواجن من أسباب الترف إلا إذا كان من مواد طعام الأغنياء. (أُدخل الدجاج لبلاد الرافدين قبل قرن من عهد نبوخذ نصر). وشكلت المنتجات النباتية الجزء الأعظم من وجبات طعام عامة الناس، يتقدمها الشعير الذي يطبخ بالماء لإنتاج نوع من اليخنة أو العصيدة إضافة لعمل الخبز منه بواسطة التنور المعروفة والمستخدمة حالياً. ومن الخضر والفواكه المستخدمة: البصل، الثوم، الخيار، الحمص، الباقلاء، القرع، الكرنب، الفجل، التفاح، النبك، السفرجل، الخوخ، الرمان، التين، العنب، المشمش، التمر. وكان التمر يعتبر الغذاء الرئيس للطبقة الفقيرة، وكانت صناعة الدبس معروفة (ف١٢). ومن الطحين والزيت وعصير التمر (الدبس) تُصنع المعجنات والحلويات. ومن العنب والتمور تنتج أنواع عديدة من الجعة والخمور. كما صُنع من حليب الضأن والماعز اللبن والجبن والزبدة

والدهن. وبعد تناول الطعام يمسح كل منهم فمه بمنديل من مناديل المائدة ويصب العبد الماء مرة أخرى على أيديهم. والمعروف أنه بعد وجبة الغداء يذهب أفراد العائلة لحجرات نومهم للقيلولة (النوم بعد فترة الغداء). وكان أحد معاني الظهيرة هو (وقت الاستلقاء)- القيلولة خاصة أيام الصيف[٣٧].

هوامش الفصل الرابع عشر

(١) سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ ، ص١٨٦- ١٨٧ . Robinson,Jr.,p.48..

(٢) عبدالواحد ، فاضل (و) سليمان ، عامر ، ص٦١ . . . كونتينو ، جورج ، ص٢٨ .

(٣) ساكز ، هاري ، ص٧١ . . . كونتينو ، جورج ، ص٣٢ .

(٤) رو ، جورج ، ص٤٦١ .

(٥) كونتينو ، جورج ، ص٣٢ . . . عبدالواحد ، فاضل (و) سليمان ، عامر ، "العراق في . . ." ، ص٦١ . . . رو ، جورج ، ص٤٦١ . . وقارن : شمتار ، جورج بوييه ، ص٣١١ .

(٦) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٥٣٦ .

(٧) قارن : رو ، جورج ، ص٢٩١ . . . علي ، فاضل عبدالواحد ، سومر : اسطورة وملحمة ، ص٢٢ .

(٨) سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ ، ص١٨٧ .

(٩) اوينهايم ، ليو ، ص٩٣- ٩٤ .

(١٠) كونتينو ، جورج ، ص٤١ .

(١١) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٥٣٦- ٥٣٧ .

(١٢) كونتينو ، جورج ، ص٤٠ . . . عبدالواحد ، فاضل (و) سليمان ، عامر ، ص٦٢ .

(١٣) كونتينو ، جورج ، ص٤٥ . . Robinson,Jr.,p.48..

(١٤) نفسه ، ص٤٦ . . . رو ، جورج ، ص٤٦٢ .

(١٥) الهاشمي ، رضا جواد ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٩٢ .

(١٦) ساكز ، هاري ، ص١٩٤ .

(١٧) كونتينو ، جورج ، ص٤٧ . . . رو ، جورج ، ص١٨٤ .

(١٨) سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ ، ص١٨٨- ١٨٩ . . . الهاشمي ، رضا جواد ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٨٧-٨٨ . .. Weber,Max,The Agrarian Sociology of Ancient Civilization,Bristol,UK.,1976,p.94..,Hawkees, Jacquetta,p.185.

(١٩) ساكز ، هاري ، ص١٣ .

(٢٠) سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ ، ص١٨٩- ١٩٠ . . . كونتينو ، جورج ، ص٣٧ .

(٢١) ساكز ، هاري ، ص١٣ . . . كونتينو ، جورج ، ص٣٦ . . .Hawkes,Jacquetta,p.179.

(٢٢) شمتار ، جورج بوييه ، ص٢٧٨ .

(٢٣) عبدالواحد ، فاضل (و) سليمان ، عامر ، ص٥٧ . . الهاشمي ، رضا جواد ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٩٠ ، ٩٤ . .-We-ber,Max,p.94.

(٢٤) الهاشمي ، جواد رضا ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص ٨٩ (و) ٩٣-٩٤ .

(٢٥) عبدالواحد ، فاضل (و) سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ ، ص٦٩- ٧٠ .

(٢٦) سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ ، ص١٩٢- ١٩٣ . . . ، عبدالواحد ، فاضل (و) سليمان ، عامر ، ص٧٣ . . . ، الهاشمي ، رضا دواد ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٩٤- ٩٥ .

(٢٧) الهاشمي ، رضا جواد ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٩٦ . ..Hawkes,Jacquetta,p.1761-177

(٢٨) ساكز ، هاري ، ص١٧٦ . . . ، كونتينو ، جورج ، ص٣٤ (و)٣٦ . . . ، عبدالواحد ، فاضل (و) سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ ، ص٧٦ .

(٢٩) كونتينو ، جورج ، ص٣٨ .

(٣٠) نفسه ، ص٤٠ . . ..Hawkes,Jacquetta,p.180-183

(٣١) نفسه ، ص٣٧ .

(٣٢) نفسه ، ص٣٢ .

(٣٣) رو ، جورج ، ص٢٩٩ .

(٣٤) كونتينو ، جورج ، ص٤٩٩- ٥٠٠ .

(٣٥) نفسه ، ص٥٠- ٥١ . . . ، عبدالواحد ، فاضل (و) سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ ، ص٨٠- ٨٧ .

(٣٦) ساكز ، هاري ، ص١٩٩ . . ..Robinson,Jr.,p.49

(٣٧) نفسه ، ص٢٠٤- ٢٠٥ . . . ، عبدالواحد ، فاضل (و) سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ ، ص٨٧- ٨٩ .

الفصل الخامس عشر
العلوم والمعرفة

دفعت سلسلة التطورات الحضارية لبلاد الرافدين منذ العصور الحجرية ولغاية بداية التاريخ مطلع الألف الثالث ق.م إلى الحاجة لنشوء وتطور العلوم والمعرفة والممارسات التقنية والعلمية لضبط مشاريع الري وإقامة السدود وشق الترع والسيطرة على مياه الفيضانات وصناعة التعدين والأدوات والآلات وضبط الفصول وقياس الزمن وغيرها.. وهكذا نشأت طائفة من العلوم والمعارف (الرياضيات، الجبر، الفلك، الطب، الكيمياء، البناء، النحت..). وفي جهودهم ودراساتهم خلّفوا قوائم مطولة بأسماء وأصناف الحيوانات والنباتات، هذا رغم المظهر السلبي في محاولة البابليين العملية المحضة حل مشكلة تصنيف النباتات المختلفة على أساس الرجوع لفوائدها واستعمالاتها الشائعة بدلاً من اعتبارات المبادئ العلمية[١].

توفرت لدى السومريين والبابليين والآشوريين المواصفات المطلوبة لذهنية ذات توجه علمي بشكل حقيقي. امتازوا قبل كل شيء بتطلعهم الشديد لضروب المعرفة: جمع الرقم القديمة، تأسيس متاحف للآثار، جلب أنواع نادرة من النباتات والحيوانات غير المعروفة من مناطق بعيدة. كما اتصفوا بالصبر والولع بالتفاصيل، وامتلكوا قوة ملاحظة نفاذة، ودرسوا الطبيعة بحماس مسجلين وموحدين كمية كبيرة من المعلومات الخالصة أكثر من توخي أغراضها العلمية[٢].

اشتهرت حضارة وادي الرافدين أنها خلّفت الكثير من القوائم المطولة في كافة المجالات: الحوليات الملكية، أسماء الملوك وكبار رجالات الحاشية والعائلات النبيلة، قوائم بِأحداث متسلسلة ومؤرخة، جداول رياضية فلكية، قوائم طبية، قوائم بأسماء

وأصناف الآلهة، والمعابد والأعياد، النذر والشؤم.. "وكثيراً ما يطلق على علوم وادي الرافدين بشيء من السخرية اسم (علم القوائم)... ولكن ما يجب تأكيده أن التعليم كان في واقعه شفهياً فقط، وأن الوثائق التي بقيت ليست أكثر من (كتيبات) أو (ملازم جيب) لا يمكن الحكم عليها باعتبارها مناهج مدرسية. فمن المؤكد أن البابليين كانوا يعرفون معلومات أكثر بكثير مما دونوا في كتاباتهم. دليل ذلك أن نقل ونصب كتل كبيرة من الحجارة وشق القنوات الطويلة لسحب المياه يستوجب بالأساس معرفة متقدمة لعدة قوانين فيزياوية[٣]".

يذكر المؤرخ بيروسوس Berossus، كاهن معبد بابل الذي ترجم إلى اليونانية مؤلفات البابليين عن الفلك والتنجيم، ووضع عن بابل تاريخاً مفصلاً في ثلاثة أجزاء باليونانية (ضاعت مؤلفاته وبقيت فصول وإشارات إليها في مؤلفات بعض الاغريق)، أحاديث قديمة جداً عن بداية حضارة وادي الرافدين. ووفقاً لما ذكره: رأى السكان البدائيون (الأوائل) ممن استوطنوا المنطقة الكائنة حول الخليج العربي مخلوقاً غريباً (خرافياً) عرف باسم (اونيس) OANNES كان نصف إنسان ونصف سمكة. يخرج هذا المخلوق من الماء ليقضي النهار بين الناس مرشداً إياهم لكل فرع من فروع المعرفة، ثم يرجع كل ليلة للأعماق. استمر ظهور مثل هذا المخلوق أربع مرات، وكان كل مخلوق يكمل العمل الذي بدأه سابقه. ونتيجة لهذا المفهوم عن المعرفة الموحى بها صارت هذه المعرفة ليست محترمة فحسب، بل ومقدسة أيضاً. وظهر التأثير الأول لهذا المفهوم في حصر انتشار هذه المعرفة، فأصبح من غير المناسب نشرها على نطاق واسع، بل وجب حصرها بين قلة مختارة جديرة بها. وهذا يعني أولاً وقبل كل شيء (الكهان) الذين يعتبرون قيمين عليها، وهم بدورهم يهبونها لمن يثبت أنه يستحقها وبخاصة المتمرنين[٤].

وكان السومريون أول من ابتكر فكرة مرور الإنسان في عصر ذهبي (الجنة) معتمداً ذلك على ما ورد في إحدى الأساطير التي تتحدث عن الأزمنة الغابرة "في تلك الأيام لم تكن الحية في الوجود، ولم يكن العقرب، ولم يوجد الضبع والأسد، ولم يكن الكلب الوحشي ولا الذئب، لم يكن خوف ولا هلع، ولم يكن للإنسان من غريم... في تلك الأيام كانت أرض الشرق، موضع الخير العميم وموضع الأحكام العادلة... وكانت بلاد سومر ذات اللسان الواحد المنسجم، هي البلاد العظيمة التي نبعت منها

أحكام الإمارة... وكان الشمال، الأرض المحتوية على كل ما يحتاج اليه، وكانت بلاد الغرب آمنة مطمئنة... كان الكون جميعه، والناس كلهم، يمجدون انليل بلسان واحد[٥]".

وفي إقراره بفضل حضارة وادي الرافدين على الحضارة الإغريقية والحضارة المعاصرة، يقول جورج رو: "بالنسبة لنا نحن أبناء القرن العشرين يجدر بنا أن نعترف بديننا لسكان وادي الرافدين القدماء. وفي الوقت الذي نقدم فيه على كبح جماح الذرة ونعد أنفسنا لاكتشاف النجوم، فإن من العدل أن نتذكر بأننا ندين للبابليين بالمبادئ الأساسية لرياضياتنا وفلكنا بضمنها نظامنا في الأرقام ذات القيمة المرتبية والنظام الستيني الذي ما نزال نقسم بواسطته دائرتنا وساعاتنا... هناك أيضاً الكثير من الأصول العراقية القديمة التي يمكن تحريها في الكتاب المقدس... وفي الواقع فإن الأساتذة الكلاسيكيين الذين وقفوا مبهورين لفترة طويلة أمام ما يدعى (المعجزة الإغريقية) بدءوا الآن يدركون كامل حجم الزخم الهائل للتأثيرات الشرقية على النواحي المولدة من الفكر والفن والأخلاق الاغريقية. وكان الشرق معتمداً بدرجة كبيرة على حضارة وادي الرافدين طوال الجزء الأكبر من الحقبة التاريخية ما قبل الكلاسيكية[٦]".
ورغم تسربله بالخرافات، تميز طب وادي الرافدين ببعض سمات العلم الإيجابي "وهو العلم الذي انتقل إلى الاغريق وعبّد الطريق مع الطب المصري للقيام بالإصلاح الابقراطي العظيم للطب في القرن الخامس ق.م[٧]".

وهناك دلالات قوية على اكتشاف الرياضيين البابليين لما يسمى بنظرية فيثاغورس (القرن السادس ق.م) قبل فيثاغورس بأكثر من ١٥٠٠ عام[٨].. " ويوجد الآن اعتراف عام بأن الأسطورة الإيشوبية كانت لها سابقتها السومرية الأكدية، وأن كلكامش هو نسخة طبق الأصل من هرقل وأوانيس مجتمعين. بينما تكشف لنا حالاً نظرة سريعة على التماثيل والدمى القديمة للقسم القاري الساحلي من بلاد اليونان تشابهاً قوياً مع الأعمال الفنية السابقة أو المعاصرة لها في بلاد وادي الرافدين... وإذا كان بالإمكان تقديم عرض لتأثير حضارة وادي الرافدين على حضارة عظيمة في منزلة حضارة اليونان فإن من البديهي التسليم بالاعتقاد الثابت بأن حضارة وادي الرافدين قد أحدثت تأثيرات أعظم على البلدان الأُخرى في الشرق الأدنى." وحسب رو يذهب البروفسور روستو فنزيف، "وهو

أحد العلماء القلائل المتخصصين عن جدارة بتاريخ العالمين الهيليني والشرق"، إلى أبعد من ذلك في استعراضه لتأثير حضارات وادي الرافدين على الحضارات الأُخرى فكتب: "يتزايد باطراد إدراكنا بعظم تأثير الفن البابلي والفارسي على التطور الفني في بلاد الهند والصين كلما تعمقنا في البحث والاستقصاء(٩)".

ويذكر الباحث السويدي زيتر هولم: ليست حضارات وادي الرافدين السومرية والبابلية أقدم الحضارات في التاريخ حسب، بل إننا نجد أنفسنا في هذه الحضارات- أساطيرنا وملاحمنا وحتى ديننا. نعم إن الكثير مما تعلَّمناه ناظرين إليه كإرث للإغريق واليهود يعود إلى هذه الحضارات.. هنا قبل ١٥٠٠ سنة على إقليدس وهوميروس صيغت نظرية إقليدس وكتبت أول ملحمة في التاريخ. هنا ظهرت الحكايات والأساطير وقصص نشوء الخليقة والطوفان قبل أسفار موسى الخمس.. هنا منبع حكايات وقصص هابيل وقابيل.. لقد بنى السومريون الحضارة البشرية الأولى، وساهموا في نقل التطور البشري من العصر الحجري وعالم ما قبل التاريخ إلى عصر الزراعة والاستقرار وبناء الحضارة البشرية الأولى. السومريون هم أول من أوجدوا اللغة المكتوبة، وبنوا السدود والقنوات لزراعتهم، وثبتوا نظام التوقيت. كان السومريون معلمي الرياضيات لكل من الإغريق والعرب وخلَّفوا الأدب العلماني، وكتبوا الأمثال والقصائد والمجموعات الشعرية وملاحم البطولة، كما تركوا أقدم رسالة حب تعود إلى خمسة آلاف سنة(١٠).

انصبت جهود سكان وادي الرافدين في مجال الكيمياء على تطبيقاته العملية، وعرفوا المعادن ومعالجة المواد المعدنية وتنقيتها وتميزوا بمهارة ودقة تصنيعها وتشكيل السبائك غير المألوفة(١١). أما في مجال التاريخ فلم يفطن القوم لتحديد نقطة تاريخية لكتابة التاريخ على أساسها كما هو قائم حالياً بالنسبة للتاريخ المسيحي (الميلادي) والتاريخ الإسلامي (الهجري)، بل كانوا يؤرخون السنين حسب الحوادث المهمة، ومن ثم أدخل الكشيون (العصر البابلي الوسيط) طريقة جديدة تستند إلى تسلسل سنوات حكم الملوك(١٢).

وفي حقل الجغرافية، تركوا "خارطة للعالم" بدائية (٦٠٠ق.م). إذ كانت فكرة القوم عن الأرض شديدة الغموض. فلم يلتفتوا إلى مشاكل تعريف علم الكون بسبب تركيز جهودهم على معرفة أنساب ونظام مجمع الآلهة. بينما تركزت أغلب النصوص

الجغرافية على قوائم بِأسماء البلدان والجبال والأنهار والمدن بالإضافة إلى خطوط المواصلات "المفيدة جدا لتسهيل مهمة الأسفار والتجارة وتعريف المسافات بينها". لكن المثير للإعجاب طرقهم في رسم مخططات المدن والأراضي التي "هي نفس طرائقنا التي نستعملها اليوم". كما تبين وثائق بيع الضياع والحقوق والبيوت درجة متطورة من المعرفة الرياضية لتذليل مشاكل المسح، ودقة متناهية في رسم مخططات المدن، كما في مخطط نفر. "وقد أثبت هذا المخطط أنه يتطابق تطابقاً عجيباً مع المخططات التي رسمتها البعثة الأمريكية أثناء تنقيبها في المدينة[١٣]".

وأخيراً، أبدع أهل وادي الرافدين في مجال الفنون والعمارة، لكونها أحد الحقول الأكثر قرباً لخدمة الآلهة: المعبد والقصر. لذلك ترك فن وادي الرافدين أثره حتى على وادي النيل، بالإضافة إلى اليونان، كما هو واضح في العمود الأيوني الذي يرجع أصله إلى بلاد سومر حيث كان رمزاً دينياً في العصر الشبيه بالكتابي. وترجع أصول المعرفة بـ "شجرة الحياة" وانتشار تسميتها إلى الفن السومري، إذ جاء ذكرها في سفر التكوين من التوراة عند الحديث عن خطيئة آدم وحواء في جنة عدن.[١٤]

١- الكتابة والمدرسة

تشكل الكتابة باعتبارها أداة التدوين، الإنجاز الأعظم لحضارة وادي الرافدين. تحقق لأول مرة في تاريخ البشرية قبل أكثر من خمسة آلاف سنة بدءاً بالكتابة الصورية (العصر الشبيه بالكتابي) ولغاية الكتابة المسمارية (العصر التاريخي) ولتستمر مستخدمة حتى آخر أدوار هذه الحضارة. عُثر على نص مسماري معروض في متحف بغداد يعود إلى سنة ٥٠ ق.م[١٥]. واكتشفت أقدم وثيقة تتضمن كتابة صورية في اوروك (الوركاء) تعود إلى نهاية الألف الرابع ق.م، قبل أن تتطور إلى الكتابة المسمارية في حدود منتصف الألفية الثالثة ق.م. وهكذا كان للحضارة السومرية الفضل في نقل البشرية من ظلام (أميتها) التي استغرقت أكثر من ٩٩٪ من عمر الإنسان على هذه الارض والممتدة بحدود ٢- ٣ مليون سنة[١٦].

وتسمية الكتابة السومرية بـ "المسمارية" cuneiform مشتقة من اللاتينية: cu-nei "مسمار" وform "شكل". ذلك أن العلامات المسمارية تتكون من رؤوس مدببة

تشبه المسامير. وتحقق اكتشافُها ارتباطاً بنمو الحاجة لحفظ سجلات بإيرادات ومصروفات المعبد، علاوة على نمو اقتصاد دولة المدينة[١٧].

كانت المدرسة معروفة منذ بداية استخدام الكتابة وسيلة للتدوين (الألف الثالث ق.م). كما وردت إشارت لوجود المدرسة منذ العهد السومري كمؤسسة تعليمية. والأحجية السومرية التالية تلمح إلى معنى المدرسة: بيت بأسس السماء، البيت الذي يشبه وزة واقفة على قاعدة متينة، يدخلها المرء بعيون مغلقة، ويخرج منها بعيون مفتوحة، فما هي؟.. أطلق السومريون على المدرسة اسم (أي- دبا) - edubba بيت الألواح - tablet house وسمي التلميذ (ابن بيت الألواح). وكانت المعابد تنظم المدارس في بداياتها المبكرة وشكلت جزءاً ملحقاً بها، وأشبه ما تكون بمؤسسة دينية لتدريب الكهنة والأشخاص الذين يلتحقون بوظائف الكتبة في خدمة المعابد والقصور.

ومع تطور أركان الدولة والمؤسسات الاجتماعية، خاصة بعد عام ٢٠٠٠ ق.م (العهد البابلي القديم) عندئذ ظهرت المدارس الرسمية خارج المعابد تحت إشراف القصر والكهنة. وكان التعليم يشمل ، بالإضافة للكتابة، فروعاً من العلوم والمعارف للقادرين على المواصلة: الرياضيات، الفلك، الطب، الأدب، الموسيقى، القانون.. كما استخدم الخط المسماري لتدوين اللغتين السومرية والأكدية. لكن صعوبة تعلم الخط المسماري والتكاليف العالية نسبياً التي تطلبتها مهمة تعلمها على مدى سنوات عديدة جعلتها محصورة في عائلات معينة يتوارثها الأبناء عن الآباء لأجيال عديدة[١٨]. وربما اقتصرت المدرسة على الأولاد الذكور، حيث لم يرد نص بذكر المرأة- عدا الكاهنات حيث كن متعلمات- رغم اكتشاف حالة موثقة عن امرأة كاتبة وطبيبة. وهذا يشير إلى احتمال حصول قلة من الإناث على تعليم خصوصي. يضاف إلى صعوبات الكتابة السومرية وعدم تطورها للمرحلة الهجائية، كثرة علاماتها في البداية لتتجاوز ٢٠٠٠ علامة، أمكن اختزالها إلى حدود ٨٠٠ علامة في نهاية عصر فجر السلالات (٢٦٠٠ ق.م) ولم تنخفض عن ٦٠٠ علامة في المراحل التالية[١٩]. كما وجدت مكتبات لحفظ الرقم في سلال معمولة من الطين والقصب ويوضع معها بطاقة تعريفية، لكن أهم وأكبر المكتبات التي عرفتها حضارة وادي الرافدين هي مكتبة آشور بانيبال[٢٠].

و يبدأ التدريس في سن مبكرة دون العاشرة، وإذا كان الولد تلميذاً نهارياً عليه النهوض مع شروق الشمس وأخذ طعامه (غدائه) معه للمدرسة. وإذا وصل متأخراً فإنه يُضرب بالفلقة، وينتظره نفس المصير لأي مخالفة يرتكبها أثناء الدوام الرسمي أو لإخفاقه في أداء واجباته على نحو مرضٍ[٢١]. عُرِفَ مدير المدرسة باسم "أب المدرسة" School Father، ولُقب المدرس "الأخ الأكبر" Big Brother وكان المعلم محل تقدير وتبجيل. يخاطب أحد الطلبة السومريين معلمه " أنت إله، وحيث أن الإله يصنع الإنسان فأنت إلهي لأنك صنعت فيَّ الإنسان[٢٢]".

وكان المنهج الدراسي طويلاً وصارماً، يستغرق سنوات طويلة ويتطلب تفرغاً كاملاً، ويعتمد الحفظ أساساً، خاصة في المرحلة المبكرة. وكان أول شيء يترتب على التلميذ هو أن يصبح حاذقاً في اللغة السومرية. ويتمرن على استنساخ واستظهار قوائم طويلة لأسماء ومصطلحات. وإذا أحرز تطوراً وافياً في أساسيات حرفته أمكنه مواصلة دراسته في فرع من فروع العلوم المختلفة. والجدير بالذكر أن العلاقات الشخصية كانت تؤثر في موقع الطالب. تذكر وثيقة مدونة حوالي ٢٠٠٠ ق.م أن نتائج أحد الطلاب كانت سيئة وتعرض للضرب كثيراً لسوء أدائه إلى أن أصبح كارها للمدرسة. تغيرت الحالة عندما بادر والده الغني بدعوة مدير المدرسة لمنزله. وبعد تزيينه من قبل الخدم وتقديم الطعام له وثوب جديد وشيء من الراتب الإضافي ووضع خاتم في إصبعه، تغيرت العلاقة بين المدرسين والتلميذ الغني[٢٣]..! ولعلَّ جميع فئات الكهنة تلقوا تدريبهم الأول بصفة كتبة على الرغم من أن المؤهلات الخاصة بالكهنوتية أشد صرامة من تدريس اللغة وتعلم الكتابة، ولم تكن أبواب الكهنوت مفتوحة للجميع. فمثلا اشترط بالنسبة للعرافين أن يكونوا من ذوي المولد النبيل والبنية السليمة (ف١٠/٣). وكان مطلوباً من أي شخص في أي وظيفة في المعبد لغاية الألف الأول ق.م أن يكون سليم البدن[٢٤].

احتل الكاتب أهمية اجتماعية عالية في حضارة وادي الرافدين، حيث كان صاحبُ هذه المهنة يحقق منزلة رفيعة prestige[٢٥]. يذكر نص سومري "الكتابة هي أم الخطباء وأب التلاميذ[٢٦]". وكان الكاتب الجيد هو من أتقن معرفة مهنته جيداً. وهذا يتطلب فيه قوة الذاكرة[٢٧]. وعُرف الكاتب الجيد من قدرته على سرعة انجاز ما يدونه

"الكاتب الذي تتحرك يده بسرعة حركة الفم نفسها هو الكاتب الذي ينفعك"[٢٨]. ولعلّ من الطريف ملاحظة أن التقليد الخاص بكتابة الرسائل، على الأقل في بعض مواصفاتها، لا زالت متبعة حتى الوقت الحاضر، إذ اتصفت بالجمود، خاصة ما يتعلق منها بالفاتحة والخاتمة[٢٩].

هل كانت المنزلة العالية للكاتب محصورة في العصر السومري، أو العصر السومري والبابلي فقط؟! لقد عثر المنقبون على لوح يعود إلى العصر الآشوري الحديث يذكر فيه أحد الآشوريين: "إن بيت كبير الكتاب حقير جداً حتى إن الحمار لا يرضى أن يدخله." علّق S. Parpola -جامعة هلسنكي- على ذلك بقوله: "إن العلم وحياة الترف لا يتماشيان سوية بصورة عامة، وإن هذه الحالة السيئة تبدو صحيحة في الأزمان القديمة كما هي اليوم[٣٠].

ابتكر السومريون مع بدء الكتابة رموزا للأرقام ونظامين للعد أحدهما النظام العشري والآخر النظام الستيني[٣١].. "إن للسومريين فضلاً كبيراً علينا في تقسيم اليوم الذي اعتبروا شروق الشمس بداية له، فقسموه إلى اثني عشر ضعفاً للساعة ، أي أربعاً وعشرين ساعة، ثم قسموا كل (نصف ساعة) إلى ثلاثين جزءاً..." وقد اقترح الفلكي الإغريقي (كديناس) اعتبار بداية اليوم من منتصف الليل لتحمله خطأ أقل في القياس الذي يسببه الحساب بشروق الشمس. وكان لنظام توزيع الدائرة إلى ٣٦٠ درجة واليوم إلى ٢٤ ساعة أن نتجت في النهاية منطقة البروج التي وسعّت مجال علم التنجيم[٣٢]. أما الصفر فلم يُعرف إلا في عهد الاحتلال السلجوقي في القرن السادس ق.م. ونضج استعماله على أيدي الرياضيين العرب[٣٣].

٢- الرياضيات والفلك

عرف رياضيو وادي الرافدين العمليات الحسابية الأربع، وتركوا جداول للضرب ومربعات الأعداد ومكعباتها وجداول لوغارتمات بعض الأعداد. وكانت الطرق البابلية جبرية في أساسها، واستطاعوا منذ الحقبة البابلية القديمة حساب أعداد كالجذور

التربيعية والتكعيبية وحل المعادلات التربيعية (الدرجة الثانية)[٣٤]. كما اتسمت الرياضيات البابلية بسمتين: النظام الستيني، واستخدام نظام القيمة المرتبية، حيث كان لهما فضل جمّ في حل العمليات الحسابية[٣٥]. كذلك تضمنت الوثائق المكتشفة في مدينة أشنونا (تل أسمر) نصاً لنظرية هندسية تشبه (نظرية فيثاغورس)[٣٦].

انطلقت حاجة حضارة وادي الرافدين لدراسة حركة الأجرام السماوية من عاملين مترابطين: أولهما ديني يتعلق بعلم ما وراء الطبيعة، وثانيهما عملي لخدمة الدين يتمثل بعلم الكرونولوجيا (تقسيم الزمن إلى فترات وتعيين تواريخ الأحداث وفق تسلسلها الزمني). فطبقاً للعقيدة السائدة بِأن الأحداث التي تقع في الأرض هي انعكاس لأحداث تحققت في السماء، يمكن التعرف على أحوال الآلهة عن طريق دراسة الكواكب والنجوم (علاوة على المظاهر الطبيعية- الكونية الأخرى). وهذه المعرفة توفر امكانية التنبؤ بالمستقبل الخاص بالأرض من خلال معرفة رغبات الآلهة وتنفيذها ومن ثم تلطيف عقابها للبشر. "من هنا جاءت روحية الشكوكية المأساوية التي تحددت بها أسس فلسفة أرض وادي الرافدين. ولهذا! كان التنجيم هو أساس علم الفلك"[٣٧].

وعلى ذلك، اعتبر علم الفلك وسيلة وليست غاية، وفائدته الرئيسة هي أن يستخدم كدليل لأهداف علم النجوم (التنجيم) وتلبية رغبات الآلهة. وفي عام ١١٠٠ ق.م تبنّى الآشوريون هذا العلم وأخذوا التقويم عن البابليين. وكان هذا التقويم القمري- الشمسي يتألف من اثني عشر شهراً وكل شهر من ثلاثين يوماً. ولأن هذه الدورة تتألف من ٣٦٠ يوماً، عليه أضيف شهر كبيس في فترات منتظمة. ومن الناحية العملية أثبت هذا التقويم خلوه من عيوب مشكوك فيها[٣٨]. ونجح الفلكيون (الكهنة) في تقرير وقت بدء الشهر القمري الجديد وحساب التاريخ المضبوط وإبلاغه للملك الذي كان يقوم بنفسه بإعلان بدء الشهر. وكانت أجهزة القياس التي يستخدمونها بسيطة لا تتجاوز الساعة المائية water clock والساعة الشمسية (المزولة)[٣٩] sundial. "ولم يتقيد الفلكيون بانتظار الظهور الفعلي للقمر ليحددوا بداية الشهر الجديد، بل أنهم كانوا يحيطون الملك علماً بظهور النجوم والشمس والقمر المتوازية في مواعيد دقيقة تحدد الاعتدالات الفصلية وأوقات الخسوف والكسوف[٤٠]".

كما ترك الفلكيون قوائم بأسماء النجوم المرتبة في منطقة من مناطق السماء التي كانوا يعرفونها، وميَّزوا بين الكواكب السيارة والنجوم الثابتة، واستطاعوا عن طريق الرصد والحساب تأليف جداول بالنجوم الثابتة مع سجلات للمسافات الفاصلة بينها. وعرفوا منذ وقت مبكر تحديد "طرق" الشمس والكواكب السيارة وقسموها إلى اثنتي عشرة "محطة" قُسمت بدورها إلى ثلاثين درجة (وهذا هو أصل دائرة البروج -ZO DIAC) "وقد جاءت جداول الأهلة والأقمار وخسوفاتها المرسومة من قبل (بنوريماني)... في بداية القرن الرابع ق.م صحيحة بشكل لا يُصدَّق". ثم قام (كدنيو)- سيديناس- وهو "أعظم الفلكيين البابليين قاطبة" والذي زاول نشاطاته الفلكية حوالي عام ٣٧٥ ق.م- "بإعطاء الأمد المضبوط للسنة الشمسية بخطأ لا يزيد على أربع دقائق و ٣٢٫٦٥ ثانية. ولقد كان خطأه في حساب قيمة حركة الشمس من نقطة تقاطع المدارين أقل في الحقيقة من الخطأ الذي ارتكبه الفلكي المحدث (أوبولتزر) عام ١٨٨٧م[٤١]".

٣- الطب والتطبيب

كان الطب، كما هو حال بقية مجالات المعرفة- فناً أكثر منه علماً. وارتبط العلاج الطبي أساساً بمعتقدات القوم الدينية. إذ كان الاعتقاد السائد أن المرض ناجم عن خطيئة (إِثم/ ذَنب) الإنسان وإغضابه للآلهة. وهذه الخطيئة تدفع الآلهة المهانة إلى توجيه ضربتها بشكل مباشر للآثم. من هنا يلاحظ أن شريعة حمورابي وأحجار الحدود والمعاهدات السياسية كافة تطلب من الآلهة إنزال كافة أشكال "الدواهي الخطيرة" و"العلل المميتة" بحق من يقدم على إتلاف أو تحريف الوثيقة. وكان الاعتقاد السائد أن بوسع الآلهة أن تطلق (الأبالسة) لتستحوذ على الشخص الآثم بحيث يهاجم كل إبليس عضواً معيناً من جسده، وبإمكانها جعل الإنسان- رجلاً كان أم امرأة- يخر صريعاً لنوبة يسلطها ساحر أو ساحرة (السحر الاسود). كما أن الأمراض يمكن أن تُسَلَّطَ عن طريق عين شريرة أو نفس قذرة. ولما كانت علة الروح تتطلب التطهير الروحي فقد كان العلاج الغالب في مثل هذه الأحوال ذا منحى ديني بهدف اكتشاف الذنب الكامن

المسؤول عن إثارة غضب الآلهة ومعالجته من جهة ثم العمل على طرد الشياطين من خلال الطقوس والتعازيم والرقى السحرية. ويجري استرضاء الآلهة بإقامة الصلوات والأدعية وتقديم القرابين. وكان الممارسون لهذه الطقوس هم الكهنة بطبيعة الحال[٤٢].

وإلى جانب هذا الطب الكهنوتي أو التطهير الروحي وجد كذلك طب شعبي يتكامل معه وفي خدمته، غرضه معالجة المرض أو تطهير الجسد. وكان يعتمد بشكل رئيس على أنواع متعددة من الأعشاب ومنتجات حيوانية وقليل من موادٍّ معدنية، علاوة على بعض العمليات الجراحية التي مارسها الجراحون البابليون والآشوريون دون أن يسجل الكتبة تفصيلات هذه العمليات الجراحية التي بقيت المعلومات الأثرية عنها ضئيلة. بمعنى أن علاج المريض قام- غالباً إن لم يكن دائما- على مرحلتين: الأولى التطهير الروحي، والثانية التطهير الجسدي.

وعموماً أظهرت النصوص المسمارية وجود أطباء حقيقيين في ميزوبوتاميا، رغم إيمانهم بالأصل ما فوق الطبيعي لأكثر الأمراض، وميَّزوا مسبباتها الطبيعية كالتربة والقاذورات والطعام والشراب وحتى العدوى. ووردت نصوص تصف أمراض وعلاج الصرع وحصاة المثانة واليرقان الشديد. وكانت تتم محاولة معرفة ما يشكو منه المريض أولاً بفحص:حرارة جسمه، نبضه، الصداع، السعال، شعوره بالدوار (الدوخة). ثم تقرير العلاج المناسب. وهكذا وجد دائما إلى جانب الطب الكهنوتي (أشيبو) طب عملي (اسو) عقلاني الطابع مفيد[٤٣]، رغم أن الأخير ظلَّ متغيراً تابعاً للطب الكهنوتي وفق معتقدات القوم أن الأمراض هي عقاب من الآلهة بسبب ارتكاب الخطيئة.

ولقد سبق الحديث أن طب وادي الرافدين- إلى جانب طب وادي النيل- مهَّد للقيام بالإصلاح الأبقراطي العظيم للطب. ولكن رغم استمرار هذا الطب قائما أكثر من ألف عام فإنه لم يحرز سوى تقدم بطيء جداً، لأن أطباء حضارة وادي الرافدين، شأنهم شأن فلكييهم، أسسوا فهمهم على مبادئ ميتافيزيقية منعتهم من البحث عن تفسيرات عقلانية لمنشأ الأمراض[٤٤].

هوامش الفصل الخامس عشر

(١) كونتينو ، جورج ، ص٣٨٢- ٣٨٤ .

(٢) رو ، جورج ، ص٤٨ .

(٣) نفسه ، ص٤٨٢- ٤٨٣ .

(٤) كونتينو ، جورج ، ص٣٦٢ .

(٥) الراوي ، فاروق ناصر ، "العلوم والمعارف" ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٢٧٠- ٢٧١ . . . ، باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . . ، ص٣٥ . . . ، ديلتش ، فردريك ، ص٣٤ .

(٦) رو ، جورج ، ص٥٦٧- ٥٦٨ .

(٧) نفسه ، ص٤٩٥ .

(٨) علي ، فاضل عبدالواحد ، العراق في التاريخ ، ص٢٨٨ . . . ، الراوي ، فاروق ناصر ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٣١٠- ٣١٢ .

(٩) رو ، جورج ، ص٥٦٥-٥٧٠ . . . ايشوب ESOP(٦٢٠ - ؟) مؤلف اغريقي للاساطير على لسان الحيوانات ، والايشوبية نسبة اليه .

(١٠) Zeterholm,Tore;Igar hade vi Nebukadnessar-En bok om IRAK,Lund,1991,p.12,20-21,27,37..,Robhnson,Jr.,p.49,52.

(١١) كونتينو ، جورج ، ص٣٨٥ . . . ، رو ، جورج ، ص٤٨٣ . . . ، الراوي ، فاروق ناصر ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٢٤٠- ٢٤٦ .

(١٢) سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ ، ص٢٢٦ .

(١٣) كونتينو ، جورج ، ص٣٧٤- ٣٧٥ . . Robinson,Jr.,p.50.

(١٤) علي ، فاضل عبدالواحد ، العراق في التاريخ ، ص٢٨٩- ٢٩٠ .

(١٥) اسماعيل ، بهيجة خليل ، "الكتابة" ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٢٢٨- ٢٢٩ .

(١٦) باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص٣١- ٣٢ . . Hallo,William W.,p.151.

(١٧) علي ، فاضل عبدالواحد ، سومر : اسطورة وملحمة ، ص٢٤ . . . ، وايضاً ، The Postage, Nicholas,p.26..,Hammond,Mason,p.27.

(١٨) اسماعيل ، بهيجة خليل ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٢٦٢- ٢٦٥ . . . ، علي ، فاضل عبدالواحد ، سومر : اسطورة وملحمة ، ص٣٤ .

(١٩) سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ ، ص٢٢٣- ٢٢٤ . . . ، كونتينو ، جورج ، ص٣٠٠ . . . ، ساكز ، هاري ، ص٨٣ . . . ، علي ، فاضل عبدالواحد ، سومر : اسطورة وملحمة ، ص٢٦ .

(٢٠) اسماعيل ، بهيجة خليل ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٢٥٦- ٢٧٠ . . . ، رو ، جورج ، ص٤٧٩ . . . ، سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ ، ص٢٢٤ .

(٢١) ساكز ، هاري ، ص٨٤- ٨٥ .

(٢٢) الماجدي ، خزعل ، الدين السومري ، ص٣٢ . . Hawkes,Jacquetta,p.217. بوستغيت ، نيكولاس ، ص١٨- ١٩ . . . ، كونتينو ، جورج ، ص٣٠١ . . . ، ساكز ، هاري ، ص٨٥-٨٦ .

(٢٣) نفسه ، ص٨٧ . . . Postage, Nicholas, p.14.

(٢٤) نفسه ، ص٧٧ .

(٢٥) اسماعيل ، بهيجة خليل ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٢٤١- ٢٤٢ .

(٢٦) كونتينو ، جورج ، ص٣٠١ .

(٢٧) بوستغيت ، نيكولاس ، ص١٩ .

(٢٨) كونتينو ، جورج ، ص٣٥٨ .

(٢٩) علي ، فاضل عبدالواحد ، سومر : اسطورة وملحمة ، ص٤٦- ٤٧ .

(٣٠) كونتينو ، جورج ، ص٢٩٦- ٢٩٧ . . . ، ساكز ، هاري ، ص٩٠ .

(٣١) كونتينو ، جورج ، ص٤٦٨- ٤٦٩ .

(٣٢) قارن : الراوي ، فاروق ناصر ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٣٠٠ . . سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ ، ص٢٣٠ . . . رو ، جورج ، ص٤٨٥ .

(٣٣) ساكز ، هاري ، ص٩١ .

(٣٤) كونتينو ، جورج ، ص٤٨٥ .

(٣٥) سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ ، ص ١٨٣ .

(٣٦) رو ، جورج ، ص٤٨٦ . . . وايضاً : ساكز ، هاري ، ص٩٥ .

(٣٧) كونتينو ، جورج ، ص٢٧٦- ٢٧٧ .

(٣٨) نفسه ، ص٢٧٩ . . . رو ، ورج ، ص٤٨٧ . . . الراوي ، فاروق ناصر ، حضارة العراق ، ج٢ ، ص٣٢١-٣٢٢ . . . كونتينو ، جورج ، ص٢٧٩ .

(٣٩) كونتينو ، جورج ، ص٢٨٠ .

(٤٠) رو ، جورج ، ص٤٨٧- ٤٨٨ .

(٤١) اوينهايم ، ليو ، ص٣٨١ . . . كونتينو ، جورج ، ص٤٨٥ . . . عبدالواحد ، فاضل (و) سليمان ، عامر ، العراق في . . . ، ص٢٣٤ . . Hawkes,Jacquetta,p.231..

(٤٢) كونتينو ، جورج ، ص٤٩٢- ٤٩٤ . . . اوينهايم ، ليو ، ص٣٨١ . . . ساكز ، هاري ، ص٨٩ .

(٤٣) رو ، جورج ، ص٤٩٥ .

(٤٤) باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص٤٢ . . . كونتبنو ، جورج ، ص٣٦٥-٣٦٦ . . . رو ، جورج ، ص٤٩٥ .

الفصل السادس عشر
الأدب
(الملاحم والقصص والأساطير)

خلّفت حضارة وادي الرافدين إرثاً أدبياً غزيراً يتصف بالأصالة والتنوع. ويعتبر الأكثر قدماً حتى بالمقارنة مع أدب حضارة وادي النيل[١]. إن أقدم النصوص السومرية المعروفة حتى الآن يعود تاريخها إلى ٢٤٠٠ ق.م، وهي أسطورة (أنليل)- إله الجو- وأخته ننخرساك. وحسب كريمر، فالسومريون: "كانوا بلا أدنى شك أول من أوجد وطور الأدب الملحميّ المؤلف من روايات قصصية بطولية وضعت في صيغ شعرية...[٢]".

لم يبدأ تدوين أدب وادي الرافدين إلا بعد مرور حوالي ألف عام على اختراع الكتابة. ذلك أن الأدب القديم كان يُنشد أمام الجمهور، ويُسمع في أحضان الأُمهات قبل ظهور الكتابة. وبعد حوالي ٢٠٠٠ ق.م واستقرار الكتابة وانتشارها، ظهرت الحاجة التعليمية والثقافية إلى الأدب المدون. يقول د. ساكس "إن الأدب القديم كان شيئاً يُقص ولم يكن شيئاً يُقرأ بصمت... فقد كان له وجود حقيقي فقط عندما يُقص (ربما بمصاحبة ممثل) أمام الجمهور... كان ينقل شفاهاً من راوية مقتدر (ربما كان يعمل في البلاط أو المعبد) إلى تلاميذه...."[٣]

غطت موضوعات أدب حضارة وادي الرافدين حياة القوم: أفكارهم وممارساتهم؛ الحياة والموت والخلود (أصل الوجود)، الخير والشر (العدالة الإلهية) THEODICY، القيم والتقاليد والعادات الاجتماعية، الحياة الروحية والعاطفية.. إن قراءة متأنية لهذا الأدب الزاخر- الذي ينطلق من قاعدة محورية تتجسَّد في المعتقدات الدينية والمتميزة بالحيوية والمتعة- تنقل القارئ إلى رحاب تلك الحضارة التي أخذت تشع بنورها في

حدود ٣٠٠٠ ق.م، وتمنحه خلفية واعية عن كثير من المعتقدات الواردة في كتبنا الدينية، وتغذيه بنفاذ البصيرة وقوة التمحيص لتمييز كثير من أفكارنا ومعتقداتنا وممارساتنا الاجتماعية الحالية. يقول الدكتور هاري: "ولعلَّ أكثر النشاطات الأدبية التي لها صدى لدى الإنسان المعاصر هو أدب بلاد ما بين النهرين القديمة[٤]". ولم يكن هذا الأدب مجرد أساطير وخيالات، بل كان وليد معتقدات القوم وأفكارهم ونظرتهم للكون بالعلاقة مع بيئتهم. عليه، فإن فهم معتقدات القوم وأفكارهم الفلسفية يتطلب استيعاباً جيداً لأدب حضارة وادي الرافدين. وفي الصفحات التالية نماذج موجزة تتضمن القصص والأساطير والملاحم وأدب الرثاء والمناظرة والحكمة- الأمثال والفكاهة..[٥]

١- أساطير خلق الكون - الإنسان (ملحمة الخليقة البابلية)

اختلفت ملاحم الخليقة بشأن الإله الخالق ارتباطاً بتطور حضارة القوم والتنقل بين الزراعة المطرية والمروية، علاوة على التطورات السياسية. إن أقدم ملحمة مكتشفة للخليقة هي "أسطورة المعول". سادت في الألف الرابع ق.م، وظهرت بداياتها الأولى في الأقسام الشمالية المعتمدة على الزراعة الديمية (المطرية)، خاصة المناطق المتذبذبة الأمطار. فما دام الهواء هو العنصر الفعال في حركة الأمطار لذلك صار لـ (أنليل)- إله الجو دورٌ كبيرٌ في حياة القوم وأصبح في نظرهم هو خالق الكون والبشر. تذكر القصيدة قيام أنليل بفصل السماء عن الأرض، ثم خَلْقِ الإنسان ووضعه في يده المعولَ للعمل وخدمة الآلهة[٦]:

فحفر شقاً في الأرض...
وخلق المعول...
ووضع بدايات البشرية في الشق
وعندما بدأ البشر يظهر كالحشيش في الأرض
كان الإله أنليل ينظر مرتاحاً إلى شعبه السومري

تشير هذه الملحمة بوضوح لبداية انتشار الزراعة. وهي الملحمة الوحيدة التي تقول بظهور الإنسان مثل الحشيش من باطن الأرض، وتعكس مفهوما زراعياً صرفاً لحضارة

وادي الرافدين التي قامت في مراحلها الأولى على الزراعة المطرية خلال الفترة ٨٠٠٠-٥٠٠٠ ق.م[٧].

كما أن هذه الأسطورة السومرية، حسبما سبقت الإشارة، تميط اللثام عن مسألة أُخرى غاية الأهمية تتعلق بِأصل السومريين (ف٣)؛ فهي تشير إلى بداية ممارسة الزراعة (المطرية) التي بدأت شمالي البلاد. وفي نفس الوقت ينظر (أنليل) مرتاحاً إلى شعبه السومري! وهذه إشارة واضحة إلى أن السومريين وأهل الكهوف الذين اكتشفوا الزراعة لأوِل مرة في تاريخ البشرية ومارسوا الزراعة المطرية، هم أنفسهم أهل ميزوبوتاميا ممن انتشرت قراهم في طول البلاد وعرضها. وهذا التواصل الفكري- التاريخي يقدم دعماً آخر إلى أن السومريين هم أبناء اولئك الرواد الذين خرجوا من كهوف الشمال ونقلوا البشرية من عصر جمع القوت الى عصر إنتاج القوت (الزراعة المطرية)، ثم انتشروا لغاية الجنوب (زراعة الري) ونقلوا البشرية من عصر ما قبل التاريخ إلى عصر التاريخ (اختراع الكتابة).

وتُجسّد أسطورة "إله الشعير (أشنان) و (النعجة)"- التي من المتوقع ظهورها قبل الانتقال إلى القسم الجنوبي من البلاد- بدايات الحياة الزراعية الصرفة بما في ذلك تدجين الحيوانات. والطريف فيها أنها لا تخلو من أفكار عصرية عن طبيعة البشر الأوائل وأصل الإنسان (القرد). فبعد ولادة آلهة الأنوناكي العظام، حيث لم تُخلق النعجة بعد ولم يُخلق أشنان إله الشعير، كيف كان حال البشر الأوائل؟

البشر الأوائل لم يعرفوا أكل الخبز

ولم يعرفوا ارتداء الملابس بعد

وكانوا يسيرون على أيديهم وأرجلهم

ومن القنوات يشربون الماء...[٨]

أخذت أهمية عناصر البيئة الطبيعية وموقعها في حضارة وادي الرافدين بالتغير مع الانتقال من الزراعة المطرية (الشمال) إلى الزراعة المروية (الجنوب)، وبدأت قدسية (أنليل)- إله الجو- بالتراجع لصالح (أنكي)- إله المياه السطحية والجوفية. من هنا ظهرت "أسطورة الإله (أنكي) والإِلهة (تنماخ)" وهي تنسب خلق الإنسان لـ (أنكي)، وتُعبِّر عن مجتمع زراعي يقوم على الري الصناعي، واعتمدت المقومات المتاحة في بلاد

سومر، وتكشف عن غضب صغار الآلهة لتحميلهم مشاق العمل تحت سياط الآلهة الكبار، فجاء خلق الإنسان حلاً لهذه المعضلة: "أن يكون مصيره العمل". وكان الخالق أو الآمر بالخلق هو أنكي[٩].

بدأت مكانة (انكي) بالتراجع أيضاً بعد منتصف الألف الثالث ق.م وظهور آفة الملوحة والتصحر وهجرة الأرض والمدينة في بلاد سومر (ف١/٣، ف٥)، حيث لوحظ كيف أن هذا العامل شكل أحد العوامل الرئيسة في فقدان بلاد سومر لسلطتها السياسية لصالح سلطة بابل التي بدأت أهميتها في التعاظم منذ عام ٢٠٠٠ ق.م، وأصبحت في حدود ١٨٠٠ ق.م مركز السلطة السياسية في بلاد الرافدين. هذه التطورات السياسية دفعت كهنة بابل لإحداث تطوير في قصة الخلق لتتناسب ومكانة (مردوخ)- إله بابل فظهرت ملحمة الخليقة البابلية[١٠].

تعتبر هذه الملحمة من أبرز القصائد الشعرية في الأدب الديني وواحدة من أكثر الروائع الأدبية في محتواها وقدمها وشهرتها. تُعرف أيضا بقصيدة (إينوما إيلش)- حينما في العُلى- نسبة إلى فاتحتها. وهي تضم أكثر من ألف بيت، وأسبغت عليها صفة القدسية مثل (الكتاب الديني)، إذ كانت تُتلى أثناء احتفالات رأس السنة في مدينة بابل وعلى مدى حوالي ألفي عام[١١].

تذكر الأسطورة أنه في البداية لم يكن هناك سوى العماء CHAOS - المياه الأزلية: (أبسو)- المياه العذبة- مذكر.. و (تيامات)- المياه المالحة- مؤنث.. وبعد امتزاجهما تولد جيل من الآلهة. وعن طريق الزواج ولدت أجيال جديدة من الآلهة اشتهر منهم الثلاثة الذكور الكبار (آنو، أنليل، أنكي). وبعد أن تكاثر عدد الآلهة وأخذ ضجيجهم يقض مضجع أبيهم الأكبر (أبسو)، قرر الأخير تصفيتهم لينعم بالراحة[١٢]. يذهب أبسو يصحبه وزيره "حمو" إلى تيامة شاكياً همه ويخبرها بقراره، لكنه يجد معارضة من تيامة:[١٣]

ولما سمعت (تيامة) ذلك غضبت وصرخت بزوجها
أدركت في قلبها ما يبيت (أبسو) من شر وخاطبته:
علامَ نُدمر ما أوجدناه بأنفسنا
حقاً إن صنيعهم يسبب الألم
ولكن لنصبرْ على ذلك ونتحملْه عن طيب خاطر"

استمر (أبسو) في خطته بمعاونة وزيره لتصفية جيل الآلهة الحديثة بعد استبعاد (تيامة) من الخطة. لكن جيل الآلهة الحديثة أدركوا نواياه قبل تنفيذ خطته، فأصابهم الرعب والهلع ولاذوا أخيراً بـ (أنكي) المتبحر بالمعرفة والحكمة لحمايتهم. عمد (أنكي) إلى قوته السحرية فعمل تعويذة سحرية شلّت حركة (أبسو) ثم قتله وانتزع منه تاج الألوهية وسجن وزيره (حمو). وهنا اشتد حنق (تيامة) وانتفضت لأخذ ثأر زوجها. فولدت جيشا من العفاريت على رأسهم (كنكو) الذي أصبح قائد جيشها وزوجها. وأثناء هذه الفترة الطويلة ولِدَ لـ (أنكي) ابنه (مردوخ) الذي سيلعب دوراً حامياً في الأساطير البابلية. اتصف (مردوخ) بالحكمة والثقافة و"كان أعجوبة منذ ولادته... وكان هيكله هائلاً...[١٤]".

وبعد أن أدرك الآلهة الخطر المحدق بهم وجَبُنَ كبارهم مثل (آنو، أنليل، أنكي) عن مواجهة (تيامات) وجيشها المرعب،علاوة على فشل محاولتهم الصلح معها، وافق (مردوخ) على اقتراح الآلهة اضطلاعه بهذه المهمة الخطيرة ومنازلة (تيامات)، ولكنه طلب مقابل ذلك أن يتبوأ السلطة العليا المطلقة على جميع الآلهة. وهذا الأمر اقتضى اجتماع الآلهة وعقد مجلس الشورى (مجلس الأنوناكي) لمنحه الصلاحيات المطلوبة. ولما انتظم عقدهم في وليمة عامرة بالطعام والشراب وذهب عنهم الخوف بتأثير ما احتسوه من خمر جيد، أقاموا منصة لـ (مردوخ) واتفقوا بالإجماع على نقل سلطاتهم وزعاماتهم إليه، وفوضوه تقرير المصائر والأقدار، وصارت "إرادته لا تُرَدْ ولا تُبدل"، وتوجوه ملكاً عليهم وعلى جميع الكون، وهتفوا قائلين: "حقا مردوخ ملك"، وقدموا له الخضوع والولاء والطاعة بصفته ملكهم، وقلّدوه شارات الملوكية والسلاح الذي لا يُقهر، وحرّضوه على قتال (تيامة).. وهناك بعض الباحثين الغربيين ممّن يرى وجود أوجه شبه بين حالة مردوخ- تيامة وبين ما ورد في التوراة (سفر حبقوق- الإصحاح الثالث)[١٥]".

هيأ مردوخ أسلحته للنزال الرهيب، تتقدمها أسلحته السحرية: العاصفة والبرق والنور الوهاج ومجموعة مخلوقات مخيفة، علاوة على أسلحته التقليدية الضخمة: الشبكة والقوس والسهم. اقترب (مردوخ) من جموع (تيامات) بقيادة (كنكو) فصعقت من جلال ألوهيته المرعبة وأسلحته الفتاكة وهربت تلك الجموع، عدا (تيامات) التي ثبتت أمامه. وقبل النزال تبودلت الشتائم بينهما. وعندما تقدمت تيامات

لمنازلته، نشر مردوخ شبكته فاصطادها، ولما فتحت فاها لابتلاعه ساق في فمها الرياح الشريرة، فمنعها من إطباق شفتيها، وسلّط عليها الرياح فانتفخ جسمها وعندئذ رشقها بسهم في فمها الفاغر فأصاب قلبها، وقضى عليها، ووقف على جثتها منتصراً. قبض على أتباعها وسجنهم وانتزع، من قائد جموعهم (كنكو)، لوح الأقدار وختمه بختمه وعلّقه في صدره. ثم عاد إلى جثة (تيامات) فشق جسمها نصفين متطابقين، صنع السماء من أحدهما والأرض من النصف الآخر. وبعد أن عيَّن للآلهة الكبار (آنو، أنليل، أنكي) الأجزاء التي يحكمونها من الكون وحدد أماكنهم في السماء قرر تقسيم الآلهة إلى مجموعتين: الأولى والأكبر في السماء والأخرى في الأرض. وأما الإنسان، فإن (مردوخ) يأمر بخلقه، ولكن الخالق الحقيقي حسب الاختصاص بقي (أنكي). ومادة الخلق هنا هي الطين: التراب ودم أحد الآلهة (كنكو- الشرير) بعد ذبحه. كما بقي هدف ودوافع خلق الإنسان نفسه، شكوى صغار الآلهة من عناء العمل المضني تحت ضربات سياط الآلهة الكبار، وإيجاد بديل (الإنسان) للعمل وخدمة الآلهة(١٦).

وعرفاناً بفضل مردوخ وبطولته، عمل آلهة الأنوناكي طوال عام واحد في تشييد بيت يليق بمقامه، فأقاموا معبده العظيم (أي- ساقلا) في بابل. وبعد أن تم ذلك اجتمع الآلهة في حفل وليمة عزفت فيها الموسيقى وقدمت الجعة ورتل الآلهة بمديح مردوخ وتمجيده، وتنازلوا له عن أسمائهم وصفاتهم، فصار لـ (مردوخ) خمسون اسماً، وتنتهي القصيدة بترتيل يُرتل تمجيداً لإله بابل في عيد رأس السنة(١٧).

رغم صعوبة إعطاء تفسير أُحادي لما تعكسه أحداث الأسطورة من معانٍ ومضامين، لكنها تكشف عدداً من الأمور التي قد تجد اتفاقاً عاماً: الثأر والعنف والحروب، الحكم المطلق والملكية الاستبدادية وفق المعتقد الديني (التفويض الإلهي)، خلق الإنسان من الطين: التراب والماء أو دم إله شرير، غاية خلق الإنسان العبودية للآلهة والطاعة المطلقة لنائب الآلهة (الملك).. وبموجب الأسطورة البابلية تكون المادة الاولى ذات طبيعة ثنائية، إذ كانت مادة وإلهاً في نفس الوقت، أي أن المادة أزلية منذ البدء.. هذا على خلاف الأديان الرئيسة حيث أن وجود الخالق أزلي سبق وجود المادة التي أوجدها(١٨). لكن معرفتهم الثنائية لطبيعة المادة، رغم أنها تشكل فكراً معاصراً، قامت على فلسفة ميتافيزيقية لم يُكتب لها التحرك والتطور في غياب منهج التفكير العلمي.

٢- أساطير خلق أخرى

وردت أساطير خلق أُخرى قصيرة. ففي "أسطورة أصل الآلهة" تم ترتيب ظهور الآلهة في شكلها البابلي على هيئة زوجين ذكر وأنثى والاتصال الجنسي بينهما بزواج الولد من أمه وقتل أبيه؛ وزواج الأخت من أخيها وقتلها لأمها..[١٩]

وفي "أسطورة الهبوط" التي تنتمي إلى مجموعة أساطير أنليل إله الجو، وترد في صيغ عديدة، تتضمن معاشرته لـ (ننليل)- قبل أن تصبح زوجته- فجاءت نتائج هذه المعاشرة ولادة المطر والفيضان وخصوبة الأرض وإخصاب العائلات البشرية[٢٠]. وفي صيغة أُخرى يقوم أنليل باغتصابها فيُحكم من قبل مجلس الآلهة بالنفي إلى العالم الأسفل. وتشير إلى انحدار مركز (أنليل) في مرحلة الانتقال من الزراعة المطرية في الشمال إلى الزراعة المروية في الجنوب[٢١]. وفي صيغة ثالثة تتم الخطبة والزواج ويطلق انليل عليها سيدة الهواء[٢٢].

وبعد وصف أرض دلمون- البحرين في أسطورة "أنكي وننخرساك": غزيرة المياه، عالية الخصوبة، كثيرة الخيرات، ذات زرع وحقول وبساتين، والتي جعلها أنكي أرضاً طاهرة... تتحدث الأسطورة عن حصول جماع بين أنكي والإلهة ننخرساك ثم مجامعته لابنته، ثم حفيدته.. وهكذا في ظل ولادات سريعة. وفي آخر جِماعه بابنة لحفيدته تلد ثمانية أنواع من النباتات والأشجار. وعندما شاهدها (أنكي) أراد معرفة ماهيتها، فأمر رسوله (أسيمود)- ذات الوجهين- أن يقطعها ويأكلها، وعندئذ غضبت (ننخرساك) ولعنت (أنكي) وأحلّت به الأمراض. ومن خلال وساطة ناجحة للثعلب تحضر (ننخرساك) لمجمع الآلهة في دلمون وتشفي (أنكي) من علله بعد أن غفرت له إساءته "وأخذته وأجلسته على فرجها "، فعاد انكي وتبوأ مركزه السامي بين الآلهة[٢٣].

وتتحدث "أسطورة أنكي وتنظيم الكون" عن قيام أنكي- إله المياه والمعرفة والحكمة- بجولة في أقاليم الأرض المعروفة آنذاك بدءاً من بلاد سومر لإسباغ بركاته ونشر الحضارة فيها. وأخذ بعد ذلك بتنظيم أحوال الأرض وأنهارها وبحارها، فملأ نهري دجلة والفرات بالمياه العذبة والأسماك، وأوجد أحراش القصب والآجر والحيوانات. ومن أجل تنظيم المجتمع البشري نصب إلهاً لكل ناحية من نواحي النشاط الحضاري،

فمثلاً خصص للإشراف على الفلاحة والزراعة الإله (اينمكدو) والخضار والغلال الإله (أشنان) والماشية والرعي الإله (دموزي)- تموز.. وهكذا..[٢٤]

وتتطابق " أسطورة تمجيد عشتار" مع عصر ما قبل التاريخ والعصور التاريخية المبكرة، وتتضمن محاولة إعادة هيبة (آنو)- إله السماء من قبل كهنة (الوركاء)- مركز عبادة (آنو). تتناول كيف أن (آنو) أشرك ابنته الإلهة (عشتار) في تاجه بعد فترة حب طويلة لها. واعترافاً بجميلها رغب أن يرفعها إلى درجة المساواة معه، بناء على نصيحة مجمع الآلهة، وأمر أن يكون اسمها بعد الزواج منها (أنتو)- صيغة المؤنث لـ (آنو). وبعد أن مُجِّدت (عشتار) وبُجِّلت احتلت مكاناً مهما في السماء، حيث مقر (آنو)، ثم شُخصت بالكوكب السيار (الزهرة)[٢٥].

وفي "أسطورة نقل النواميس الإلهية إلى الوركاء" قصة تحايل عشتار- أنانا لحيازة (النواميس الإلهية) من أنكي- أيا المختص بحيازتها، ونقلها لمدينتها الوركاء- أوروك، والتي تشكل العناصر الأساسية للحضارة والمدنية من بينها: السيادة والألوهية، نظام الحكم والتاج والصولجان، وظيفة الكهانة، الصدق والخداع والتزوير، الفن والموسيقى، العداوة والبغضاء، الصدق والأمانة، الصلاح والعدل، الطوفان، الجماع والبغاء، وطائفة من الحرف والصناعات المختلفة مثل النجارة والحدادة والبناء والحياكة.. ونجاحها في مهمتها بعد أن أكثرت له الشراب[٢٦].

وتحدثت "أسطورة ننورتا" عن الكفاح الذي خاضه الإله ننورتا ابن أنليل ضد قوى الشر وانتصاره عليها. منح الصخور التي حاربت معه أحسن الأسماء (الرخام، اللازورد، المرمر..) حيث تستعمل في زخرفة القصور والمعابد ومواد للتماثيل والهياكل الخاصة بالآلهة. بينما أعطى الصخور التي حاربت ضده أردأ الأسماء فصارت تستعمل في بناء عتبات الأبواب وتدوسها الأقدام[٢٧]!

وتعود أسطورة "تعويذة الولادة- خلق الإنسان" السومرية الأصل إلى عصر أنكي، وتتضمن جوانب من آراء القوم في خلق الإنسان من قبل (مامي)- إلهة الخلق (من أسمائها: ننيتو، نبيتو، ننخرساك). وبطلب من أنكي والآلهة الأُخرى تم خلق الإنسان من الطين (التراب) بعد خلطه بدم أحد الآلهة المضحى به لهذا الغرض. وهي تشبه في هذه النقطة ملحمة الخليقة البابلية[٢٨].

وتُعبر أسطورة " تعويذة خاصة بوجع الأسنان" عن عصر الآلهة الكبار. "من بعد أن خلق الإله انو السماء، خلقت السماء الأرض، وخلقت الأرض الأنهار، وخلقت الأنهار الجداول والقنوات، وخلقت الجداول الأهوار، وخلقت الأهوار الدودة".. ذهبت الدودة للإله شمش و انكي وقالت "ماذا تعطيني لطعامي؟ وما تعطيني لأمتصه؟" أجابها أنكي "سأعطيك التين الناضج والمشمش"، قالت "وما جدوى التين الناضج والمشمش لي؟ ضعني في الأسنان، واجعل مسكني اللثة، لكي أمتص دم الإنسان، وأقرض اللثة وآكل جذورها". ووفق هذا المعتقد يقوم الكاهن بعمل تعويذة للمريض الشاكي ألماً في أسنانه تتضمن: "لأنكِ قلتِ هكذا يا دودة فليحطمكِ الإله أيا[٢٩]".

٣- ملاحم البطولة (ملحمة كلكامش)

تعود في أصلها إلى عدة قصص سومرية تتناول ملحمة كلكامش في أجزاء متفرقة يعود الفضل في دمجها إلى الشاعر البابلي الذي شكل منها ملحمة رائعة متكاملة تميزت بشهرتها وانتشارها الواسع في العالم القديم. "... جلجامش أفضل قصيدة ملحمية عبر العصور بما في ذلك إلياذة هوميروس. وهي تسبق الإلياذة بألف وخمسمائة سنة[٣٠]"، وتربعت القمة بين شوامخ الأدب العالمي. ومع أنها دونت في صيغتها البابلية في حدود ٢٠٠٠ ق.م إلا أن أحداثها تعود إلى عهد أقدم، لذلك تعتبر أقدم الملاحم البطولية في تاريخ جميع الحضارات. ورغم هذه المسافة الزمنية البعيدة فإنها بقيت حية خالدة تتمتع بالجاذبية لارتباط أحداثها بقضايا دنيوية لا زالت تشغل بال الإنسان المعاصر وتؤثر في مداركه العقلية والعاطفية، بما في ذلك لغز الحياة والموت والخلود، الحب والكره، الصداقة والوفاء، المخاطرات والمغامرات.. من هنا استحقت ملحمة كلكامش تسمية (أوديسة العراق الخالدة)[٣١]. هذه "القصيدة البطولية التي يستطيع قارئها أن يثق بنفسه في السيطرة على سامعيه." ويقول سبايزر "إن ملحمة جلجامش تتعامل مع أشياء من عالمنا الدنيوي مثل الإنسان والطبيعة، الحب والمغامرة، الصداقة والحرب، وقد أمكن مزجها جميعاً ببراعة متناهية لتكون خلفية لموضوع الملحمة الرئيس ألا وهو (حقيقة الموت المطلقة). إن الكفاح الشديد لبطل الملحمة من أجل تغيير مصيره الإنساني المحتوم، عن طريق معرفة سر الخلود من رجل

الطوفان، ينتهي بالفشل في نهاية الأمر، ولكن مع ذلك الفشل يأتيه شعور هادئ بالاستسلام. ولأول مرة في تاريخ العالم تجد تجربة عميقة على مثل هذا المستوى البطولي تعبيراً بأسلوب رفيع. إن مدى الملحمة وقوتها الشعرية العارمة جعلها تنال إعجاب الناس في كل العصور. ففي العصور القديمة انتشر أثر هذه الملحمة الشعرية إلى لغات ومراكز حضارية عديدة، واليوم تستحوذ على الشعر وعشاقه على حد سواء." يُضاف إلى ذلك أن الملحمة واجهت نهايتها المحزنة ببديل اجتماعي مؤثر. فإذا كان الخلود مستحيلاً للإنسان لأن الآلهة استأثرت به، فباستطاعته أن يُخلِّد بأعماله ومآثره[٣٢]. وتجمع هذه الملحمة عدة أساطير: ملوكية كلكامش، صداقته لغريمه انكيدو ومغامراتهما، ثم موت أنكيدو، ورحلة كلكامش بحثاً عن الخلود وقصة الطوفان، وأخيراً موت كلكامش.

اشتهر كلكامش في أدب وادي الرافدين كونه من أبطال الملاحم. وكان شخصية تاريخية واقعية حسب قائمة الملوك السومرية (خامس ملوك السلالة الأُولى لمدينة الوركاء) رغم معرفة القليل عنه. ويُرجح أنه حكم في حدود ٢٦٠٠- ٢٥٠٠ ق.م.[٣٣]

كان كلكامش ملك وكاهن مدينة الوركاء. أُمه الإلهة (ننسون) وأبوه الكاهن الأعلى لإحدى مقاطعات المدينة (كلاّب). وصفته الملحمة بطلاً ضخماً شجاعاً وطموحاً، ورمزاً للقوة والإقدام، ورجل المغامرات والمخاطرات. تميّز بخبرته وحكمته ومعرفته بخفايا الأمور وأسفاره البعيدة التي "أحلّت به الضنى والتعب فنقش في نصب من الحجر كل ما عاناه وخبره... وبنى أسوار الوركاء ومعبدها المقدس (إي- أنا) وهو عمل لم يُضارعه فيه الملوك... وكان كلكامش على أتم ما يكون من الخَلق وكمال الصورة، فقد حباه شمش السماوي بالحسن، وخصَّه الإله (أدد) بالبطولة... ثلثاه إله وثلثه الباقي من مادة البشر[٣٤]".

ولكن رغم صفاته تلك وحمايته لأهل مدينته من الاعتداءات الخارجية حتى وصف بـ (الراعي)، فقد عُرف بغطرسته وقسوته وظلمه لأهل أوروك علاوة على فجوره وفسوقه، فلم "يترك ابناً طليقاً لأبيه، ولم يدع عذراء طليقة لحبيبها ولا ابنة المقاتل ولا خطيبة البطل[٣٥]". هذه الأفعال أثارت عليه حفيظة واستياء أهل مدينته فشكوه للآلهة. استمع إله السماء آنو لشكواهم وأمر (أورورو)- إلهة الخلق- وقال لها "يا

(أورورو) أنتِ التي خلقتِ هذا الرجل بِأمر (أنليل) فاخلقي الآن غريماً له يضارعه في قوة العزم وليكونا في صراع دائم حتى تنال (أوروك) السلام والراحة[٣٦]". رضخت (أورورو) لأمر (آنو). أخذت قبضة من الطين ورمتها في البرية فخلق منها (أنكيدو) الصنديد، ونشأ مارداً متوحشاً يجلل الشعر جسمه، لا يعرف العمران، يرعى الكلأ مع الظباء ويرتاد الماء مع وحوش البرية. وهنا تبدأ قصة كلكامش وأنكيدو[٣٧].

وفي أحد الأيام يراه صياد مذعور من بعيد وقد قطع أنكيدو شباك صيده، ففهم سبب تخريب الفخاخ التي ينصبها وهروب الطرائد من بين يديه. قصَّ الصياد الحادثة على أبيه الذي نصحه بإخبار كلكامش وأوضح له الطريقة التي ينبغي لـ كلكامش أن يتبعها لمعالجة الأمر. وبعد أن سمع القصة واقتنع بالنصيحة، قال كلكامش للصياد "انطلق أيها الصياد واصطحب معك بغياً مومساً وحينما يأتي انكيدو إلى مورد الماء لسقي الحيوان دعها تخلع ثيابها وتكشف عن مفاتن جسمها، فإذا ما رآها انجذب اليها، وعندئذ ستنكره حيواناته التي ربيت معه في البرية[٣٨]".

تصرَّف الصياد وفق الخطة، سار مصطحباً البغي حتى وصلا مورد الماء، ولما جاء أنكيدو مع الحيوانات، قال للبغي "هذا هو أيتها البغي فاكشفي عن نهديك ومفاتن جسمك ليتمتع بها... فأسفرت البغي عن صدرها وكشفت عن عورتها وتمتع بمفاتن جسمها..." ولبث أنكيدو معها ستة أيام وسبع ليال "وبعد أن قضى حاجته منها وأراد اللحاق بإلفه من حيوانات البرية أنكرته وهربت منه، وخذلته رجلاه لما هَمَّ أن يطاردها ويلحق بها". وهكذا زالت القوة الوحشية عن أنكيدو ولكنه أصبح "فطناً واسع الحس والفهم[٣٩]".

اضطر أنكيدو للرجوع للبغي التي قالت له "أصبحت الآن يا أنكيدو عارفاً حكيماً مثل إله، فعلامَ تتجول مع حيوانات البرية؟ تعال أُقدمك إلى (أوروك) ذات الأسوار، إلى بيت آنو عشتار حيث يعيش كلكامش المكتمل القوة والمتسلط على الناس كالثور الوحشي." وافق أنكيدو وقال "هلمّي أيتها البغي، خذيني إلى البيت المشوق، مسكن آنو عشتار، إلى حيث يحكم كلكامش وسأتحداه وأُنادي وسط أوروك! أنا الأقوى! أنا الذي سأُبدل المصائر[٤٠]".

وفي هذه الأثناء يحلم كلكامش ويقص حلمه على أُمه فتفسر مغزى الحلم أن غريماً له سيظهر عن قريب وسيكون مماثلاً له في البأس والقوة ولكنه سيصبح رفيق عمره

الذي لا يخذله[٤١]. وتأخذ البغي بيد أنكيدو "كأنها أمه" وتقوده إلى أوروك حيث يتعلم أمور التمدن العامة: يستحم ويقص شعره ويطيب جسمه بالزيت ويأكل الخبز ويشرب الخمر. وهكذا هيأته على مدى ستة أيام وسبع ليال. وبمناسبة حصول تجمع في مركز المدينة (الزواج المقدس) يلتقي البطلان ويجري صراع هائل بينهما يشبه مغامرات هرقل الإغريقي (بطل الأساطير الدينية الإغريقية الذي اشتهر بمغامراته الحربية مع الوحوش والآلهة).[٤٢] ورغم رجحان كفة كلكامش في النهاية لكنه هدأ وترك خصمه.. ولما استدار ليمشي كلّمه أنكيدو قائلاً له: رفع أنليل رأسك عالياً بين الناس وقدَّر إليك الملكية بين البشر[٤٣].

بعد أن أصبح البطلان صديقين حميمين، عزم كلكامش على القيام بحملة إلى (غابات الأرز) لتخليد اسمه والترفيه عن صاحبه الذي يبدو أنه سئم حياة الحضارة وأخذ يحن إلى حياته الأولى يوم كان طليقاً في البوادي. اتفق الصديقان على الرحلة، رغم ما أبداه أنكيدو من مخاوف، خاصة وأن الإله أنليل قد وكَّل على الغابة مارداً لحراستها هو العفريت (خمبابا) الذي "زفيره عباب الطوفان وفمه نفاث ألسنة اللهب وأنفاسه الموت الزؤام." وكان خمبابا، لأسباب غير معروفة، عدواً للإله شمش[٤٤]. ويُحتمل أن هذه القصة في دوافعها العملية تعكس صدى المحاولات القديمة جداً للحصول على الأخشاب غير المتوفرة في البلاد[٤٥].

أوعز كلكامش للصناع الحرفيين صنع عدة الحرب اللازمة لهذه الرحلة وجاءت ضخمة بما يناسب قوة البطلين. ثم اتجه نحو مجلس الشيوخ وخاطبهم "سأمد يدي وأقص الارز فأُسجل لنفسي اسماً خالداً." وأمام إصرار كلكامش وافق المجلس على رحلته بعد تردد وأمدَّه بالنصائح[٤٦]. وقبل أن يشرع بالسفر زار مع أنكيدو معبد أمه الإلهة ننسون ليسألها الشفاعة والبركة والنجاح في مهمته.. استجابت له ننسون ورفعت يديها إلى الإله شمش وخاطبته بقولها "علامَ أعطيت ولدي كلكامش قلباً مضطرباً لا يستقر؟ والآن حثثته على السفر بعيداً إلى موطن خمبابا. فإلى أن يذهب ويعود ويبلغ غابة الأرز ويقتل خمبابا ويمحو من الأرض كلَّ شرٍ تمقته، عسى أن تذكرك عروسك (اي) باليوم الذي ترجعه فيه، ولتوكل به حراس الليل والكواكب وأباك سين حين تحتجب أنت في المساء..."[٤٧] ثم دعت أنكيدو بحضور الكاهنات والبغايا والمتبتلات

وأوصته قائلة "يا أنكيدو القوي الذي ليس من رحمي قد اتخذتك منذ الآن ولداً... ها أنا أئتمنك على ولدي فأرجعه إليَّ سالماً[٤٨]". وبعد سفر شاق وطويل بلغا غابة الأرز ليلاً ومكثا خارجها.[٤٩] وفي الصباح دخل البطلان الأرض المحرَّمة (غابة الأرز) وشرع كلكامش بقطع أشجار الأرز. سمع العفريت خمبابا فهاج وهجم عليهما، وحلَّ الرعب بالبطلين، وكاد أن يفتك بهما لولا تضرعهما للإله شمش واستجابة الإله لدعائهما بتسليطه الرياح العاتية على خمبابا فسببت له الشلل التام وتمكنا من قتله[٥٠].

عاد البطلان إلى أوروك وشاركا باحتفالات النصر التي أُقيمت لهما، وكان كلكامش في أبهى ملابسه وحلله والتاج على رأسه، فلما وقعت عينا عشتار عليه هامت به وخاطبته بقولها "تعال يا كلكامش وكن عريسي المختار، وامنحني ثمرتك أتمتع بها... سأعد لك مركبات من حجر اللازورد والذهب... وستربط لجرهما شياطين الصاعقة بدلاً من البغال. وفي بيتنا ستجد شذى الأرز يعبق فيه إذا ما دخلته. وستُقبِّل قدماك العتبة والدكة. سينحني لك الملوك والحكام وسيقدمون لك الأتاوة من نتاج السهل والجبل وستلد عنزاتك ثلاثاً وتلد نعاجك التوائم..." رفض كلكامش عرض عشتار، بل وعدَّ عليها مثالبها وعيوبها وأهانها وذكَّرها بغدرها لعشاقها السابقين وفي مقدمتهم (دموزي)- تموز الذي أنزلته إلى العالم الأسفل (ف١٦/٥)[٥١].

غضبت عشتار وذهبت شاكية لسماء أبيها آنو، وبناء على إصرارها، خلق لها ثوراً سماوياً هائلاً وسلَّمه اليها فأنزلته إلى أوروك وأخذ يفتك بأهلها. وعند ذاك انبرى البطلان لمصارعته. وهنا تصف الملحمة وضعاً شبيهاً بمصارعة الثيران في إسبانيا[٥٢]. نجحا في قتل الثور بعد صراع عنيف وطويل. وفي هذه الأثناء كانت عشتار تراقب المنظر من معبدها وتلعن حاكم أوروك الذي قذفها بفخذ الثور. فراحت ومعها بغايا المعبد تندب موت الثور[٥٣].

كان هذا السلوك أكبر من أن تتركه الآلهة يمر دون عقاب. فرأى أنكيدو حلماً- وهو يعادل الحقيقة في حضارة وادي الرافدين..[٥٤] ومضمونه أن الآلهة الثلاثة الكبار (أنو، أنليل، أنكي) ومعهم شمش اجتمعوا وتقرر في هذا الاجتماع القضاء على أحد البطلين، رغم اعتراض شمش:

لأنهما قتلا الثور السماوي وقتلا خمبابا
فينبغي أن يموت ذلك الذي اقتطع أشجار الأرز
ولكن أنليل أجاب: أنكيدو هو الذي سيموت
وكلكامش لن يموت.[٥٥]

حلَّ بـ أنكيدو مرض الموت، وأدرك قرب نهايته، ولازم الفراش وأخذت تمر عليه ذكريات الأيام الخوالي عندما كان سعيداً يتجول مع حيوانات البرية، فوجَّه لعناته للبغي داعياً عليها الإله شمش. ولما سمع الإله كلامه خاطبه من السماء موبخاً إياه قائلاً علامَ تلعن البغي يا أنكيدو؟ تلك التي علَّمتك كيف يُؤكَل الخبز اللائق بالألوهية، وسقتك خمراً يليق بالملوكية، وأعطتك كلكامش الوسيم خلاً وصاحباً. ولما سمع أنكيدو كلام شمش بدَّل لعناته إلى بركات..[٥٦] ولكن هيهات[٥٧]!

اشتد مرض أنكيدو ورأى قبل موته حلماً آخر تكشَّف له فيه عالم الأموات، فقصَّ حلمه على كلكامش وكيف ظهر أمامه مخلوق مخيف مثل طير الصاعقة (زو) عرّاه من ملابسه وأخذ بخناقه حتى خمدت أنفاسه، ثم بدَّل هيئته وصارت يداه مثل جناحي الطائر مكسوتين بالريش، وقاده إلى دار الظلام- مسكن (إيراكلا)- البيت الذي حُرم ساكنوه من النور، حيث التراب والطين قوتهم وهم مكسوون بأجنحة من الريش[٥٨]. وشاهد في هذا العالم الملوك وقد نُزِعَتْ تيجانهم وكُدِّسَتْ على الأرض[٥٩]. وأخيراً مات انكيدو فحزن كلكامش على صديقه وبكاه ستة أيام وسبع ليال قبل أن يواري جثمانه التراب "حتى نزلت دودة من أنفه (أنكيدو)[٦٠]". وبعد أن وسده اللحد هام كلكامش على وجهه في البراري محاولاً الهروب من المصير الذي حلَّ بصاحبه، وقام برحلة بعيدة وشاقة إلى(أوتو- نبشتم) بطل قصة الطوفان (في صيغتها البابلية) ليسأله عن سر الحياة وكيف استطاع نيل الخلود ودخول مجمع الآلهة[٦١].

صار شبح الموت يلاحق كلكامش ويفزعه بعد موت انكيدو. هل سيختفي مثلما اختفى صاحبه؟ أم سيكون بوسعه تجاوز هذا المصير المرعب!؟

"خائفاً من الموت أجوب السهوب
وقد أقضت مصيبة أخي مضجعي
كيف أستطيع السكوت وكيف أبقى ساكتاً

صديقي الذي أحب عاد إلى الطين

هل يتوجب، عليَّ أنا أيضاً، أن أرقد مثله

كي لا أستيقظ أبد الآبدين [٦٢]؟

أخذ كلكامش طريقه إلى (اوتو- نبشتم)، سائراً في البراري يصطاد الحيوانات لتوفير غذائه ولباسه. وبعد سفر طويل صعب محفوف بالمخاطر والأهوال لما واجهه من مخلوقات وأشجار وظروف غريبة مذهلة ومرعبة، بلغ ساحل البحر فوجد هناك صاحبة الحانة (سدوري) التي أوصدت أبوابها حالما لمحته من بعيد بسبب هيأته الغريبة. وبعد أن عرَّفها بشخصيته، حاورته قائلة "إن كنت حقاً كلكامش... فَلِمَ ذبلت وجنتاك ولاحَ الغمُّ على وجهك واستبدَّ بك الحزن وتبدَّلت هيئتك". وبعد أن أخبرها بموت صاحبه وحزنه عليه وفزعه من الموت، سألها بقوله "فيا صاحبة الحانة أيكون في وسعي أن لا أرى الموت الذي أرهبه؟[٦٣]" وهنا تُقدم سيدوري له نصيحة دنيوية بالكف عن الحزن والتجوال، محببة إليه الاستمتاع بملذات الحياة:

إلى أين تسعى يا كلكامش

إن الحياة التي تبغي لن تجد

حينما خلقت الآلهة البشر

قدرت الموت على البشر

واستأثرت هي بالحياة

أما أنت يا كلكامش فليكن كرشك مملوءاً على الدوام

وكن فرحاً ليل نهار

وأقم الأفراح في كل يوم من أيام حياتك

وارقص والعب نهار مساء

واجعل ثيابك نظيفة زاهية

واغسل رأسك واستحم بالماء

ودلل الطفل الذي يمسك بيدك

وافرح الزوجة التي بين أحضانك

وهذا هو نصيب البشرية.. [٦٤]

كما أخبرته تعذر الوصول إلى أوتو- نبشتم لأن مياه بحر الموت تحول دونه. لكنها أرشدته إلى ملاح رجل الطوفان (أور- شنابي) الذي ساعده في عبور بحر الموت بقارب ركباه معاً فوصلا حيث يقيم بطل الطوفان[٦٥]. وبعد أن علم رجل الطوفان بسبب مجيء كلكامش أخبره بحتمية الموت وعبث ما يسعى إليه الإنسان من خلود، وقال اوتو- نبشتم:

"إن الموت قاسٍ لا يرحم
متى بنينا بيتاً يدوم إلى الأبد؟
وهل ختمنا عقداً يدوم إلى الأبد؟
وهل يقتسم الأخوة ميراثهم ليبقى إلى آخر الدهر؟
وهل يرتفع النهر ويأتي بالماء على الدوام
والفراشة لا تكاد تخرج من شرنقتها فتبصر وجه الشمس حتى يحل أجلها
لم يكن دوام وخلود منذ القدم[٦٦]
ويا ما أعظم الشبه بين النائم والميت ألا تبدو عليهما هيئة الموت؟
ومن ذا الذي يستطيع أن يميز بين العبد والسيد إذا وافاهما الأجل!
إن آلهة الانوناكي تجتمع مسبقاً ... تقدر المصائر.
لقد قسموا الحياة والموت، ولكن الموت لم يكشفوا عن يومه[٦٧]" .

سأل كلكامش رجل الطوفان كيف استطاع هو (أوتو- نبشتم) الحصول على الخلود، رغم أنه بشر مثله، بل وأضعف منه. وتشكل إجابة اوتو- نبشتم قصة الطوفان. ومن المفيد التعريف بها أولاً..

(الطوفان) قصة حية تتكامل مع ملحمة كلكامش. ورد خبره في قائمة الملوك السومرية، حيث تضمنت أن الطوفان جرف البلاد بعد حكم مدينة (شروباك)- تل فارة على بعد ١٤٠ ميل جنوب شرق الديوانية. واعتبر هذا الحدث حداً فاصلاً بين عهدين متميزين في تاريخ وادي الرافدين:ما قبل وما بعد الطوفان. كما "أن ما يذهل القارئ الصورة الحية لشخصيات الآلهة التي تضفي عليها صفات الإنسان البدائي والصراحة في وصف هيجانها وغضبها...[٦٨]".

ومن الناحية التاريخية تشكل القصة الأكثر قِدَماً، إذ استقرت فكرة الطوفان في وجدان العالم القديم. والمعتقد أنها ترجع في أصولها إلى الفيضانات العارمة للنهرين

الكبيرين (دجلة والفرات). وذهب الباحث الأثري المعروف وولي، الذي نقَّب في أور، إلى احتمال وقوع هذا الطوفان في حدود ٤٠٠٠ ق.م[٦٩]. كما واستنتج العالم الفرنسي والخبير الجيولوجي ج.دي مورغان J.DE MORGAN، الذي ترأس بعثة التنقيب الفرنسية في (سوس)- بلاد عيلام- إيران، أن قصص الطوفان تُخلِّد ذكرى فيضان حدث بدرجة من الجسامة لا يمكن نسيانها وذلك في آخر عصر جليدي يرجع تاريخه إلى ٨٠٠٠ سنة من الآن[٧٠].

أما آثار هذه القطعة الأدبية فيكاد ينعقد الإجماع بين الباحثين على أن خبر الطوفان الوارد في الكتب المقدسة، بدءاً بالتوراة، هو نفسه الوارد في مآثر وأدب وادي الرافدين[٧١]. يذكر جورج رو "تتماثل قصة الطوفان إلى حد يبعث على الدهشة مع تلك التي ترد في الكتاب المقدس (سفر التكوين ١١،٥٠- ٨٠، ٢٢..)" وهذا يدلل على وجود "احتمال كبير أن العبرانيين استعاروا هذه الأسطورة، التي كانت تشكل تراثاً ثابتاً لدى سكان وادي الرافدين، من العراق، فضمنوها كتابهم المقدس...[٧٢]".

وجِدَتْ قصة الطوفان في ثلاث روايات رئيسة تتشابه في خطوطها العامة والعديد من تفاصيلها. بدأت في أصلها مأثرة أدبية سومرية ثم ضُمَّت إليها أو عُدِّلت وطورت وأُخرجت بصيغة بابلية، كما هو حاصل في أدب حضارة وادي الرافدين بعامة. وأولى تلك الروايات بطلها (زيوسيدرا) الذي أنقذ البشرية من طوفان شمل الأرض كلها حسب مفهوم القوم. والثانية بطلها أوتو- نبشتم، محل العرض، والثالثة وأكثرها تفصيلا بطلها (أتراحاسيس) الذي يقوم بدور مشابه في إنقاذ البشرية.

كانت عقوبة الطوفان في رواية أتراحاسيس آخر سلاح تلجأ إليه الآلهة للحد من تكاثر البشرية التي أخذت ضوضاؤهم وصخبهم تقض مضجع الآلهة وتحرمها من الراحة والهدوء (وهي نفس المشكلة التي دفعت الآلهة القديمة في محاولتها تصفية الآلهة الحديثة- قصة الخليقة البابلية). ويظهر أن أنليل- إله الجو/ الرياح، كان المحرض على قيام الآلهة بمجموعة خطوات متلاحقة الغرض منها الفتك بالبشرية وإهلاكهم. ففي المرة الأولى أقنع أنليل الآلهة بإنزال الأمراض والأوبئة وفوضت (نمتار)- الإله الموكل بالأمراض والأوبئة- تنفيذ خطتها. فانتشر الوباء في البلاد "وأخذ يلتهم الناس التهاماً." وعندئذ استنجد أتراحاسيس بـ أنكي/ أيا لتخليص الناس من هذا الهم.

جاءت توصية أنكي بناء معبد للإله نمتار وتقديم الهدايا والنذور له "وعندئذ سوف يرفع نمتار يده عنهم." وبمرور فترة زمنية أُخرى وتكاثر أعداد الناس من جديد وازدياد صخبهم وضجيجهم، قرر أنليل أن يعاقبهم بالجفاف والقحط والمجاعة، وهكذا أصدر أوامره للآلهة: أدد لحبس المطر، أنكي لمنع المياه الجارية، نيسابا- إلهة الحنطة "أن تمنع فيض ثديها". حلّت المجاعة بين الناس لمدة ست سنوات متوالية (وهنا فكرة مشابهة للحلم الذي رآه يوسف في مصر- قصة يوسف). فلم ينبت الزرع، وسادت المجاعة وفتكت الأمراض بالناس، وأصبحت الأجسام ضامرة، وتوقفت الولادات، وأصاب الناس الجرب، وتشوهت ملامحهم "اتخذوا من البنت عشاء لهم. واتخذوا من الولد غداء لهم.. لكنهم لم يشبعوا. حتى التهم كل جار جاره. وكان الناس أحياء ولكن على حافة الموت.(٧٣)". يبُادر أنكي مرة أُخرى إلى الإشفاق على الناس وإنهاء مصيبتهم فيسمح بتدفق المياه من العمق. وبهذا التصرف عرض نفسه لغضب أنليل الذي صمَّم هذه المرة أن تؤدي جميع الآلهة القسم لإرسال الطوفان وتدمير الأرض ومن عليها.

شروباك مدينة أوتو- نبشتم ابن ملك المدينة(٧٤)، التي كانت مقراً لإقامة الآلهة الذين اجتمعوا بحضور الثلاثة الكبار (أنو، أنليل، أنكي). وبتحريض من أنليل صدر قرارهم لإفناء البشر بتسليط الطوفان عليهم. لكن أنكي بادر منذ البداية إلى الوقوف إلى جانب البشر، ونقل قرار الآلهة بشكل غير مباشر لـ أوتو- نبشتم "يا كوخ القصب! يا كوخ القصب! اسمع يا كوخ وافهم يا حائط. يا رجل شروباك، يا ابن أوبار- توتو، قوّض بيتك وابنِ لك فُلْكاً. تخلَّ عن مالك واطلب النجاة. انبذ الملك وانجُ بحياتك، واحمل في السفينة بذرة كل ذي حياة. والسفينة التي تبني اضبط قياسها. ليكن عرضها مساوياً لطولها، واختمها جاعلاً إياها مثل مياه الـ أبسو(٧٥)". ولما سمع رجل شروباك (اوتو- نبشتم) تصدَّع للأمر، وفهم قرب حدوث الفيضان وكيف يتصرف. صنع السفينة بمساعدة أهل المدينة في سبعة أيام وجهَّزها بالمؤن والمتاع، وأدخل فيها من كل حي بذرة، علاوة على أهل بيته وذوي قرباه(٧٦).

كما عيَّن الإله شمش له موعداً بقوله "حينما ينزل الموكل بالعواصف أمطار الموت والهلاك في المساء فادخل السفينة واغلق بابها." ولما حان الوقت المحدد سقط المطر المهلك "فولجتُ في السفينة وأغلقت بابي..." وفي هذه الأثناء أخذ كل من آلهة السماء

والأرض دوره في إطلاق الفيضان ليصل أقصى حالاته من رعود مزمجرة تصل عنان السماء وزوابع وأمطار غزيرة، علاوة على إطلاق مياه العمق. فدمرت المساكن والأبنية والسدود، وساد الظلام الداكن "وصار الأخ لا يبصر أخاه، والناس لا يُميِّزون من السماء".. حتى الآلهة ارتعدوا من شدة الهول فأخذوا يتراجعون إلى خلف حتى وصلوا سماء انو "لقد استكان الآلهة وربضوا كالكلاب خارج الجدار(٧٧)".

استمر الطوفان ستة أيام وسبع ليال، وفي اليوم السابع هدأت الأوضاع، نظر اوتو- نبشتم من فتحة صغيرة في سفينته إلى الجو فرأى السكون مطبقاً "ورأيت البشر وقد استحالوا جميعاً إلى طين... فسجدت وبكيت وانهمر الدمع على وجهي...(٧٨)". استقرت السفينة على جبل فمسكها الجبل ولم يدعها تجري. ويباشر رجل الطوفان في معرفة مدى إمكانية الخروج من السفينة والعودة للأرض، فأخرج حمامة وأطلقها فما لبثت أن عادت لأنها لم تجد محطاً لها، وحصل للسنونو نفس الشيء في المحاولة الثانية، وفي المرة الثالثة أطلق الغراب فطار ولم يعد بعد أن وجد مكانا يحط فيه(٧٩).

وحالما تأكد رجل الفيضان من إمكان العودة للأرض، أخرج ما في السفينة "وقرَّبتُ القرابين وسكبتُ الماء المقدس على قمة الجبل...وكدَّستُ أسفلها القصب والآس والأُرز فشمَّ الآلهة شذاها، وتجمعوا حولها كأنَّهم الذباب(٨٠)". ولما وصل أنليل قال غاضباً للآلهة "عجباً كيف نجتْ نفس واحدة وكان المقدر أن لا ينجو بشر من الهلاك؟" أجابه (ننورتا) بقوله "من ذا الذي يستطيع أن يقوم بهذا الأمر غير أيا..." وهنا قال أيا مخاطباً انليل "أيها البطل أنت أحكم الآلهة، فكيف لم تبصر فأحدثت الطوفان؟ حمِّل صاحب الخطيئة وزر خطيئته والمعتدي إثم اعتدائه، ولكن ارحم في العقاب لئلاً يمعن في الشر... أما أنا فلم أفشِ سر الآلهة ولكن جعلت أوتو- نبشتم يرى رؤيا فأدرك سر الآلهة، والآن تدبر أمره وقرر مصيره(٨١)". هدأ أنليل ولانَ وخفَّت سورة غضبه، ثم دخل السفينة وجعل رجل الطوفان وزوجته يسجدان أمامه ولمس ناصيتهما وباركهما قائلاً: "لم يكن أوتو نبشتم قبل الآن سوى أحد البشر، ولكنه منذ الآن هو وزوجته مثلنا نحن الآلهة، وسيعيش اوتانبشم بعيداً عند فم الأنهار."

وهنا يوجه أوتونبشتم كلامه إلى كلكامش: من سيجمع الآلهة من أجلك لتنال الحياة الخالدة؟ تعال أمتحنك "لا تنم ستة أيام وسبع ليال." لكن كلكامش أخذته سنة

النوم حال جلوسه، فالتفت بطل الطوفان لزوجته قائلا "انظري وتأمَّلي هذا الإنسان القوي الذي ينشد الحياة قد غلبه النوم." فاقترحت عليه زوجته إيقاظ كلكامش ليعود أدراجه من حيث أتى، لكن أوتونبشتم حذَّرها قائلاً "لما كان الخداع سمة البشرية فإنه سيخدعك. فاخبزي له أرغفة من الخبز وضعيها عند رأسه، والأيام التي ينام فيها انشريها على الجدار." فعلت ما أمرها. ولما كان الرغيف السابع لا يزال على الجمر لمس أوتونبشتم كلكامش فاستيقظ وقال له "لم تكد تأخذني سنة من النوم حتى لمستني فايقظتني." أجابه أوتونبشتم "يا كلكامش عدَّ أرغفتك ينبئك المؤشر على الحائط عدد الأيام التي نمتها."

عندئذ يئس كلكامش.. وأمر رجل الطوفان ملاحه أخذ كلكامش ليغتسل ويبدل ثيابه ويعود به إلى مدينته أوروك. وقبل أن يهمّا بركوب سفينة العودة، تشفَّعت له زوجة بطل الطوفان عند زوجها بأن لا يدعه يعود خائباً لبلاده. فكشف له أوتونبشتم سر نبات شوكي عجيب ينبت في أعماق البحر له خاصية سحرية في تجديد الشباب. نجح كلكامش في العثور على ذلك النبات وفرح وقال لرفيقه الملاح إنه سيحمله معه إلى أوروك ويشرك الناس معه ليأكلوه، وسيكون اسمه (يعود الشيخ إلى صباه كالشباب). أما هو فسيأكل منه في أواخر أيامه حتى يعود إلى شبابه. ولكن أثناء توقفهما في الطريق تسرق الحية منه هذا النبات وتأكله، فتنزع جلدها حالاً وأصبحت تجدد شبابها كل عام[٨٢]. حزن كلكامش بعد أن ضاعت عليه الفرصة الأخيرة لحصوله على الخلود. لكن الملاح يفتح عين كلكامش على طريق آخر لخلود الإنسان من خلال ما يتركه خلفه من عمل طيب ينفع الناس.

وفي خاتمة هذه الملحمة ترد قصة "موت كلكامش" وهي قصة سومرية الأصل يعود تدوينها للعصر البابلي القديم (الألف الثاني ق.م)، ورغم قلة ما تبقى من النص الأصلي فهي تلقي ضوءاً ساطعاً على جانب مهم من معتقدات القوم عن عالم الأموات.

تتلخص القصة في أن كلكامش أدرك الحقيقة ورضخ لحتمية الموت المقدرة على الإنسان. وهدأت نفسه بما منحه له الإله أنليل من الملوكية ورفعة الشأن والبطولة. وبعد موته تصطحبه أسرته وحاشيته: زوجته ومحظياته وأولاده وخدمه وأتباعه الذين ذهبوا معه إلى عالم الأموات، ومعه أيضاً الهدايا التي قدمها كلكامش إلى آلهة العالم

الأسفل وفي مقدمتهم ملكة هذا العالم إيريشكيكال. وهذه القصيدة تكشف مسألة جوهرية هي أن الأتباع الذين رافقوا كلكامش من أسرته وحاشيته دُفنوا أحياء على غرار ما كان يمارس في حضارة وادي الرافدين في إحدى الفترات المبكرة من عصر فجر السلالات بدفن حاشية الملك معه كما في مقبرة أور الملكية[٨٣].

٤- أساطير وقصص ملحمية أُخرى

تروي قصة (كلكامش و "أكا" حاكم كيش) أحداث الصراع بين كلكامش ملك الوركاء وبين اكا آخر ملوك سلالة كيش الأُولى، وكلاهما حكما في حدود منتصف الألف الثالث ق.م[٨٤]. وهي تصور أوضاع ذلك العصر الذي سادته الصراعات والحروب (عصر فجر السلالات- عصر دول المدن السومرية).

تبدأ القصة بقرار ملك كيش فرض نفوذه على الوركاء، وإرساله إنذاره لـ كلكامش بالخضوع إليه أو الحرب. يعرض كلكامش الأمر على مجلس شيوخه فيقرر الاستسلام تحاشيا للقتال والضحايا. فيذهب كلكامش لمجلس المحاربين الذي يتخذ قرار الحرب والتي تقع فعلاً. أما نهاية هذه الحرب فغير معروفة لإصابة النص بثغرات وخروم. لكن خطاب الثناء والمديح المرسل من كالكامش إلى أكا، يبين احتمال حصول صلح بينهما. تعتبر هذه القصة فريدة في الأدبيات السومرية. تعكس اهتماما قويا بالوجود البشري، وهي متحررة من أي تدخل إلهي[٨٥].

تتحدث "أسطورة الطائر زو" عن مخلوق غريب بهيئة طائر اسمه زو/ أنزو، وربما كان من آلهة العالم الأسفل. عُرف بشدة بأسه. وأثناء وجود أنليل- إله الجو في مرفق الماء للاغتسال، سرق زو منه ألواح القدر التي هي مصدر قوة الإله وسر قدراته. وبذلك تعطلت أقدار الكون وأصاب الآلهة الهلع والاضطراب. اضطر كبير الآلهة آنو إلى جمع أبنائه طالباً أن ينبري أحدهم لملاحقة زو واسترداد ألواح القدر، لكنهم أحجموا خوفاً من بطشه. وأخيراً تمكن أحد الآلهة من استرداد ألواح القدر من الطائر لا بالمواجهة المباشرة بل بالتحايل عندما دعا زو وزوجته وابنه إلى وليمة (طعام وشراب) استطاع أثناءها السيطرة عليه بعد إكثار الشراب له وتنفيذ خطته[٨٦].

تتعلق "ملحمة إيتانا" في الفكر السومري القديم بوراثة الحكم بوصفها قيمة من قيم الحضارة. فمن أجل منح البشرية النظام والأمن أنزلت الآلهة الملوكية من السماء على إيتانا التقي. كما أنها تعرض أقدم حلم للطيران عند الإنسان. وبطل الأسطورة (ايتانا) هو الملك الثالث عشر لسلالة كيش الأولى (تل الأحيمر) التي حكمت بعد الطوفان حسب قائمة الملوك السومرية. وذكرت أزاءه "إيتانا الراعي الذي عرج إلى السماء وموطد جميع البلاد[٨٧]". لم يكن له وريث رغم تقديمه القرابين، فدعا الإله شمش مساعدته للحصول على (حجر الولادة) أو (نبات النسل)[٨٨]. استجاب له شمش ونصحه أن يصعد إلى الجبل ليجد نسراً سيدله على (نبات النسل). وهنا تبدأ الأحداث الرئيسة للأسطورة، فتتحدث عن نسر وثعبان عقدا عهد صداقة ووفاء بينهما برعاية ومباركة شمش على أن يعيشا بسلام ووئام وتعاون. وصارا صديقين حميمين حتى إنهما كانا يقتسمان صيدهما معاً. ومع نضوج فراخ النسر وقدرتهم على الطيران أقدم النسر على خيانة صاحبه فأكل صغار الثعبان وطار مع صغاره للأجواء البعيدة. حزن الثعبان وبكى ودعا شمش إلى أخذ حقه من النسر.

أشار شمش على الثعبان بالصعود إلى جبل ليجد فيه ثوراً وحشياً ميتاً. عليه أن ينقر بطنه ويختبئ داخله، وعندما يأتي النسر ليأكل من لحمه عندئذ يمسك به وينتف ريشه ويكسر جناحه ويرميه في حفرة حتى يموت جوعا. فعل الثعبان ذلك وحقق مراده في معاقبة النسر. يبدأ النسر في استعطاف شمش الذي يرفض مساعدته إلا بعد تكرار الاستعطاف. فيهيئ (ايتانا- المار الذكر) ليتفق مع النسر على تخليصه من الموت لقاء مساعدته في الحصول على نبات النسل. وبعد شفائه يأخذه النسر على جناحيه إلى السماء السابعة (سماء آنو) وبقية الأسطورة غير معروفة بسبب تلف النص. والمرجح أنه حصل على بغيته كما تشير إلى ذلك قائمة الملوك السومرية التي تضمنت اسم الملك (بالبخ) على أنه ابن إيتانا الذي خلفه في الحكم. وتشبه هذه الملحمة أسطورة يونانية تتعلق بالنسر والجعل[٨٩] .

تنتمي "أسطورة أدبا- أدابا" لمجموعة الأساطير التي تُقدم العظة الأخلاقية بشأن آراء القوم في الخير والشر والموت والخلود وعلاقة الإنسان بالآلهة. ويدور موضوعها الرئيس حول تعذر نيل الإنسان للخلود حتى عند موافقة الآلهة. ويذكر طه باقر أن

للأسطورة أهمية خاصة لوجود شبه بينها وبين قصة إخراج آدم من الجنة "وقد رأى غير واحد من الباحثين في اسم بطل الأسطورة (أدبا) صيغة لفظية أُخرى لاسم (آدم)، وإن معاني كلمة (أدبا) و (أدب) في البابلية الإنسان[٩٠]". وهناك من قارن بين بطل هذه الأسطورة وبطل يوناني أخفق في الحصول على الخلود بتخطيط من الآلهة.[٩١]

(أدبا) من البشر، بنسب إلهي، خلقه أنكي/ أيا نموذجاً للإنسان الكامل، ومنحه الحكمة ورجاحة العقل، وصار على رأس حكماء عصره (الحكماء السبعة) المعروفين في حضارة وادي الرافدين باسم (أبكلو) APKALLU، وجعله مثلاً للإنسان الصالح، محباً للناس، يساعدهم في أعمالهم، وتُنسب اليه قصة إشارته على سكان مدينته امتهان حرفة صيد السمك. وكان زاهداً تقياً يخشى الآلهة ويقدم القرابين باستمرار، ويقوم على تزويد مائدة الإله أيا في معبد المدينة بالسمك[٩٢].

كان أدبا يمتهن صيد السمك في مدينته أريدو (أبو شهرين)- واحدة من أشهر المدن السومرية المقدسة المهمة لكونها المسكن الأرضي للإله أيا (ف٢/٣). وعُرِفَ بحذقه في الملاحة. وذات يوم وبينما كان يصطاد السمك في "البحر العظيم" هبَّت ريح الجنوب بقوة مفاجئة قلبت قاربه وأشرف هو نفسه على الغرق. وفي غمرة انفعاله تفوَّه أدبا بـ (لعنة) "سببت كسر أجنحة ريح الجنوب" التي شخَّصها القوم في صورة طائر. "مما أدى إلى توقف هبوبها على البلد فترة طويلة." أحسَّ كبير الآلهة آنو بسكوت ريح الجنوب وعلم أن أدبا ابن الإله أيا هو المتسبب في المشكلة، فاستشاط غضباً وطلب إحضار أدبا أمامه ليعاقبه على فعلته.

عرف أيا بالأمر، فنصح أدبا وزوَّده بتعليماته من أجل نجاته وهيأه للمحاكمة.. انطلق أدبا إلى سماء آنو وهو أشعث الشعر بملابس الحداد (السواد)، فقابل في طريقه إلى عرش آنو الإلهين المختفيين من الأرض: دموزي- تموز و كزيدا. وعندما سألاه عن سبب هيئته وارتدائه ثياب الحداد، أجابهما أنه حزين على إلهين اختفيا من الأرض، فسراً بذلك وسمحا له بالدخول (لأنهما المختفيان من الأرض)، بل وشفعا له عند آنو. وإلى هنا نجحت تعليمات وخطط ايا.

وبعد أن مثل في حضرة الآله، سأله آنو عن سبب كسره أجنحة الريح الجنوبية، فأجاب أدبا إنها أغرقت سفينته وحرَّمته كسب رزقه. وبمساندة الإلهين المذكورين، اقتنع

آنو وبدلاً من أن يُعاقبه قرر أن يُطعمه طعام الحياة ويسقيه ماء الخلود، إلا أن أدبا رفض الطعام والشراب وقبل من آنو فقط الرداء فلبسه والزيت فزيَّت به جسمه.. وهنا استغرب آنو من تصرف أدبا وسأله لماذا رفض الطعام والشراب، أجابه أدبا بأنه عمل حسب تعليمات أيا. وعندئذ أخبره أنه فقد فرصته في الخلود. وقال آنو لأتباعه "خذوه وردوه إلى الأرض". ثم سخر إله السماء من نصيحة إله الحكمة أيا، وقال ضاحكا:

مَنْ من آلهة السماء والأرض على كثرتهم أعطى مرة مثل هذا الأمر

ومن يستطيع منهم أن يجعل أمره يفوق أمر آنو؟

تُعتبر هذه الأسطورة واحدة من الأساطير الجريئة التي "لا يتردد مؤلف القصص من عرض الآلهة وهم يحملون نقاط الضعف الإنسانية، وهو يتركنا نحمل انطباعاً بأن هذه هي الطريقة التي كان يُنظر بها إليهم.فبالرغم من أنهم كانوا أقوياء، إلا أن هناك حدوداً لقوتهم.[٩٣]"

"أسطورة إيرا" متأخرة، نُظمت في الغالب إثر غزو العيلاميين لمدينة بابل وإنهاء حكم السلالة الكشية (ف٧). تركز موضوعها الأساس على وصف ويلات الحرب والأمراض كالوباء والطاعون التي هي من اختصاص الإله إيرا، مقابل ما يحققه السلام من نعمة الاستقرار والخير والرفاه الذي هو من صنع (مردوخ) إله بابل.

سلَّط إيرا الوباء على بلاد بابل وغزاها الأعداء بعد أن خدع مردوخ وأبعده عن مدينته بإغرائه بالنزول إلى أجزاء من العالم الأسفل للحصول منها على شيء من المواد الثمينة والصناع المهرة ليصنعوا له ملابس وأثاثاً.. وهكذا خلى الجو لإله الأمراض فسلَّط على بابل الحرب والدمار والطاعون. ولكن لأسباب غير معروفة خفَّف بطشه وكفَّ عن التدمير وبشَّر بلاد بابل بعودتها لسابق عهدها من الرخاء والازدهار[٩٤].

٥- أساطير ما بعد الموت

تبدأ أحداث "أسطورة كلكامش وشجرة الخلبو" عند بدء الخليقة. حدث في تلك الفترة أن شجرة الخلبو اقتلعتها الرياح الجنوبية وجرفها نهر الفرات حتى أوصلها التيار إلى الوركاء وصادف أن رأتها الإلهة عشتار فانتشلتها وحملتها لبساتينها المقدسة في المدينة وتعهدتها بالرعاية حتى نمت وازدهرت وقررت أن تصنع من خشبها بعض

الأثاث. لم تستطع عشتار ذلك لأن ثعباناً اتخذ جزءها السفلي مأوى له، وابتنى فيها طير الصاعقة (زو) عشاً لصغاره، واتخذت الشيطانة (ليلث) وسطها مأوى لها(٩٣). حزنت أنانا لما حلَّ بشجرتها. ولما علم كلكامش بمحنتها أسرع لنجدتها فذبح الثعبان وطرد طير الصاعقة زو والجنية ليلث منها. ثم جمع بعض رجالات أوروك وقطع الشجرة وقدَّمها إلى أنانا التي صنعت منها كرسياً وسريراً، وكذلك آلتين هما (بكو) -PUK-KU و(مكو) MUKKU. أهدتهما لـ كلكامش جزاء صنيعه. ولكن لسوء الحظ سقطت الآلتان في العالم الأسفل ولم يستطع كلكامش استعادتهما فحزن وصار يندب خسارته(٩٥).

في الجزء الثاني من الأسطورة، "نزول أنكيدو إلى العالم الاسفل" يتطوع صديق كلكامش (أنكيدو) لنجدته بالنزول هناك لاسترجاع الآلتين، عندئذ نصحه كلكامش مراقبة سلوكه عند نزوله إلى عالم الأموات: أن يكون هادئاً ولا يدع أحداً من الأموات يحس بوجوده، لا يلبس حُلَّة زاهية، ولا يطيب جسمه بالزيت الفاخر، ولا يرمي عصا، ولا ينتعل، ولا يُقَبِّل زوجاً أو ولداً، ولا يُحدث صوتا.. لكن أنكيدو سار على عكس وصايا صاحبه فأثار الموتى بتصرفاته وأحاطوا به، فقررت ملكة العالم الأسفل أن يبقى انكيدو حبيس هذا العالم لأنِ من سننه: لا يخرج من دخله "أرض اللاعودة".

صار كلكامش يندب صديقه ويبكيه. قصد معبد الإِله أنليل في نفر، ثم معبد الإِله سين في أور، فلم يجد العون. وأخيرا التجأ لمعبد الإله أيا في أريدو وكرر الاستغاثة بِأن يسمح إله العالم الأسفل (نرجال) بإحداث فتحة صغيرة لتخرج منه روح أنكيدو فتخبره عن أحوال ذلك العالم. استجاب نرجال وخرجت روح أنكيدو (شبحه) كأنها الريح فتعانق الصديقان وأخذ كلكامش يسأل شبح صاحبه عن أخبار عالم الأموات، أخبره أنكيدو بقوله: الظلام والتراب والطين وعدم الهواء.. من مات فجأة أو قتل في معركة ينام على سرير ويشرب الماء الصافي، بينما لا تجد روح الميت الاستقرار والراحة لمن تُركت جثته "بدون دفن" أو بدون إجراء طقوس الدفن وطقوس الميت من الصلوات والقرابين "إنه يشرب من الحثالة ويأكل كسر الخبز من فضلات المدينة"، بينما تتحسن معاملة روح الميت كلما ترك الميت أعداداً أكبر من الأولاد الذكور(٩٦).

وفي " أسطورة نرجال (و) إيريشكيكال" أن الآلهة هيأوا في أحد الأيام وليمة

كبرى فأرسلوا رسولاً لأختهم (إيريشكيكال) إلهة العالم الأسفل ليقول لها "لما كنا لا نستطيع أن ننزل اليكِ وأنت لا تستطيعين أن تصعدي إلينا فابعثي إلينا من يحمل إليك حصتك من الوليمة". بعثت إيريشكيكال وزيرها (نمتار) NAMTAR فرحَّبوا به ونهضوا إجلالاً وتكريماً لأختهم. ولكن الإله نرجال لم يفعل ذلك. فعاد الرسول إلى ملكته وقص عليها الحدث. وعندئذ بعثت إلى مجمع الآلهة أن يحضر ذلك الإله الذي لم ينهض لرسولها إجلالاً لمقامها لكي تودعه في عالم الأموات. رضخ نرجال، مُكرَهاً، لطلب الإلهة، ولكن حال وصوله إلى قصر إيريشكيكال حدث ما لم يكن بالحسبان. فبدلاً من اعتذاره لها، هجم عليها وأمسك بشعرها وأنزلها من عرشها وجرها على الأرض وهمَّ بقطع رأسها، فتخاذلت الملكة واستعطفته قائلة "لا تقتلني يا أخي، ودعني أقول لك كلمة: كُنْ زوجي وسأجعلك ملكاً على مملكة العالم الأسفل الواسعة." وهنا لانَ نرجال وتبدَّل غضبه إلى حب وهيام وصار زوجها وحكم معها ملكاً وإلهاً(٩٧).

من الأساطير المهمة عن عالم ما بعد الموت بخاصة والمعتقدات الدينية بعامة، أسطورة " نزول عشتار إلى العالم الأسفل". خلاصة الرواية السومرية هي أن أنانا ملكة السماء، وهي مدفوعة ببواعث غير معروفة، صممت النزول إلى العالم الأسفل(٩٨). وقبل أن تبدأ رحلتها تزودت بالنواميس الإلهية السبعة (التي يسير بموجبها نظام الكون) ولبست أجمل حُليّها وجواهرها واستعدت للنزول إلى (أرض اللاعودة). وخشية أن تحبسها أختها إيريشكيكال في مملكتها، أوصت رسولها (ننشوبر) -NINSHU BUR إذا لم تعد في بحر ثلاثة أيام عليه أن يلبس ثياب الحزن ويخف إلى نجدتها لدى أنليل في نفر، فإن لم يستجب فعليه بـ (سين)- إله القمر، وإذا لم يستجب فعليه طلب النجدة من أيا في أريدو "وهو الحكيم العارف بسر طعام الحياة وشراب الحياة(٩٩)". وبعد مضي الأيام الثلاثة دون عودة عشتار، بدأ ننشوبر تنفيذ خطة أنانا، ورغم تقاعس الإلهين الأولين لنجدتها فإن أيا استجاب، كما توقعت أنانا، ودبَّر خطة أنقذتها وأعادتها إلى الحياة، وخرجت من العالم الأسفل بنواميسها وحليها وملابسها بعد أن سُلبت منها عند دخولها(١٠٠).

الأسطورة التالية المكملة هي "نزول دموزي (تموز) إلى العالم الأسفل" فمع خروج أنانا من عالم الأموات رافقتها مجموعة من الشياطين بغية تسليمهم بديلاً يحل محلها

في عالم الأموات. فكان أول من لاقت رسولها ننشوبر الذي حالما رآها تمرغ في التراب وهو يلبس ثياب الحداد. فلما همَّ الشياطين بالقبض عليه بديلاً عن أنانا، حالت دون ذلك. وفي طريقها لاقت حالات مماثلة من التقدير من آلهة المدن التي مرت بها. وكانت في كل مرة تمنع الشياطين من القبض على أي منهم لأخذه بديلاً عنها. وعند وصولها إلى مدينتها وجدت زوجها دموزي- تموز الذي لم يكترث لمقدمها ولم تَبْد عليه إمارات الحزن، فطلبت من الشياطين أخذه بديلاً عنها إلى العالم الأسفل. ولأن غياب دموزي من العالم يعني غياب الخصب، عليه تحقق شيء من الاتفاق لخروجه من العالم الأسفل نصف العام (بداية الربيع) لتحل محله أخته (كشتن- أنا)[١٠١].

٦- أدب الحكمة

(١) قصيدة المعذب الصالح

تُعتبر من أشهر القصص الأخلاقية. يرقى تدوينها إلى العهد الكشي، لكنها سومرية الأصل وأُضيفت إليها نهاية سعيدة تُعظم مردوخ إله بابل. سُميت بقصيدة (أيوب البابلي) لأوجه الشبه الواضحة بينها وبين قصة أيوب المشهورة في التوراة، وسميت أيضاً (التقي المعذب)، كما عُرفت بفاتحتها (لأُمَجِدَنَّ رب الحكمة)[١٠٢].

يُرجح أن يكون بطل الأسطورة أحد وجهاء بابل من المتعبدين، ساءت أحواله وفقد ثروته ومكانته فجأة، ووجد نفسه منبوذاً من القصر وأصدقائه وعائلته، بل وعومل بمذلة حتى من عبيده. أخذ المرض بخناقه، وحيَّرت أعراضه الكهان وأصحاب التعاويذ. لذلك يصرخ بقوله "لم يدر إليَّ ربيّ وجهه، ولم ترفع آلهتي حتى رأسي، ولم ينقذني المعزم بشعائره من الغضب المقدس[١٠٣]". ويستمر بشكواه "لم أعرف في حياتي سوى العمل الصالح والعبادة، وشغلت أفكاري بالتضرع إلى الآلهة والتضحية والتقرب إليها، وكانت عبادة الآلهة سروراً لقلبي. ويبعث تمجيد الملك المسرة لقلبي[١٠٤]...".

تثير هذه الأسطورة علامة استفهام بشأن المعتقدات الدينية للقوم، كيف يمكن تفسير الأمر عندما يُجازى التقي الصالح بالحرمان والمرض في حين ينعم الآثم بالغنى والصحة! وهنا يتجه المؤلف إلى تفسيرات تبرر حالة المعذب بقوله إن أحكام الإنسان قاصرة فهو مخلوق ابن ساعته ضعيف الإدراك بحكمة الآلهة[١٠٥]. ومع هذا التبرير

الميتافيزيقي يبقى التشكيك قائماً، فيهرع المؤلف إلى معالجة هذه الحالة بنهاية سعيدة عندما قرر مردوخ، كما حصل لـ أيوب التوراتي، إعادة المعذب المتعبد لحالته السابقة من الصحة والثروة والجاه، وليبين أن العبادة والتقوى هي الغالبة في النهاية[١٠٦].

(٢) قصيدة العدالة الإلهية

تدور هذه القصيدة كذلك حول القيم الأخلاقية، وتحاول غربلة معتقدات القوم. ومن المرجح أن ترقى للألف الأول ق.م. نُظمت على هيئة حوار DIALOGUE، وتشبه أبياتها من حيث مقاطعها وتنظيمها ما ورد لاحقاً في المزامير (الزمور ١١٩). وهي تدور على الشك والسخرية من جانب المعذب لتصل في بعض الحالات إلى درجة "التجديف والكفر". سُميت أيضاً "حوار في العذاب الإنساني" و "الجامعة البابلية".[١٠٧] ومن المدهش أن أسلوب الحوار الوارد هنا قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام وفي موضوع خطير (التشكيك في المعتقدات الدينية) يُجسد قدراً عالياً من رقة الكلام والنقاش المهذب والاحترام المتبادل!

يبدأ المعذب حواره مع صديقه الحكيم بالحديث عن همومه وآلامه وعما أصاب جسده من وهن وكيف أن الدنيا اسودت في عينيه وصار لا يرى أملاً في الخلاص.. هذا رغم أنه منذ صباه كان يتعبد الآلهة ويقدم لها القرابين، فكان جزاؤه أن أدارت الآلهة له ظهرها وجعلت أعزَّ أصدقائه يتنكر له وسلَّطت عليه أدنى الناس مكانة ومنزلة. وهنا يتساءل المعذب "لماذا لا تحمي الآلهة أولئك الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم؟" ومن خلال هذا الحوار يلاحظ أن المعذب كان دائماً يَضْرِب على وتر واحد ألا وهو حقيقة وجدوى العدالة الإِلهية.. من جهة أُخرى يحاول صديقه الحكيم تقديم الحجة تلو الحجة لردعه وإعادته إلى تقواه، وإن بدت حججه، في الغالب، غير مقنعة- على الأقل- بالنسبة للمُعَذَّب[١٠٨].

المعذب: أين الناصح الذي أشكو إليه عذابي؟ أراني قد انتهى أمري وتسلَّط عليَّ الشقاء. فعندما كنت طفلاً اختطف القدر أبي وذهبت أُمي إلى أرض اللا رجعة. ولا أحَدَ يتكفل برعايتي.

الصديق: ما قلته يا صديقي الموقر يبعث على الحزن. أراك وجّهت فكرك إلى الشر والبؤس، وبدا فهمك كفهم العاجز، وبدّلتَ بشاشة وجهك عبوساً. إن الموت قَدَرٌ على

آبائنا وعلينا. وكما قيل منذ القدَم "يعبر الجميع نهر خبر (الموت)"[١٠٩].

المعذَّب: فكرك، يا صديقي، منبع لا يُدرَك عمقه، إنه البحر المتلاطم الذي لا ينضب. دعني أسألك: لقد خذلني التوفيق، وذهبت عني الراحة والطمأنينة. وهنت قواي، وفقدت النعيم والخير. وأظلم وجهي من كثرة الحزن والبكاء، تضاءلت غلال حقلي، فكيف سأنال السعادة؟

الصديق: يُجازي الآلهة الأتقياء الصالحين في نهاية المطاف.

المعذَّب: دعني أسألك سؤالاً: هل يقدم السبع المفترس، الذي يلتهم أحسن اللحم، قرابين إلى الآلهة؟ والفتى الذي كدَّس الأموال هل يقدم للآلهة (مامي) الذهب؟ وأنا هل انقطعت عن تقديم الصلوات والقرابين؟

الصديق: أعرف أنك ثابت كالأرض، وتعلم أن حكمة الآلهة صعبة الادراك. فإن الأسد الذي ضربته مثلاً تنتظره الحفرة التي ستصطاده، والفتى الذي كدَّس الأموال... مَنْ أدراك أنه لن يموت حرقاً على يد الملك قبل حلول أجله؟ أترغب أن تسير في هذا الطريق؟ كلا! الأجدر بك أن تسعى وراء الجزاء الدائم الذي يعدك به إلهك.

المعذَّب: ما أشبه فكرك بالريح الشمالية، إنه نسيم عليل للناس. فيا أعزَّ صديق، دعني أقول لك كلمة واحدة: كثيرون هم الذين لا يلتزمون بعبادة الآلهة ولكنهم ساروا في طريق الفلاح، بينما العابدون الأتقياء فقراء معدمون. وأنا في أيام شبابي كنت أسير وفق إرادة إلهي، وتعلَّقت بآلهتي في التضرع والصلوات. ولكن كنت أنوء بجر النير في "عمل سخرة" لا نفع منه. لقد كتب عليَّ إلهي الفقر بدل الغنى. فالمُقعَد خير مني، والبليد سبقني، وعلا شأن اللئيم، أما أنا فنزلت إلى أحط درك.

الصديق: يا صديقي العارف المستقيم أرى أن أفكارك قد اعوجت وفسدت، ونبذت الاستقامة، وصرت تكفر في خطط إلهك وطرقه. بل إنك في سرك صرت لا تتقبل أقدار الآلهة المقدرة. إن خطط الآلهة المحكمة مثل أعماق السماء لا يُدرَك كنهُها.

المعذَّب: يستمر في التمادي بشكوكه حتى يبلغ فيها درجة "الكفر" فيقول ضمن ما يقول "لن أنصاع لأوامر الآلهة، وسوف أدوس بقدمي على شعائرها..."[١١٠].

(٣) حوار بين سيد وعبده

تنتمي هذه القصيدة إلى أدب السخرية والتشاؤم، وكذلك التشكك بالقيم الاجتماعية والمعتقدات الدينية السائدة بسخرية لاذعة قد تُصوِّر الانحلال الذي ساد حضارة وادي الرافدين في أدوارها الأخيرة، وهي تعود إلى مطلع الألف الأول ق.م[١١١].

السيد: اسمعني أيها العبد

العبد: أجل يا سيدي، إني مصغٍ إليك

السيد: هيئ عربتي وأحضرها، أُريد أن أذهب إلى القصر

العبد: أفعل يا سيدي، فإنك ستحقق كل رغباتك وتنال الحظوة عند الملك

السيد: لا أيها العبد لن أذهب إلى الملك

العبد: لا تذهب يا سيدي فإن (الملك) سيبعث بك في مهمة وستؤسر في أرض غريبة لا تعرفها وستلازمك المتاعب ليل نهار.

السيد: اسمعني أيها العبد

العبد: أجل ياسيدي، إني مصغ إليك

السيد: أحضر لي في الحال ماء لأغسل يديَّ لأنِي أُريد أن آكل

العبد: كُل يا سيدي، كُل. فالأكل بانتظام يشرح القلب. إن الإِله شمش يحضر مأدبة كل من يأكل بيدين نظيفتين

السيد: لا أيها العبد، لن آكل

العبد: لا تأكل يا سيدي، لا تأكل فإن الجوع بعد الأكل والظمأ بعد الشرب يأتي لكل إنسان.

السيد: اسمعني أيها العبد

العبد: أجل يا سيدي، إني مصغ إليك

السيد: عزمت على أن أقوم بعصيان

العبد: افعل يا سيدي، افعل. فإذا لم تقم بعصيان فمن أين تحصل على ثيابك ومن يملأ لك كرشك

السيد: لا أيها العبد، لن أقوم بعصيان

العبد: لا تفعل يا سيدي، لا تفعل. إن من يقوم بعصيان إما أن يُقتل أو يُسلخ جلده أو تُسمل عيناه أو يُحتجز أو يُرمى في السجن.

السيد: اسمعني أيها العبد

العبد: أجل يا سيدي، إني مصغ إليك

السيد: أريد أن أحب امرأة

العبد: افعل يا سيدي، افعل. فالرجل الذي يحب امرأة ينسى أحزانه وهمومه.

السيد: لا أيها العبد، لن أحب إمرأة

العبد: لا تفعل يا سيدي، لا تفعل. المرأة بئر[١١٢]. المرأة خنجر من حديد يقطع عنق الرجل.

السيد: اسمعني أيها العبد

العبد: أجل يا سيدي، إني مصغ إليك

السيد: أحضر لي ماء لأغسل يديَّ، أريد أن أُقدِّم القرابين لإلهي

العبد: افعل ذلك يا سيدي، افعل. فإن من قدَّم القرابين لإلهه نال السعادة وأضاف دنيا على دين

السيد: لا يا عبد لن أقرب

العبد: لا تقرب يا سيدي، لا تقرب! تستطيع أن تعلم أن الإله يركض وراءك كالكلب عندما يحتاج إليك لتقيم شعائره.

السيد: اسمعني أيها العبد

العبد: أجل يا سيدي، إني مصغ إليك

السيد: عزمت على أن أقرض الناس وأساعدهم

العبد: افعل يا سيدي، افعل. إن من يقرض الناس تبقى حنطته خالصة ويكون ربحه جسيماً

السيد: لا أيها العبد، لن أقرض الناس

العبد: لا تفعل يل سيدي، لا تفعل! إن من يقرض الناس كمن يحب امرأة... فاسترجاعها أمر عسير مثل ولادة طفل. ثم إنهم سيأكلون حنطتك وينزلون عليك لعناتهم دون هوادة ويحرمونك من الفوائد على حنطتك.

السيد: اسمعني أيها العبد

العبد: أجل يا سيدي، إني مصغ إليك

السيد: أريد أن أساعد بلادي

العبد: افعل يا سيدي، افعل. إن من يساعد بلاده توضع حسناته أمام الإله مردوخ

السيد: لا أيها العبد، لن أساعد بلادي

العبد: لا تفعل يا سيدي، لا تفعل. اصعد فوق الأطلال القديمة وتمشَّ فوقها وانظر إلى جماجم السابقين واللاحقين، فأيهم الأشرار وأيهم الأبرار؟

السيد: اسمعني أيها العبد

العبد: أجل يا سيدي، إني مصغ إليك

السيد: والآن أي شيءٍ حسن في الدنيا؟ سأدق عنقك وعنقي أو نرمي بنفسنا في الماء، وهذا هو الشيء الحسن. وهنا بدَّل السيد رأيه بسرعة مماثلة وقال لعبده "لا أيها العبد، سأقتلك وحدك وأدعك تسبقني." فيجيبه العبد "هل يرغب سيدي في أن يعيش من بعدي حتى ولو كان ذلك مدة ثلاثة أيام[١١٣].!"

(٤) الأمثال

تشكل الأمثال جانباً من أدب الحكمة. وهي بصفة عامة تُقال في مناسبات معينة وبجمل قصيرة مركزة تُعبِّر بالنتيجة عن تجارب وحالات اجتماعية محددة. لذلك تكون صعبة الفهم بعامة وتتطلب مسبقاً معرفة بالوقائع والأحداث التي حصلت فيها حقيقة أو افتراضاً. وتزداد الصعوبة عندما تعود هذه الأمثال إلى آلاف من سنين مضت، رغم أن أمثالاً عديدة منها لا زالت حية في مجتمعاتنا. والسطور التالية نماذج منها جُمعت من مصادر عديدة[١١٤].

* لذة الخمر (تُذهب) وعث الطريق.

* من لا يعرف الخمر لا يعرف الخير، فالخمر يدخل السرور إلى كل بيت.

* تملّق المرء فيعطيك ما تريد.

* إرمِ كسرة للكلب يهز لك ذيله.

* الفقراء هم الصامتون وحدهم في سومر.

* صاحب المال سعيد بلا شك، ومن يملك الكثير من الحبوب سعيد بلا ريب. أما من لا يملك شيئاً فيستطيع أن ينام.

* من لم يُعِلْ زوجة أو طفلاً سلم أنفه من الخشخاش TETHER.

* الإكثار من الزوجات أمر يخص المرء نفسه، ولكن الإكثار من الأولاد أمر يخص الإله.

* أطع كلام أُمك كأنه أمر إلهي.

* ما ولدَتْ إمرأة قط ابناً بريئاً.

* قضيب الزاني مثل فرج الزانية.

* المال مثل الطير لا يعرف موطناً ثابتاً.

* لا تدع الغضب يظهر على وجهك أثناء الخصام.

* لن يترك العدو بوابة مدينة ضعيفة السلاح.

* إذا أباحت المدينة لكلاب الصيد أن تظل في داخلها تحكمت الثعالب فيها.

* الذبابة تدخل الفم المفتوح.

* إذا قال لك أحد ما يغضبك فلا ترد عليه بالمثل تجنباً للعواقب.

* إذا حكمت على شخص فلا تقرن ذلك باستهجانك الشخصي.

* في المدينة المتهاونة المهملة يصبح الجاني تاجراً.

* لا كسب بدون تعب.

* لا تطلب الحياة من ننجشزيدا (إلهة الموت).

* إذا أحسَّ بقرب أجله قال لآكلنَّ جميع ما عندي، وإذا تعافى قال لأقتصدنَّ.

* يحصل القوي على عيشه بقوة ساعده ولكن الضعيف يبيع أولاده.

* أولى بالفقير أن يموت، فهو إن حصل على الخبز عَدِمَ المأوى، وإذا كان عنده ملح عَدِمَ الخبز، وإذا كان له بيت عَدِمَ الفراش.

* لقد أرخيت الشبكة ولكن الأصفاد محكمة.
* هل تضرب الثور إذا كان دائباً على السير؟
* ثور الغريب يأكل الحشيش ولكن ثور صاحب الحقل نائم من الجوع.
* إذا خرجت تصطاد الطيور بدون شبكة فلن تصطاد شيئاً.
* المرأة بلا زواج مثل حقل بلا زرع.
* الزوجة المُبذِّرة أكثر ضرراً من جميع الشياطين.
* أن تضرط الشابة أثناء عناق زوجها لها أمر لم يحدث منذ القِدَم.
* عليك أن تتحمل ثقل نير من تُحب.
* عيناي عينا أسد، وجسمي جسم الملاك الحارس، وشفتاي تنطقان بالفتنة والسحر، من سيكون قريني؟
* شدِّ حزامك يكن إلهك معك.
* إذا أسأت إلى صديقك فما عساك أن تفعل مع عدوك؟
* الإله هو الذي يُعينك صغيراً كنت أم كبيراً.
* ساكن البلد الغريب مثل العبد.
* الناس بلا مَلِكٍ مثل قطيع الغنم بلا راع.
* الناس بلا مشرف مثل الحقل بلا حارث.
* إن فمي هو الذي يجعلني أُعَدُّ بين الرجال.
* الصداقة تدوم يوماً ولكن ارتباط المصالح يدوم إلى الأبد.
* الصداقة تدوم يوما والقرابة تدوم إلى الأبد.
* قد تدوم الصداقة يوماً والعبودية دهراً.
* الناسخ الذي لا يجيد اللغة السومرية، أي ناسخ هو؟.. إنه أبكم أحمق في فنون الكتابة غبي في السومرية.. لسانه ثقيل في اللغة السومرية، وهو لا يستطيع تحريكه بشكل صحيح.
* فن الكتابة أبو العلماء وأم الخطباء.
* الكاتب الذي تتحرك يده بسرعة حركة الفم نفسها، هو الكاتب الذي ينفعك.
* الكتابة أم للمتحدثين وأب للأساتذة المتمرسين.

* الكتابة فن بهيج لا تشبع منه النفس. الكتابة فن ليس من السهل تعلمه، ولكن متى تعلمه المرء فلن يقلق بسببه.

* جاهد لأن تكون بارعاً في الكتابة لأنها سوف تغنيك. كن مُجِداً في الكتابة لأنها ستوفر لك الغنى والعيش الرغيد.

* لا تتقاعس في الكتابة أو تهملها.

* إن الكتابة "بيت الغنى" وسور الإلهة أنوناكي.

* اعمل في الكتابة دون انقطاع وسوف تكشف لك عن أسرارها، فإن أنت أهملتها قال الناس عنك كلاماً سيئاً. الكتابة نصيب الخير، إنها الغنى والعيش الرغيد. في طفولتك لاقيت في تعلمها الأمَرَّين، وفي الكِبَر جلبت لك الخير والرخاء.

* الكتابة "وثاق" كل المعارف فاعمل جاهداً في سبيل تعلمها وسوف تنعم بيسرها البهيج.

* يعبر الجميع نهر خبر (الموت).

* لا تأكل سمناً لا تنزف دماً.

* يُقال حبلت بلا اتصال.. سمنت بلا أكل.

* إذا ضُرِبَ النحل عضَّ يد الضارب.

* إذا لم تنضب بئري فعطشي قليل.

* لقد أُوقف المعبد قبل أن يبدأ البناء.

* النهر باتجاه الريح يجلب الماء الوفير.

* الرجل ظِل الإله، والعبد ظل الرجل، ولكن الملك صورة الإله.

* كما كانت الحياة بالأمس ستكون هكذا كل يوم.

* إذا كانت خميرة الجعة حامضة فهل تكون الجعة حلوة؟

* تلدغ العقرب إنساناً فأي خير يناله في ذلك؟ ويجلب الواشي الموت على أحد الناس فأي خير يناله من وراء ذلك؟

* هل يحصل سرير القصب على ثمن قصبه أو المرج ثمن حشائشه؟

* هل يقبض المستنقع ثمن قصبه؟ وهل يقبض الحقل ثمن محاصيله؟
* من هو اليوم حي يموت قبل غد.
* هدية لملك تضمن نبوءة مبشره بالخير.
* لا تتزوج المرأة التي كان لها عُشاق كثيرون لأنها ستتخلى عنك إذا ما ساءت أحوالك، وإذا تخاصمت معها فإنها ستهزأ بك. إنها تأتي بالكارثة إلى أي بيت تحلُّ فيه وتُحطم أي رجل يتزوجها.

٧- أدب المناظرة والمفاخرة

وردت جملة قطع أدبية في اللغتين السومرية والبابلية، والمرجح أنها تعود أصلاً إلى الأُدباء السومريين. وربما جاء منشأ هذا النوع من الأدب نتيجة ممارسة عادة التحاور والتفاخر الثنائي أثناء الاحتفالات والأعياد في بلاطات الحكام والملوك، ولعلَّ الملك نفسه كان يمثل إله الحكم الذي يحتكم اليه المتناظرون(١١٥).

وفي مثل هذه المناظرات يفخر كل طرف بمزاياه ومنافعه ثم يصدر الحُكم لصالح أحدهما. ففي "المناظرة بين الصيف والشتاء" يحتكم الطرفان لخالقهما الإله أنليل فيحكم لصالح الشتاء. وفي "المناظرة بين النخلة وشجرة الأثل" يُصدر الملك حكمه لصالح النخلة لأهميتها في حضارة ميزوبوتاميا. بينما يصدر الحكم لصالح الثور في "المناظرة بين الحصان والثور"(١١٦). وتدور مناظرة "دموزي (و) ينكمد (الراعي والفلاح)"حول عشتار وعشاقها، وفي مقدمتهم دموزي- تموز الملقب بـ الراعي.

وجد عالم الآثار (كريمر)، عند نشره نصّها وترجمتها، أن فكرتها تضاهي موضوع أسطورة (قابيل وهابيل) الواردة في التوراة، حيث يفضل الله الفلاح (قابين- وفي المآثر العربية قابيل) على الراعي (هابيل) الذي قتله أخوه الفلاح. لكن الأسطورة السومرية لا تنتهي خاتمتها بمأساة القتل.

جاءت الأسطورة على شكل حوار بين شمش/ أتو - إله الشمس وبين أخته الإلهة أنانا. فهي تهيم بالفلاح، بينما يريدها الأخ أن تتزوج الراعي الذي ينعته بـ "تنين

السماء" و"صديق أنليل". ترفض أنانا لأن قلبها متعلق بالفلاح "الذي كدَّس لها المخازن بالقمح". لكن أخاها يواصل إلحاحه:

يا أنانا العذراء، عَلامَ أنت لا ترتضينه زوجاً

إن سمنه دسم ولبنه طيب فيا أنانا تزوجي الراعي دموزي..لكن أنانا تجيبه:

لن أتزوج الراعي ولن ألبس ثيابه الخشنة... وهنا يتدخل دموزي بنفسه في الحوار ويعدد مزاياه على الفلاح:

بأي شيء يكثرني الفلاح؟

إذا قدَّم طحينه الأسود، فسأُقدم نعجتي السوداء

وإذا قدَّم طحينه الأبيض، فسأُقدم نعجتي البيضاء

وإذا سقاني جعته الصافية سقيته لبني الدسم

وأخيراً تنتهي المناظرة بغلبة الراعي دموزي بحيث تُبدل أنانا موقفها وتتزوجه[١١٧].

٨- أدب السخرية (جميل- ننورتا: فقير نفر)

تُعتبر نصوص الفكاهة المكتشفة قليلة بالمقارنة مع المآثر الأدبية التي خلَّفتها حضارة وادي الرافدين. وتضاهي القصص التي جاءت على لسان الحيوانات تلك الواردة في (كليلة ودمنة) ومجموعات قصص الكاتب الإغريقي إيشوب AESOP السابق الذكر (ف٩). كما وحازت "قصة فقير نفر"، التي سترد لاحقاً، على شهرة واسعة[١١٨].

من نصوص الفكاهة القصيرة (الفأر والنمس) حيث يهرب الفأر من مطاردة النمس إلى غارة فيجد نفسه أمام خطر آخر (الحاوي).. وفي (الكلب والنمس) ينحبس الكلب في أنبوب أثناء مطاردته للفأر.. وبعد أن تقف على ظهره للراحة (البعوضة والفيل) تسأله البعوضة: هل أثقلت عليك يا أخي... يجيبها الفيل: من أنتِ؟ لم أحس أنكِ فوق ظهري ولن أعرف عندما تنزلين.. وأثناء سفده لها (الحصان والأتان) - الأتان أنثى الحمار - يقول لها الحصان: عساكِ أن تلدي هذه المرة مهراً عداءً مثلي فلا تجعليه

كالحمار ينوء بحمل الأثقال.. وبعد أن بال في مياه البحر (الثعلب والبحر) نظر لمياهه وقال متعجباً متباهياً: أكل هذا الماء من بولي؟.. ويتملك الرعب الكاهن في (الكاهن والأسد) بعد أن لمح أسداً في البادية. وعند عودته ناجياً، يرى الكاهن تمثال أسد عند بوابة المدينة فيهجم على التمثال ويلطمه على وجهه قائلاً: ماذا كان أخوك يفعل في البادية؟.. وفي (رسالة من قرد إلى أمه) يشكو القرد ما قاساه من الجوع في المدينتين المعروفتين أور (و) أريدو اللتين اشتهرتا بالخيرات، فيكتب "الى أمي لودي- لودي.. قل: هكذا يقول أوكو- دل- ي.. إن أور مدينة البهجة والمسرات (و) أريدو مدينة الرخاء.. ولكنني مع ذلك أجلس وراء باب قاعة الموسيقى آكل الفضلات فعسى أن لا أهلك من الجوع. لم أذق طعم الخبز والجعة فابعثي لي برسولك على عجل![١١٩]".

تُعتبر قصة "جميل- ننورتا (فقير نفر) أطول قصة هزلية مكتشفة مؤخراً، وخلاصتها: بلغ الإملاق بأحد فقراء نفر "جميل- ننورتا" حد أنه لم يجد من الخبز ما يسد رمقه. وكثيراً ما كان يطوي الليالي وهو يتضور جوعاً. ولما اشتد به العوزُ فَقَدَ صوابه من أثر الجوع فباع ثيابه واشترى بقيمتها عنزة ليذبحها ويأكل لحمها، لكنه عدل عن قراره لأن ذبح العنزة وأكلها وحده سيجلب عليه سخط الأصدقاء والأقرباء، وإذا ما دعاهم لمشاركته فهذا يتطلب تقديم الجعة ومصاريف أُخرى لا يملكها. وللخروج من حيرته اعتزم أمراً آخر كان يأمل منه خيراً أكثر. أخذ عنزته إلى بيت حاكم المدينة ليقدمها هدية للحاكم فينال منه الجائزة. وهكذا دخل على الحاكم مسروراً وهو يمسك رقبة عنزته بيده اليسرى، وحيّا الحاكم باليمنى ودعا له بالخير قائلاً: عسى أن يبارك الإله انليل الحاكم، ويغدق عليه الإله أدد (و) نسكو الخيرات. ولكن خاب ظنّ فقير نفر، عندما فاجأه الحاكم بالنهر والتقريع والغضب بقوله: "أتجرُؤ يا هذا أن تقدم رشوة لي". حاول فقير نفر عبثاً شرح بؤس حاله للحاكم الذي اكتفى بطرده متهكماً بأن نصيبه من العنزة سيكون "عظاماً" وسقاه جعة رديئة وطرده من قصره. فقال فقير نفر للبواب وهو خارج من بوابة القصر: "قل لسيدك ما فعلتَه بي سأُوفيك حقه ثلاث مرات". ولما بلغ الحاكم قول جميل ظلَّ يضحك منه طوال نهاره. أما فقير نفر فإنه قصد

قصر الملك، ولما مثُل أمامه حياه وقال "يا سيدي، يا مصدر قوة الرعية ويا من تُمجده الملائكة الحارسة، أستعطفك أن تأمر بإعطائي عربة واحدة وتأذن لي أن أفعل ما أتمنى طوال يوم واحد، وسأدفع (منًّا) واحداً من الذهب مقابل ذلك". ودون أن يسأله الملك عن أمنيته وعن الأجرة مقدماً أمر تجهيزه بالعربة من الصنف الذي يستعمله الوجهاء والأمراء، كما أمر له بكسوة فاخرة. ركب جميل- ننورتا في العربة وقصد قصر حاكم نفر الذي خرج بنفسه لاستقباله والترحيب به. وعندما سأله الحاكم عن هويته أجاب أن الملك سيده أرسله وأنه جلب ذهباً لمعبد الإله أنليل. أكرمه الحاكم وذبح له ذبيحة غالية، وبعد انتهاء الطعام تعب الحاكم من السهر، ولكن جميل- ننورتا ظلَّ يحادثه، ولما غلبه النعاس والنوم قام فقير نفر في سكون الليل ومزّق ثيابه وفتح الصندوق الفارغ الذي معه وصرخ بالحاكم أن يستيقظ وزعم له وهو يصرخ في وجهه أنه وجد صندوق الذهب مفتوحاً وسُرق الذهب منه، وأتبع قوله بأن هجم على الحاكم يكيل له الضربات، فاستعطفه الحاكم أن لا يقضي عليه، وعوَّضه عن الذهب المزعوم ضعفين وأعطاه بدلاً من ثيابه المزقة كسوة فاخرة. وعندما خرج من باب القصر قال للبواب: "قل لسيدك إنني استوفيت منه حقي دفعة واحدة، وبقي لي عنده قسطان". ولما بلغ الحاكم ذلك كرر ضحكه واستخفافه بفقير نفر.

ثم تنكر جميل- ننورتا بزي طبيب وحلق شعر رأسه واصطحب معه عدة الأطباء الخاصة وقصد قصر الحاكم وأخبر البواب أنه طبيب ماهر جاء من مدينة إيسن (تعرف بقاياها الآن باسم: إيشان بحريات- قرب بقايا مدينة نفر. كانت مشهورة بأطبائها) وأنه متمرس بشفاء جميع الأمراض. ولما أحضر جميل- ننورتا أمام الحاكم كشف له الحاكم الكدمات في جسمه، فقال له الطبيب الدعي إنه لا يستطيع أن يُشفيه إلا في مكان منعزل مظلم. وهكذا انفرد به في غرفة مظلمة وأوثقه وربطه وانهال عليه بالضرب المبرح، ثم تركه وخرج من باب القصر وقال للبواب: "ليبارك الله سيدك قل له إني استوفيت من دَيني الآن قسطين وبقي لي عنده قسط واحد".

خاف جميل- ننورتا في المرة الثالثة أن يظهر بنفسه، فاستأجر رجلاً وأوصاه أن

يقصد باب الحاكم وينادي بأعلى صوته: "أنا صاحب العنزة الذي طُرِد من باب الحاكم". أما فقير نفر فإنه اختبأ تحت قنطرة قرب قصر الحاكم. ولما سمع الحاكم صراخ الرجل خرج ومعه جميع أتباعه وحتى نساء قصره يطاردونه. تخلف الحاكم بسبب آلام جسمه، وعندئذ فاجأه جميل- ننورتا من مخبئه وانقض عليه بالضرب المبرح وقال له: "لقد استوفيت منك حقي ثلاثاً". وترك الحاكم مغشياً عليه وهو بين الموت والحياة.

هناك شَبه واضح بين قصة فقير نفر والقصة الواردة في ألف ليلة وليلة عن ذلك الفتى الذي أرسلته أمه ليبيع لها عجلاً في السوق فوقع في شرك جماعة من المحتالين أوهموه أن ما يعرضه للبيع ليس عجلاً بل هو عنزة واشتروه منه بثمن بخس. وبعد أن نهرته أمه لغبائه وبلاهته، انتقم الفتى من رئيس العصابة ثلاث مرات أيضا وبطرق تحايل مشابهة لما فعلها فقير نفر بالحاكم(١٢٠).

هوامش الفصل السادس عشر

(١)باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . . ، ص٣٣ .

(٢)علي ، فاضل عبدالواحد ، "الاعياد الاحتفالات" ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٢٢٠ . . . نفسه ، سومر ، اسطورة وملحمة ، ص٥٠ .

(٣)ساكز ، هاري ، ص٨٢- ٨٣ . . . وقارن : باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . . ، ص٤٥ . . . علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٣٢ . . . نفسه ، سومر : اسطورة وملحمة ، ص٤٩- ٥٠ .

(٤) ساكز ، هاري و .ف . ، ص٩٥ .

(٥) تم جمع نماذج الادب هذه من مصادر عديدة ، انظر على سبيل المثال لا الحصر : ساكز ، هاري . . . عبدالواحد ، فاضل (و) سليمان ، عامر . . . رو ،جورج . . . باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . . حضارة العراق ، ج١ . . . الماجدي ، خزعل ، متون سومر . . . الدين السومري . . . نائل ،حنون . . . شمّار ، جورج بوييه .

(٦) الانانوكي : مجمع الآلهة .

(٧)رشيد ، فوزي ، حضارة العراق ، ج١ ، ص١٦٧ . . . الماجدي ، خزعل ، متون سومر ، ص١٦٨ .

(٨)رشيد ، فوزي ، حضارة العراق ، ج١ ، ص١٦٧- ١٦٨ .

(٩) رشيد ، فوزي ، حضارة العراق ، ج١ ، ص١٧٢- ١٧٣ .

(١٠)نفسه ، حضارة العراق ، ج١ ، ص١٧٤- ١٧٧ . . . علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٣٢٧ .

(١١) اوبنهايم ، ليو ، ص٣٣٩ .

(١٢) حنون ، نائل ، ص٤٥-٤٧ . . . شمّار ، جورج بوييه ، ص٢٨١- ٢٩٢ .

(١٣) باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . . ص٧١- ٧٥ .

(١٤) بوستغيت ، نيكولاس ، ص٣٢٧ .

(١٥) باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . . ، ص٧٩ .

(١٦) رشيد ، فوزي ، حضارة العراق ، ج١ ، ص١٧٥- ١٧٦ .

(١٧) شمّار ، جورج بوييه ، ص٢٨١- ٢٩٨ .

(١٨) باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . . ، ص٨١- ٨٢ .

(١٩)نفسه ، ص٩٢- ٩٤ .

(٢٠) كونتينو ، جورج ، ص٢٣٢ .

(٢١) باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . . ، ص٩٤- ٩٦ .

(٢٢) الماجدي ، خزعل ، متون سومر ، ص٩٨ .

(٢٣) باقر ، طه ، مقدمة في . . . . ، ص٨٩-٩٠ . . . ، رشيد ، فوزي ، ص١٧٣ .

(٢٤) باقر ، طه ، مقدمة في . . . . ، ص٩٠-٩١ . . . ، رشيد ، فوزي ، حضارة العراق ، ص١٧٣ . . . ، الماجدي ، خزعل ، متون سومر ، ص١٧٩- ١٨٣ .

(٢٥) كونتينو ، جورج ، ص٢٣٣ .

(٢٦) باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . . ، ص٩١- ٩٢ . . . ، شمّار ، جورج بوييه ، ص٢٣٩- ٢٤٢ .

(٢٧) كونتينو ، جورج ، ص٢٣٢- ٢٣٣ .

(٢٨) باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . . ، ص٨٥- ٨٦ .

(٢٩) نفسه ، ص.٨٤ . . بوستغيت ، نيكولاس ، ص٢٢ . .

- ترد هذه الاساطير باختلافات جزئية وبصيغ متعددة في مصادر مختلفة ، رغم انها تشترك جميعاً في مضمونها العام . كما وتوجد اساطير عديدة اخرى . . ، انظر على سبيل المثال ؛ الماجدي ، خزعل ، الدين السومري ، ص١١١- ١٤٨ .

(٣٠) ساكز ، هاري ، ص.٩٦ . ، رو ، جورج ، ص١٦٧ . . . ، علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٢٣٨ .

(٣١) باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . . ، ص١٠٢ . . . ، يونغ كافن ، ص٣٣ .

(٣٢) كونتينو ، جورج ، ص.٢٣٧ . ، علي ، فاضل عبدالواحد ، من الواح سومر الى التوراة ، ص١٤٩ . . Hawkes,Jacquetta,p.12.. ,

(٣٣) رو ، جورج ، ص١٧٣ (و)١٨٠ . . . ، باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . . ، ١٠٢ - ١٠٣ . . . ، علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٢٣٩ . . . ، نفسه ، من الواح سومر الى التوراة ، ص١٤٧ . . . ، شمّار ، جورج بوييه ، ص٢٦٧- ٢٧٩ (و) ص٣٩٩- ٤٠٠ .

(٣٤)باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . . ، ص١٠٥ . . Hawkes,Jacquetta,p.67..

(٣٥) ساكز ، هاري ، ص٩٧ . . . ، رو ، جورج ، ص١٦٨ . . . ، كونتينو ، جورج ، ص٢٢٨ .

(٣٦) باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . . ، ص١٠٥ .

(٣٧) رو ، جورج ، ص١٦٨ .

(٣٨) باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . . ، ص١٠٦ .

(٣٩)نفسه ، ص١٠٦ . . . ، علي فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص.٢٤٠ .

(٤٠)باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . . ، ص١٠٦- ١٠٨ .

(٤١)علي ، فاضل عبد الواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص.٢٤٠ .

(٤٢) كونتينو ، جورج ، ص٢٢٨ .

(٤٣)ساكز ، هاري و .ف ، ص٩٨ . . . ، اوبنهايم ، ليو ، ص٢٤٢ . . . ، شمّار ،جورج بوييه ، ص٢٦٧- ٢٦٩ .

(٤٤) علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٢٤٢ .

(٤٥) كونتينو ، جورج ، ص.٢٣٨ . ، ساكز ، هاري ، ص٨٥ .

(٤٦)علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٢٤٣ .

(٤٧) آي (او) آية ؛ زوجة الإله شمش (شمس) ،كانت تمثل الفجر مثل الآلهة اليونانية ايوس EOS والرومانية اورورا ..AURORA سين ؛إله القمر وبالسومرية نانا (او) ننار ،عده العراقيون القدماء اباً للإله شمس لأن النهار يتولد من الليل حسب تصورهم .

(٤٨) باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . . ، ص١٠٩- ١١٠ . . . ، علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٢٤٤ .

(٤٩)ساكز ، هاري ، ص٩٨- ٩٩ .

(٥٠) كونتينو ، جورج ، ص٢٣٩ . . . ساكز ، هاري ، ص٩٩ . . . رو ، جورج ، ص.١٧٠ .

(٥١) رو ، جورج ، ص.١٧٠ . . . ، باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . . ، ص١١١- ١١٢ .

(٥٢) ساكز ،هاري ، ص٩٩ . . . ، باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . . ، ص١١٣ .

(٥٣) عبدالواد ، فاضل (و) سليمان ، عامر ، ص١٦٢ .

(٥٤) كونتينو ، جورج ، ص٢٤٠ .

(٥٥) عبدالواحد ، فاضل (و) سليمان ، عامر ، ص١٦٢ .

(٥٦) باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . ، ص١١٤ .

(٥٧) انظر : ف١٧/ ٤- بشأن اعتقاد القوم بقوة (اللعنة) حتى ان الإله يتحرج من اغفالها ، وكيف ان (شمش) اضطر الى الاستجابة للعنة انكيدو تجاه البغي رغم تراجع انكيدو عن لعنته!

(٥٨) ايراكلا : من اسماء إلهة العالم الاسفل المعروفة بـ (ايريكيكال) ملكة عالم الاموات . . اما المخلوق الذي قاد انكيدو في حلمه الى عالم الظلام فهو يُضاهي ما يسمى (ملاك الموت) في الاديان الاخرى . وكان الغالب على تصور اهل حضارة وادي الرافدين لروح الميت انها على هيئة طير ، يشاركهم في ذلك الاقوام القديمة . . (باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص١١٥ . . . ، علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٢٤٥ . . . ، حنون ، نائل ، ص٣٣٩- ٣٤٦ .

(٥٩) ساكز ، هاري ، ص١٠٠ .

(٦٠) رو ، جورج ، ص١٧١ .

(٦١) باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . ، ص١١٦ .

(٦٢) رو ، جورج ، ص١٧١ .

(٦٣) نفسه ، ص١٧١ . . . ، باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص١١٧ .

(٦٤) باقر ، طه ، مقدمة في أدب ، ص١١٧- ١١٨ . . . ، علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٣٤٨ .

(٦٥)كونتينو ، جورج ، ص٢٤٢ . . . ، ساكز ، هاري ، ص١٠١ .

(٦٦) قارن : التوراة ، سفر الجامعة١-٤-١١ . . (باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . ، ص١١٩) .

(٦٧) نفسه ، ص١١٩ . . . ، حنون ، نائل ، ص٨٠ .

(٦٨) كونتينو ، جورج ، ص٣٢٩ .

(٦٩) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٢٠٣ .

(٧٠) كونتينو ، جورج ، ص٣٣٠ .

(٧١) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ . . . ، ص٢٠٢ . . Hammond,Mason,p.34..

(٧٢) رو ، جورج ، ص١٥٨ (و)١٦١ .

(٧٣) علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٣٣١- ٣٣٣ . . . ، باقر ، طه ،ص٢٥٨ .

(٧٤) رو ، جورج ، ص١٥٨ .

(٧٥) باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص١٢٠ . . وايضاً : كونتينو ، جورج ، ص٣٢٧- ٣٢٨ . . . ، عبدالواحد ، فاضل (و) سليمان ، عامر ، العراق في . . . ، ص١٦٦ . . . ، علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٣٣٤ .

(٧٦) عبدالواحد ، فاضل (و) سليمان ، عامر ، العراق في . . . ، ص١٦٨ . . . ، علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٣٣٥ .

(٧٧) كونتينو ، جورج ، ص٣٢٨ . . . ، رو ، جورج ، ص١٥٩ . . . ، باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . ، ص١٢٢ .

(٧٨) باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . ، ص١٢٢ .

(٧٩) نفسه ، ص١٢٣ . . . ، عبدالواد ، فاضل (و)سليمان ، عامر ، ص١٧٠ . . . ، علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ،ج١ ، ص٣٣٧ .

(٨٠) باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص١٢٣ .

(٨١) باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ١٢٣- ١٢٤ . . . ، ساكز ، هاري ، ص١٠٣ .

(٨٢) اتخذت صورة الحية رمزاً للتطبيب والشفاء والحياة عند اليونان وفي العصر الحديث . ويصح ربط هذه الاسطورة باسطورة العداء الذي استحكم بين الحية وذرية حواء وآدم بعد حادثة الاغواء، وطردهما من الجنة ، اي بعد ان اغوت الحية (الشيطان الممثل بالحية) حواء ان تأكل من الشجرة المحرّمة . . (باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص١٢٥) .

(٨٣) نفسه ، ص١٣٠ .

(٨٤) نفسه ، ص١٢٦ .

(٨٥) نفسه ، ص١٢٨ .

(٨٦) باقر ، طه ،مقدمة في أدب . . . ، ص١٣١ . . . كونتينو ، جورج ، ص٢٣١ . . . ساكز ، هاري ، ص١٣١ . Hawkes,Jacquetta,p.152-153

(٨٧) باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص١٣٢ .

(٨٨) عبدالواحد ، فاضل (و) سليمان ، عامر ، ص١٤٨- ٢٤٩ .

(٨٩) كونتينو ، جورج ، ص٢٤٧ . . . ساكز ، هاري ، ص١٠٥ . . . رو ، جورج ، ص.١٦٥ . . علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٢٥٩-٢٦١ . . . باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص١٣٤ . . . شمّار ، جورج بوييه ، ص٢٤٧ .

(٩٠) باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص١٣٥ . . وقارن : ساكز ، هاري ، ص.١٠٥ . . عبدالواحد ، فاضل (و) سليمان ، عامر ، العراق في . . . ، ص١٥٤ .

(٩١) اوبنهايم ، ليو ، ص٢٤٣ .

(٩٢) كونتينو ، جورج ، ص٢٤٦ . . . باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص١٣٦ . . . رو ، جورج ، ص١٥٤ . . . عبدالواحد ، فاضل (و) سليمان ، عامر ، العراق في . . . ، ص١٥٥ .

(٩٣) كونتينو ، جورج ، ص٢٤٧ . . انظر في احداث هذه الاسطورة ايضاً : شمّار جورج بوييه ، ص٢٤٢-٢٤٧ (و)٤٠٨ .

(٩٤) اوبنهايم ، ليو ، ص٢٤٤ . . . سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ ، ص١٢٧- ١٢٨ . . ساكز ،هاري ، ص١٠٦- ١٠٧ .

(٩٥) لا تُعرف ماهية شجرة الخلبو ، ربما تكون الصفصاف .

بكو ،مكو : آلتان لا تُعرف ماهيتيهما ، ويرى البعض انهما قد يكونا الطبل ومدق الطبل . . (باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص٢٢٧- ٢٢٨) .

(٩٦) نفسه ، ص٢٢٨-٢٣١ . . . علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٢٤٩- ٢٥٣ . . . شمّار ، جورج بوييه ، ص ٢٣٩،- ٢٤٦

(٩٧) اوبنهايم ، ليو ، ص٢٤٧ . . . كونتينو ، جورج ، ص٢٣٤- ٢٣٥ . . . باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص٢٢٥ . . . حنون ، نائل ، ص٣٢٧- ٣٣٤ .

(٩٨) باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص٢٣٦ .

(٩٩) نفسه ، ص٢٣٦- ٢٤٠ .

(١٠٠) نفسه ، ص٢٣٨- ٢٤١ . . . اوبنهايم ، ليو ، ص٢٤٧- ٢٤٨ . . . كونتينو ، جورج ، ص٢٣٥- ٢٣٦ . . . علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٢٥٣- ٢٥٦ . . . حنون ، نائل ، ص٣٠٧- ٣٢٦ .

(١٠١) باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص٢٤١-٢٤٩ .

(١٠٢) نفسه ، ص١٤٧ . . . ساكز ، هاري ، ص١٠٧ .

(١٠٣) كونتينو ، جورج ، ص٢٤٨ .

(١٠٤) باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص١٤٨ .

(١٠٥) نفسه ، ص١٤٩ .

(١٠٦) شمّار ، جورج بوييه ، ص٢٥٣- ٢٥٦ .

(١٠٧) باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص.١٥٠- ١٥١ .

(١٠٨) علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٣٦٢ .

(١٠٩) نهر خبر : اسم نهر عالم الاموات في حضارة وادي الرافدين الذي يعبره الموتى . .(باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص١٥٢- الهامش) .

(١١٠) نفسه ، ص١٥٢- ١٥٣ . . . علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ص٣٦٤- ٣٦٥ .

(١١١) باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص١٥٣-١٥٦ . . . علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٣٧٠- ٣٧١ .

(١١٢) تشبيه المرأة والزوجة بالبئر والحفرة ورد في آداب الاقوام الاخرى . . قارن هذا بما ورد في التوراة (سفر الامثال٥ :٥-١٥) (باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . ، ص١٥٥) .

(١١٣)شمّار ، جورج بوييه ، ص٢٥٢- ٢٥٣ .

(١١٤)باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص١٥٧- ١٥٩ . . . ، علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ،ج١ ، ص٣٧٤-٣٧٥ . . . نفسه ،سومر : اسطورة وملحمة ، ص٤٦ . . . ، ساكز ، هاري ، ص١٠٧- ١٠٨ . . . ، كونتينو ، جورج ، ص٤٥٠- ٤٥١ . . . شمّار ،جورج بوييه ، ص٣٢٨ .

(١١٥)باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . ، ص١٦٢- ١٧٠ . . . ، علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ،ج١ ، ص٣٧٣- ٣٧٤ Hawkes,Jacqutta,p.147,179,185,245.. .

(١١٦)الماجدي ، خزعل ، متون سومر ، ص١٧٦- ١٧٨ .

(١١٧)باقر ، طه ، مقدمة في أدب . . . ، ص١٦٧- ١٦٩ .

(١١٨)نفسه ، ص١٨١- ١٨٢ ، علي ، فاضل عبدالواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٣٧٥- ٣٨٢ .

(١١٩)النمس -MONGOOSEحيوان في حجم القط الاليف قصير اليدين والرجلين طويل الذنب مولع بصيد الفأر والحيات . والحاوي يرقى الحيّات : مُلاعب الحيّات السامة . - SNAKE CHARMER

(١٢٠)باقر ، طه ، مقدمة في ادب . . . ، ص١٨٣- ١٨٦ . . . ، ساكز ، هاري ، ص١٠٨- ١٠٩ .

الفصل السابع عشر
المعتقدات والخرافات - الأفكار والفلسفات

١- علاقة الإنسان بالإله

تشكل علاقة الفرد بالإله مجالاً موضوعياً لبحث المعتقدات الدينية لوادي الرافدين والتي تقوم على أن الآلهة خلقت الكون- البشر، فهي خالق كل شيء، وموجه كل شيء، ومنفذ كل شيء، وموحٍ بكل شيء قبل حدوثه. عليه اعتبرت سلطات الآلهة غير محدودة على الإنسان. وينضوي تحت هذه السلطة الفلاح والملك على السواء. من هنا تطلع القوم إلى آلهتهم تطلع العبد لسيده: بخوف ومسكنة، وبرهبة وحب وإعجاب أيضاً[١]. ويمكن ملاحظة الموروث التاريخي للنصوص المسمارية التي تؤكدُ هذا الاعتقاد في كافة مجالاته. إن الوثائق السومرية- الآشورية- البابلية، بعامة، تميزت بطابعها الديني. فالنصوص الطبية كانت تنظر للأمراض باعتبارها عقابا إلهيا نتيجة الذنوب التي اقترفها المريض، لذلك فليس هناك دواء لا يتضمن استخدام الصلاة والطقوس الدينية. كذلك فيما يخص النصوص الفلكية بحكم اعتقاد القوم أن النجوم تمارس نفوذاً حقيقياً على الإنسان. وتحمل النصوص التجارية قدراً واضحاً من الصبغة الدينية، فالعقود تبدأ فاتحتها باسم الآلهة وتختم في نهايتها بالقسم باسم الآلهة، كما أن قرارات القضاء ترتبط بالآلهة وتبتهل إليها. ويتضح الطابع الديني أيضاً في الأدب بمجالاته المتنوعة والتي تنسب كل حدث إلى إرادة الآلهة. فالإله هو الذي أوحى للملك إعلان الحرب وتحقيق النصر، وإن الملك بنى المعبد بناء على إرادة الآلهة.. يقول آشور بانيبال- الملك الآشوري: "لقد قطعت أوصال أعدائي وألقيت بهم إلى الوحوش الكاسرة لتأكلهم. وحين انتهيت من ذلك، انشرح قلب الآلهة العظام، آلهتي"[٢] .

ولأن الآلهة خلقت الإنسان لخدمتها وطاعتها، عليه أصبح من الخصال الحميدة والعظيمة للقوم بدءاً بالملك ولغاية عامة الناس إطاعة إرادة الآلهة. وبينما كان الاحتفال بالأعياد المتنوعة وأداء الطقوس الدينية من اختصاص الكهنة- المعبد، فإن إرسال النذور والقرابين للمعابد وحضور الاحتفالات الرئيسة والتقيد بالتعاليم العديدة والابتعاد عن المحرمات الكثيرة كان من واجب كل إنسان، الذي وجب عليه أن يكون خادماً مطيعاً لتعاليم الآلهة حتى يتجنب غضبها وعقابها وانتقامها منه ومن عائلته.. غير أن من الخطأ الاعتقاد أن دين وادي الرافدين كان مجرد دين رسمي أو مجرد تعاليم تقوم على الخوف والرهبة، بل كان كذلك دين عقيدة وقناعة ورغبة. فعندما تُقام الصلوات وتُنشد التراتيل في المعابد، كانت تتألق المشاعر المرهفة وتنفجر العواطف الصادقة نحو الآلهة. "لقد وضع سكان ما بين النهرين كل ثقتهم بِآلهتهم واعتمدوا عليها كما يعتمد الأولاد على آبائهم ويحدثونها كأنها الآباء والأمهات التي من شأنها أن تستاء فتبطش، ويمكن أيضاً استرضاؤها فتغفر لهم المعاصي والذنوب. لقد "عاش السومريون وورثتهم في الديانة كما يعيش السمك في الماء". كانت تعيش في داخلهم، تزودهم بالأوكسجين الروحي والفكري.(٣)

وإذا كانت النذور والقرابين والالتزام بالتعاليم والطقوس الدينية واجبة على كل فرد، فإنها لم تكن كافية لنيل عطف وبركات الآلهة، لأنها تتطلب كذلك سلوكاً اجتماعياً قويماً: أب طيب، ابن بار، مواطن صالح يدعو للمعروف وينهى عن المنكر. وفي نص سومري زاخر بالتعاليم الأخلاقية يقول: "لا تكذب وقل قولا طيباً، لا تتكلم بالشر، وقل الخير، لا تلفظ كلام قلبك حتى لو كنت وحيداً، وإذا تكلّمت بعجلة فستعيد ما قلته، وحتى تسكت يجب أن تمسك بِأعصابك"(٤). وهي مواصفات تُعبِّر عن القيم الاجتماعية- الأخلاقية السائدة حتى الوقت الحاضر في المجتمع البشري المعاصر، بعامة، وفي المجتمعات الأبوية بخاصة.. وتوصي واحدة من نصائح الحكمة البابلية بقولها: "اعبد كل يوم آلهتك، وأظهر العطف للضعفاء، قم بالأعمال الصالحة، وقدم العون في كل أيامك، لا تشهر بالآخرين وحدث بالحسنات، لا تقل أشياء خبيثة، وقل للناس قولاً جميلاً." ويؤكد Jacobsen أن الحياة المثالية للفرد تميزت بـ: الإذعان والطاعة.. وذلك في سلسلة تراتيبية من السلطة: الأُخت الكبرى، الأخ الأكبر، الوالدان، مراقب العمل، القاضي، الملك، الإله

الشخصي على طريق الآلهة العظام وإله السماء. وهذه المواصفات كانت مطلوبة للشخص الصالح لينال رضاء مجتمعه وآلهته[٥].

مقابل طاعة الفرد وإيمانه الصادق وسلوكه القويم، تُقدم الآلهة له الحماية ساعة الخطر، والعون عند الطوارئ، والمساعدة عند الحاجة، وتهبه الصحة الموفورة والمركز الاجتماعي المشرف والثروة والأبناء الكثيرين والعمر الطويل.. إلا أن معادلة (طاعة الآلهة = حياة سعيدة) لم تكن القاعدة ولم تكن شائعة عملياً.. فهناك حالات عديدة تمت فيها معاقبة أتقياء على نحو غير مفهوم[٦]. من هنا ثار سؤال وجيه: كيف يمكن أن يحدث كل هذا والآلهة "الحكيمة" تُسيِّر العالم؟ وكيف يمكن أن يسود الشر على الخير في حياة بعض الأتقياء؟.. وكان جواب الكهنة أن الآلهة نفسها لم تخلُ من صفات شريرة عندما اتبعت طريق العنف والبطش خلال المراحل الأولى من خلق الكون (ملحمة الخليقة). ورغم أن القوم لم ينسبوا لآلهتهم القداسة المطلقة، واعتقدوا بإمكانية ارتكابها للأخطاء، فهذا لم يمنعهم من التوجه نحوها باعتبارها حراساً للعدل[٧].

ومن هنا أيضاً، تصوروا أن الكون تسيره منذ البدء نواميس إلهية لا تتمثل في عنصر الخير فحسب، بل كذلك بعنصر الشر . فهما من مواصفات الإله والإنسان (المخلوق من دم إله شرير) معاً. وإذا قبل الفرد هذا التعليل عندئذ له أن يسأل سؤالاً آخر: لماذا لا يكون الشر من نصيب الأشرار والخير من نصيب الأخيار؟..كيف يمكن أن يصيب البؤس والحرمان تقياً ورعاً في حين يرفل الآبق والظالم بالغنى والعيش الرغيد؟. ولكن من ذا الذي يعلم كنه الآلهة؟ فحسب تعبير الفيلسوف البابلي:"إن ما يبدو للمرء ممتازاً هو إساءة للإله، وما يبدو خسيساً في قلب المرء هو ممتاز عند ربه"[٨].

ورغم أن الإجابة النهائية للكهنة هي أن التمسك بالتقوى هو طريق النجاح والسؤدد والصحة والسعادة، وأن الخير سينتصر في النهاية على الشر، وأن على المتعبد المبتلى في حياته أن يصبر ولا ييأس من رحمة الآلهة وعطفها. فإنَّ الشك والحيرة واليأس تبقى وليدة هذه العقيدة. ففي قصيدة سومرية بعنوان (رجل وربه)، وهي تسبق التوراة بألف عام، نشرها (كريمر) في كتابه- التاريخ يبدأ من سومر، يسأل الرجل المعذب إلهه بجزع:

"يا إلهي؛ النهار يسطع بنوره على الأرض
أما أنا فيومي مظلم

الدموع والحزن والضيق واليأس تسكن أعماقي
والمصير السيئ يمسك بيدي وينتزع أنفاسي
والحمّى اللعينة منتصرةٌ على جسدي
يا إلهي أيها الرب الذي خلقني، أنقذ وجهي
إلى متى تهملني وتتركني دون حماية"(٩).

وفي قصيدة (الصالح المعذب) يصرخ (أيوب البابلي) معلناً الحيرة والشك بقوله:

"من ذا الذي يعلم بإرادة الآلهة في السماء؟
ومن ذا الذي يدرك خطط آلهة العالم الأسفل؟
أين تعلّم الفانون طريق الرب؟
هذا الذي كان حياً البارحة، أصبح اليوم ميتاً.
للحظة يكون الانسان مكتئباً وفجأة ينقلب منشرحاً.
مرة يُغني بنشوة،
وفي لحظة تالية كأنهم ندابون محترفون...
أنا حائر إزاء كل هذا إذ لا أفهم جدواه"(١٠).

ولّدت هذه المعتقدات وما ارتبط بها من هاجس الموت والبؤس والحرمان والمرض والحزن وهموم الحياة، بعامة، عناصر الكآبة والقلق والخوف والتشاؤم وعدم الاطمئنان وغياب الاستقرار النفسي والمعيشي. هذه الظروف أحاطت بإنسان وادي الرافدين، خاصة عندما يشعر بأداء واجباته والتزاماته تجاه الآلهة، وفي نفس الوقت يتلقى الضربات والمصائب التي لا يستحقها(١١). ولم يكن التشاؤم لدى إنسان وادي الرافدين حالة عرضية لليأس، بل كان ميتافيزيقي metaphisical الأصل- غيبياً. كمنت جذوره في الآلهة ذاتها التي تجسدت في عناصر الطبيعة والكون وحملت في ذاتها عناصر الخير والشر وأصبحت مصدراً للحياة والكوارث معاً.

الأنهار والرياح والأمطار، مثلاً، وهي جالبة الحياة، يمكن أن تتحول لقوى مدمرة تهلك الزرع والإنسان.. وبمواجهة هذه الظواهر الطبيعية (الآلهة) القاسية، وجد القوم أنفسهم بلا حول ولا قوة.. ولَفّهم القلق الشديد إزاء ترقبهم لغد غير مضمون تجاه حصيلة جهودهم، بل وحياتهم غير المستقرة.. فكانت حياة الإنسان وعائلته ونتاج حقله

وماشيته، ومستويات الأنهار وفيضاناتها، وتوالي الفصول المختلفة، وحتى الكون ذاته، تحت رحمة القدر على الدوام. فإذا بقي البشر أحياء، وإذا عادت الحياة إلى الحقول بعد لهيب الصيف، وإذا استمر القمر والشمس والنجوم والكواكب في حركتها. فإن كل هذا يتحقق بإرادة الآلهة التي تقرر مصائر الكون سنوياً. لذلك ففي مطلع ربيع كل عام، كانت تُقام احتفالات هائلة ومثيرة في مدن عديدة، وفي بابل بخاصة، تشمل طقوس الزواج الإلهي المقدس، وتلاوة ملحمة الخليقة، وإعادة تثبيت الملوك، وتتوج أخيراً باجتماع الآلهة الذين "يقضون في المصائر" للسنة التالية. "عندئذ فقط بوسع الملك العودة إلى عرشه والراعي إلى قطيعه والفلاح إلى حقله. وعندئذ كذلك يستعيد ساكن وادي الرافدين ثقته بما حوله فبإمكان العالم أن يستمر بالوجود، بإرادة الآلهة المسترضاة، لعام آخر أيضاً"[١٢]. "وإذا كانت حياة البابلي شاقة مثل حياة المصري فإنها لم تستطع أن تحطم بشاشته الطبيعية ومرحه أثناء عمله اليومي. غير أن إنسان بلاد الرافدين كان غريباً عن الضحك، ويبدو أنه لم يكن قد تعلّم كيف يلهو"[١٣].

رسمت العقيدة الدينية لإنسان وادي الرافدين أشكالاً معينة من التصرفات والممارسات التي ترضي الآلهة، وأُخرى لا ترضيها وتكون عرضة لجلب غضبها وانتقامها. فحرص القوم على إرضاء آلهتهم لتحاشي غضبها وإنزال الشرور والأمراض بهم، كما حرصوا على تقديم القرابين لأرواح الموتى لاعتقادهم بأنها تحقق الراحة والاستقرار لروح الميت في العالم الأسفل، واهتموا كذلكً بدفن موتاهم وفق الشعائر والطقوس الدينية لأن ذلك يمنع خروج روح الميت في شكل شبح مخيف يلحق الأذى بالناس. ومع ذلك بقي الإنسان هذا يعيش في خوف دائم من هاجس إلهي جائر وآلهة غير مبالين careless، وبملاحظته انتصار الشر على الخير يومياً، استمرت حياته متشائمة، وأصبحت نظرته السائدة: أن حياة الانسان ليست ذات جدوى إن لم تكن تافهة[١٤].

٢- النصيب: القضاء والقدر

لكل إنسان، حسب عقيدة القوم نصيبه المقدَّر له من قبل الآلهة منذ ولادته ولغاية مماته.. وهذا النصيب يتميز بحسن الطالع أو سوء الطالع. ويحدد يومياً اتجاه وسلوكية ومزاج الفرد الكلية. والنصيب موجود في طبيعة الـ (نم) أو الـ (شمتو) للفرد، وهما لفظتان أولاهما سومرية والأخرى أكدية، بمعنى سمة الشيء أو صفاته. وفي نص لـ:

آشور ناصر بال (٨٨٣-٨٥٩ ق.م). يذكر الملك الآشوري بعد وصف مُجمل لإنجازات جيوشه: صرحت لي الشمتو عن طريق الآلهة العظام الذين أدوا الصلاة من أجل إدراك الشمتو الخاص بي... ثم يبين أن فتوحاته وانتصاراته هي جزء من (نصيبه) أثناء حياته ومماته. وبذلك تتضمن هذه اللفظة (الشمتو).. "إن شخصية الانسان هي هبة مرسومة الحركة والنتائج"، وهي نصيبه: قضاؤه وقدره- منسوبة إلى قوة خارقة ما فوق الطبيعة، تُحدد مسبقاً سجايا وملكات وحياة وممات الجنس البشري[١٥]. و(القَدَر) هو إرادة إلهية طالما أن الآلهة هي التي تحدد مصائر البشر. وفي مثل هذه العقيدة الدينية يعيش الإنسان في تناقض حاد بين الخضوع للقدر بما فيه من طوالع سيئة وبين التعاون معه حتى الموت.. هذه العقيدة القاسية التي تُجسِّد غياب إِرادة الانسان[١٦].

كما وأن الحالة الروحية لسكان وادي الرافدين التي تولي أهمية قصوى للسلطات التي تمارسها الظواهر المفاجئة على الفرد- المجتمع، توضح الأهمية الفريدة للطالع (الفأل) لديهم، باعتباره يكشف عن المستقبل."إن الطوالع التي تبين مقدماً المشاريع الإِلهية للعالم لا يُحصى لها عدد، وأهمها ذات نظام ميتافيزيقي، ويلعب الحلم، الذي له قيمة دينية، دوراً في تكوين الدين نفسه". ويمكن استخلاص الكثير من الطوالع من ولادة الكائنات الحية وغيرها من الظواهر الطبيعية والبشرية- الحيوانية. فالتشوه في خلقة المولود عند الإنسان أو الحيوان (حيث لم يكن واردا في عقيدة ميزوبوتاميا أن تمنح الإلهة ولادة لأطفال معوقين أو مشوهين)، والتصدع في بيت وهو في طور البناء طوالع سيئة. بل هناك ما لا يُحصى من الظواهر والحركات اللاإِرادية التي تشكل علامات عن المصير الذي ينتظر الإنسان- المجتمع. كل هذه الحركات الغريزية وحتى الصرخات وحركات المجيء والرواح للحيوانات والطيور الداجنة والبرية، علاوة على حركات النجوم والكواكب ومظاهر الكون الأخرى، كانت محل دراسة الكهنة[١٧].

هناك نص مسماري يتضمن ٧٧ طالعاً سيئاً، منها: رأس مقطوع يضحك.. في نيبور زلزلت الأرض.. خروف له أربعة قرون شوهد في مدينة (دير).. شوهد ثور يسفد حماراً.. في مدينة كلدة شوهد ملح في المدينة.. شوهد على ضفاف النهر كبش يبول.. امرأة لها لحية وشفتها السفلى مشقوقة.. في مدينة (ديت البداء) وجد نحاس في أعماق الجبل.. أسد وذئب وخنزير بري دخلت المدينة.. شوهد صقر أبيض وعصفور أبيض في

المدينة.. في بابل شوهد ضبع يفترس حية. هذه العلامات وغيرها كثيرة، تعتبر طوالع سيئة ومؤشرات مرسلة من القوى الخارقة لإنذار الانسان- المجتمع. وعند ظهور أي من هذه العلامات الغريبة عن فهم القوم فلا بد من اللجوء إلى كل الطقوس والشعائر الضرورية لتحويل مجرى الطالع الخطير. وإلى جانب هذه الطوالع المشؤومة فإن العلامات السماوية كانت ذات مدلول كوني. فالخسوف يُعتبر تهديداً لأمن المدينة- الدولة كلها. وهو مسؤولية الملك الذي تقع عليه مهمة ممارسة كافة الطقوس لحماية مدينته- دولته[١٨].

تضمنت معتقدات القوم كذلك طوالع جنسية. تم ربط سلوكية شهوة الإنسان بأوهام المستقبل. الإله خلق الجنسين والتكامل الجسدي بغرض الإنجاب واستمرار الجنس البشري، مع إعطاء الأولوية للرجل حسب النظام التراتبي الأبوي. وتُقرأ طوالع الجنس كعلامات مهمة لزيادة وتحسين الجوانب الحياتية لمستقبل الرجل. بمعنى أن منطق الفأل الجنسي يتضمن موضوع الذكر الذي عليه أن يكون دائما حذراً بشأن عاطفته وأن يلاحظ حدود رخاوة جسده. فـ "إذا امتطت المرأة الرجل أثناء العملية الجنسية، فإنها ستسحب قوة الرجل لمدة شهر، ويصبح في حال غير جيدة".. ويرتبط ذلك أن الدور القيادي للمرأة هنا يتعاكس ونظام التراتبية الأبوية.. و"إذا سمح الرجل أثناء العملية الجنسية أن تمسك المرأة قضيبه، عندئذ يصبح نجساً ولا تقبل الآلهة صلاته". وأيضاً "إذا كررت المرأة أثناء العملية الجنسية لمس فرجها، يصبح ذلك الرجل نجساً لبقية يومه وسترتجف يده".

وهناك طوالع ترتبط بعقيدة القوم بشأن قوة النظر seeing وقدرتها على الإصابة أو سحب قوة الشخص محل النظر لصالح الفاعل (الناظر). فعندما يكون الشخص المعني محل النظر، يصبح قابلاً للعطب vulnerable ومعرضاً للانكشاف exposed. فـ "إذا نظر الرجل أثناء العملية الجنسية إلى مهبل المرأة باستمرار، تتحسن صحته وتحصل له البركة".. أما "إذا نظرت المرأة أثناء العملية الجنسية إلى قضيب الرجل باستمرار، فسيتعرض للخسارة".

كذلك علّقت طوالع حضارة وادي الرافدين اهتماماً واضحاً على المني (ماء الرجل) semen باعتباره رأس مال الرجل؛ له أن يهدره فيواجه الخسارة وله أن يتصرف به بشكل سليم فيحقق الربح في حياته. فـ "إذا حصلت ممارسة جنسية لرجل مع امرأة، ثم قذف وانتشر القذف، سيكون ذلك جيداً ويحقق ربحا مالياً".. أما "إذا تكررت ممارسته الجنسية وتكرر قذفه، فإنه سيواجه مصروفات ثقيلة". و"إذا ما كرر الرجل ممارسته الجنسية بإفراط مع المرأة، فإنه سيموت في ربيع شبابه".

كما أن المكانة الاجتماعية للمرأة تلعب أيضاً دوراً في نجاح الرجل أو فشله أثناء ممارسته للعملية الجنسية. فإذا كانت المرأة تنتمي إلى مجموعة معبد عشتار أو القصر أو المعبد ومارس الرجل العملية الجنسية معها لمدة عام كامل، فإن الحرمان الذي كان يلفه، سيتخلى عنه.. بينما إذا تحققت هذه الممارسة مع عبدة في منزل الرجل، فإن الصعوبات ستلازمه[١٩].

وفي مثل هذه العقيدة التي جعلت من الشخص في مرتبة العبد، على أفضل افتراض، خضع إنسان وادي الرافدين في عقله وجسده وحياته إلى ثلاثة أشكال من القوى المسيطرة عليه سيطرة لا فكاك منها: الأول الخضوع لقرارات القدر التي لا تُرَدّ، وتقررها الآلهة وتحدد الخطوط العريضة والتفصيلية لحياته.. الثاني الخضوع لسلطة مطلقة يمارسها الملك باعتباره نائب الإله في أرضه.. الثالث الخضوع لوهم هجوم القوى الشريرة والمتوحشة غير المنظورة من الشياطين والعفاريت المحيطة به كظله والتي تترقب الفرصة لمهاجمته في كل لحظة. وهكذا قادت هذه القوى الثلاثية المسيطرة على إنسان وادي الرافدين (الإله، الملك، الشياطين) إلى خضوع عقلية القوم للغيبيات متضمنة مسلمات دينية وطقوساً سحرية متداخلة معها. يلاحظ مثلاً، عندما حدثت المنازلة الرهيبة بين (مردوخ) و (تيامات) أنهما لم يلجآ إلى قوتهما الذاتية، بل لجأ كل منهما إلى السحر الذي يُفترض أن قوته أعظم من القوة الإلهية.. كذلك الحال عندما قتل أنكي جده الأكبر أبسو (ملحمة الخليقة البابلية). ومع أن الممارسات السحرية تعايشت تاريخياً مع الطقوس الدينية على الدوام، إلا أن السحر احتل مكاناً سامياً خاصاً في ديانة حضارة وادي الرافدين.. فالسحر والتنجيم والعرافة توفر طرقاً للتنبؤ بالأحداث الكونية وإدراك نتائج القرارات الإلهية وأخذ إنذاراتها بعين الاعتبار، و"إذا كانت الصلاة والقرابين تمكن من إرضاء الآلهة، فإن الأشكال السحرية والطقوس الخاصة تطرد الشياطين. وفي الصراع ضد قوى الشر تتدخل (الرقيات) كأمر..."[٢٠].

٣- الخرافات، الشياطين - العفاريت

لا زالت الخرافات superstitions منتشرة في عصرنا الحاضر بهذه الدرجة أو تلك حسب مرحلة تطور المجتمعات، لكنها لا تشكل جزءاً من الدين الرسمي أو على الأقل ليست جزءاً رسمياً من فكر الدولة وممارساتها. أما في حضارة بلاد الرافدين، فكانت

الخرافات ركناً أساسياً من أركان الدين والدولة نفسها، وتتدخل عميقاً في حياة الناس. ومن أبرز معالم الخرافات الاعتقاد بالأرواح.

آمن سكان وادي الرافدين بوجود نوعين من الأرواح: الخيّرة- الحامية من الملائكة والجن الصالحين، وكانت أشهرها لديهم (إيلو- عشتار، لامو- شيدو). وهذه الأرواح الأربعُ كانت تتميز في هذه الحضارة باعتبارها ذات طالع حسن وتلتصق بالمتعبد كالتصاق ظلّه، وهي بركة إلهية تساعد على تحقيق الكسب الوفير وإبعاد الشر واستمرار الصحة والنجاح. عليه فالشخص الذي له (أرواح حامية)- الملاك الحارس- الإله الشخصي)- يكون سعيداً في حياته[٢١]. وكانت الثيران المجنحة المعلّقة خارج القصور الآشورية تُصور أرواحاً حامية.

وإلى جانب الأرواح الحامية، اعتقد القوم بوجود الأرواح الشريرة: الشياطين والعفاريت والجن الأشرار. وهناك أُناس مطبوعون على الشر من السحرة والساحرات الذين يمارسون (السحر الأسود) المؤذي. وهم قادرون على إصابة المرء بالمرض أو البلاء بفعل سحرهم الأسود، رغم إمكانية التغلب على هذه القوى الشريرة: عفاريت وبشر، بطرق سحرية مماثلة من قبل الكهنة السحرة لقاء أجر[٢٢]. والعفاريت لا تموت (خالدة) ولا يمكن تدميرها، ولكن يمكن عزلها ودفنها وإبعادها عن الأذى. ولحسن الحظ فهي، حسب عقيدة القوم، حسنة النية إلى حدود الغباء لكونها تتمتع بذكاء واطئ، لذلك يمكن بواسطة السحر الاحتيال عليها وإقناعها بالخروج من المكان المؤذى (بيت، جسم مريض..) وحبسها في قمقم أو تمثال- يصنعه الساحر لهذا الغرض- ويقوم بدفنها، أو تحويل انتباهها إلى حيوان أو شيء خارج المجال لتنتقل إليه[٢٣].

وتتفوق الأشرار من الجن على الجن الأخيار تفوقاً عددياً هائلاً. فهناك مجموعة يعتبرون من أبناء الآلهة الأشرار ممن سحقهم (مردوخ)- ملحمة الخليقة البابلية. ومجموعة أخرى قيل إن أنو إله السماء وضع بيضها. كذلك تتواجد مجموعة من العفاريت ترجع أصولها إلى العالم الأسفل، أي أرواح الموتى ممن لم يتلقوا دفناً لائقاً أو لم يجدوا من يُقدم إليهم النذور والقرابين أو ماتوا ميتة غير طبيعية (أسطورة موت انكيدو). وهذه المجموعة تظهر في أوقات متقطعة[٢٤].

اشتهرت في حضارة وادي الرافدين فئة من العفاريت تُعرف بـ (السبعة) أو

(مجموعة السبعة)- أنكو- وهي ذات أصل إلهي، قوية جداً بحيث لا تقف قوتها عند التدخل في حياة البشر حسب، بل وتتدخل حتى في حياة الآلهة نفسها. مثال ذلك خسوف القمر، إذ يبين نص مسماري أن "سبعة آلهة شريرة (مجموعة خاصة من العفاريت) شقَّت طريقها نحو قبة السماء، وتجمعت غاضبة حول هلال إله القمر." وفي هذا النص كانت الآلهة نفسها تتعامل مع هذه المعضلة. ولكن للناس دورهم حين يحدث الخسوف، وذلك بالمساعدة على طرد العفاريت التي سببت الخسوف، إذ يتم نصب نوع من الطبلة (النقارة) في ساحة المعبد وقرعها. وهذه العادة ظلَّت ممارسة تقليدية للناس حتى بعد أن اكتشف البابليون سبب الخسوف واستطاعوا حساب ذلك "بدقة فائقة"(٢٥). بل واستمرت هذه الممارسة لغاية فترة مُتأخِّرة في العديد من المدن والقصبات العراقية، عندما كان النساء والأطفال يهرعون إلى السطوح عند خسوف القمر ومعهم ما يُتاحُ لهم من أدوات المطبخ النحاسية (وغيرها) لضربها ببعضها وإحداث أصوات عالية من أجل تخويف العفاريت وطردها وتحرير القمر.

وتمارس هذه العفاريت (السبعة) طرقاً عديدة لتعذيب القوم، فهي تتجسَّد في صورة شيطانات الأحلام اللواتي يجامعن الرجال أثناء نومهم.. وهناك عفاريت أُخرى أشهرها (لاماشتو) تقوم بسرقة الأطفال حديثي الولادة من أُمهاتهم.. وتمنع الشيطانة أو (عفريتة الأحلام)- ابنة أنو- ولادة الأطفال في الوقت المناسب كما تقتل الطفل الوليد. وهي العين الشريرة والنَّفَسُ الوسخ الذي يصيب الشخص ممن يقع ضحية تحت نفوذها ودون أن يستطيع الهرب منها لأنها من القوة بحيث تكون قادرة على حبس المطر في السماء، وهي تُعيق نمو القصب، وتسلط العقم على المواشي والعائلات(٢٦).

توجد العفاريت في كل مكان تقريبا، رغم أنها تفضل أماكن خاصة، مثل الصحارى التي تُعد خطرة على المتجولين فيها، والمقابر والخرائب التي تعتبر مفضلة تكمن فيها. ويحتمل أن يزيد نشاط العفاريت في مناسبات خاصة مثلاً عندما تنتظر المرأة الولادة أو عند ولادتها تواً. لذلك يعزو الفكر القديم إلى العفاريت النسبة العالية من حمى النفاس وموت الوليد. وإن أغلب المصائب التي تصيب القوم كانت تنسب إلى التدخل المباشر للعفاريت(٢٧). هناك نص مسماري يقول "إن الأرواح الشريرة كالعشب الذي يغطي الأرض، برقها يصعق ويحرق كالنار، تُصيب الإنسان بالمرض وهو في فراشه، وتضيق على جسده، وتملأ المدن والأرياف نواحاً وآهات"(٢٨).

بوسع العفاريت أن تتخذ جميع الأشكال: أن تستلقي على هيئة حمار.. أن تطوف المدينة في شكل كلاب الصيد.. أن تنساب على الأرض كالأفاعي. ولها القدرة على اختراق البيوت من خلال شق الباب، والاندفاع مثل تيار هوائي، والقيام بحركات خاطفة، وهي تطير بسرعة هائلة كالشهب[٢٩]. كما عُرفت (مجموعة السبعة) كونها أكثر العفاريت الرهيبة والمرعبة، فنباحهم في كثير من الأحيان أسوأ من عضِّهم، وليس بمقدورهم دخول البيت أو الصفير أو التمتمة أو قلب الأشياء رأساً على عقب، فحسب، بل كذلك يستطيعون شق طريقهم إلى الاصطبلات وإيذاء الحيوانات وجعلها تفر إلى مختلف الجهات "وهذا هو مبدأ سيطرة الأرواح الشريرة بالمعنى الذي كان سائداً في العصور الوسطى." ومهما وُضِعَ من حواجز فإن هذه الأرواح الشريرة تستطيع ولوج البيت والقيام بالأفعال الشريرة، ودفع العائلات أن تتخاصم مع بعضها. وهي تتحمل مسؤولية أي ظرف سيئ يحيط بالإنسان "وواقع الأمر أن الكآبة الشديدة كانت طابع إحساس الإنسان بِأنه محاط من كل جانب بِأنواع من أعداء غير منظورين"، والتي قادت تصرفاتها إلى إنزال المصائب بالسكان في حياتهم اليومية، كسوء الحظ والمشاكسة والعصبية[٣٠].

وهكذا امتدت هذه الخرافات بين القوم إلى درجة أن مهمة تشييد مبنى أصبحت عملية خطيرة تتطلب اتخاذ الإجراءات الاحترازية الملائمة، وإلا قد تُطلق مجموعة من القوى الشريرة. وبغية إحباط قدرات هذه القوى،كان سكان وادي الرافدين يدفنون تماثيل صغيرة أو دمى في زوايا الأبنية أو تحت عتبات الأبواب. استمرت هذه العادة في الفترة اللاحقة بعد أن اقتصرت على دفن نقود قليلة في الأرض مصحوبة بقطعة من جلد تحمل أسماء معينة (رقى/ تعاويذ). "وهذه الفكرة تشكل أصل التطبيق الشائع في العالم بِشأن وضع (حجر الأساس)"[٣١]. كما أنها تواصلت، على الأقل، عند العراقيين، بتقديم الأضاحي الحيوانية عند بدء الأساس و/ أو الانتهاء من البناء.. "لقد كان الآلهة العنيفون المسارعون إلى الغضب لا يكفون عن المطالب التي يبتزونها من البشرية، والتي كانت تلف كل عمل من أعمال الحياة الدينية في شبكة من التزامات خالية من الرحمة، من أمثال تصوير العالم وهو مأهول بالعفاريت والأتنة التي تُطارد فرائسها، والطبيعة المعادية... وحياة في الآخرة أكثر شقاء من الحياة الأرضية... ذلك الفزع هو الانطباع عن الشقاء المستور الذي كان يخلفه الدين الذي لا يرحم والذي كان سكان بابل من أسراه"[٣٢].

٤- الخطايا والمحرمات: الطهارة والنجاسات

رغم أن فكرة الخطيئة والاعتراف والتوبة معروفة في الديانات بعامة، لكنها تختلف في ديانة حضارة وادي الرافدين، فلم تقتصر على كونها صعبة وشاقة فحسب، بل هي كذلك قاسية لدرجة يصبح من المستحيل الإيفاء بطقوسها والتزاماتها في حدود تُحقق رضاء الشخص بالعلاقة مع آلهته ومجتمعه وذاته. فالمذنب التائب لم يكن عليه فقط الاعتراف بكل الخطايا التي يعلم أنه ارتكبها، بل عليه كذلك أن يتلو خطايا إضافية ربما لم يكن قد ارتكبها أو ارتكبها دون قصد أو معرفة. ويرتبط بذلك أن الإنسان كان مهيّأ للخطيئة وارتكاب الذنوب عن وعي أو دون وعي. وهناك أنواع كثيرة من الخطايا تتقدمها معصية الآلهة واختراق نواميس الأخلاق (المجتمع) وعدم قيام الإنسان بواجباته الدينية والإخلال بها. وعندئذ يفقد المذنب توازنه ويصبح عرضة للكوارث والويلات والاضطرابات والمرض وربما الموت. إن الخطيئة هي مصدر العقاب، أما الحياة الفاضلة فكانت مصدر الثواب[٣٣].

اعتقد القوم أن الخطيئة قديمة قدم الإنسان.."إنهم (أي الحكماء) يقولون كلمة صادقة: ما ولد طفل بلا خطيئة... وما وجد طفل بلا خطيئة منذ القدم"[٣٤]. ورأي الحكماء هذا قد يخفي معنى فلسفياً قوامه استحالة تجنب الخطايا نظراً لكثرة المحرمات والممنوعات الدينية- الأخلاقية التي لا يستطيع (افتراضاً) حتى الطفل تجنبها أو الفكاك منها. وكانت الخطيئة في حضارة وادي الرافدين هي دينية بعامة، وأكثر الخطايا التي يرتكبها الإنسان بقصد أو بدون قصد تقف وراءها القوى الشريرة (الشياطين) التي توسوس للإنسان ارتكابها[٣٥].

كان الكاهن يسأل التائب، بعد أن يسمع اعترافه، إذا كان قد أساء إلى آلهة معينين، أو مارس الكذب، أو عاند سيده، أو أثارَ العداوة بين العائلات والأصدقاء، أو تسلّم ما ليس من استحقاقه، أو زيّف علامات الحدود، أو استعمل الموازين غير الدقيقة، أو احتفظ بما وجب إعطاؤه، أو سرق ودفع الآخرين للسرقة، أو تسلل إلى بيوت الآخرين، أو جامع زوجة جاره، أو ظلم أحداً، أو رفض إطلاق أسير. وهذا جانب فقط من الذنوب التي تتحقق نتيجة فعل مقصود. وهناك مجموعة أخرى من الخطايا التي يُحتمل أن التائب لم يرتكبها أو ارتكبها دون معرفة أو قصد، لكنها تثير حنق

الآلهة. لذلك يستمر الكاهن في سؤال التائب: هل رافق أحد المسحورين، وهل نام في سريره، أو جلس على مقعده، أو أكل من صحنه، أو شرب من قدحه.. وحين سار في الشارع: هل داس على آنية خمرة قُدمت للآلهة، أو وضع قدمه في ماء قذر، أو تخطى الماء المقدس، أو نظر مرتاباً إلى الماء المستعمل لغسل اليدين، أو لمس امرأة قذرة اليدين، أو نظر إلى فتاة لم تغسل يديها، أو لمس رجلاً لم يغسل يديه، أو لمست يده جسداً وسخاً. وهذه الأسئلة تشير إلى عدم الطهارة في تأدية الشعائر الدينية، وهي أقرب ما تكون إلى السحر والغيبيات[٣٦].

ولما كان القوم يعتبرون القانون الصادر عن الملك يستوحيه من الإله الذي ينوب عنه في حكم مدينته- دولته، لذلك أصبحت طاعة الملك والقانون من الالتزامات الدينية التي تحتل الأولوية، وأي انتهاك مهما كان ضئيلا لهذه الالتزامات خطيئة ضد الإله[٣٧]. "ومن الواضح أنه إذا كان كل عمل من أعمال الإنسان هذا يعتبر خطيئة فمن النادر أن يكون باستطاعة أي فرد أن يأمل في التهرب من الانتقام الإلهي"[٣٨].

إن ارتكاب ذنب- خطيئة تنجم عنه أضرار جسيمة سواء على المدينة التي يقترف أهلها الذنوب أم على الشخص المذنب. فالإله الشخصي يتخلى عنه ويصبح عرضة لهجمات العفاريت. وكذلك حال المدينة المذنبة إذ يتخلى إلهها الحامي عنها فتصبح مفتوحة أمام الأعداء وعرضة لأشكال المصائب والويلات والخراب (بمعنى أن زوال المدينة "الدولة" يقع على عاتق أهلها ممن تخلوا عن واجباتهم تجاه إله المدينة، فهجر مدينته وصارت مفتوحة أمام الأعداء لتدميرها). وليس الإنسان هو الوحيد الذي يمكن أن يقع ضحية خطاياه المقصودة وذنوبه وجهله، فمن المتوقع أن يُعاقب عن جريمة ارتكبها غيره لأن الخطيئة تنقل عدواها. والمذنب يمكن أن ينتقل ذنبه للأبرياء الذين يُصادفهم. ويُعبر مفهوم العدوى والمرض وتسلط القوى الشريرة عن أساس هذا الاعتقاد. كذلك الحال مع السحر، فالحديث مع إنسان مصاب بالسحر أو مشاركته طعامه أو شرابه أو مجلسه يكفي لانتقال عدوى السحر إلى الشخص الآخر. وليس الأحياء وحدهم ناقلي عدوى الخطيئة فالظواهر الطبيعية مليئة بالعناصر الشريرة الناقلة للعدوى[٣٩].

وهكذا كان على الانسان دوماً، سواء ارتكب خطيئة بقصد أم دون قصد أو لم يرتكبها أصلاً، أن يتوجه أثناء أداء التزاماته الدينية اليومية (الصلاة مثلاً) نحو

الآلهة طالباً المغفرة من ذنوبه. ففي أحد التعاويذ السومرية يقول التائب: "أيها الإله، إن أخطائي وإساءاتي كثيرة، إن البشر خرس لا يعرفون شيئاً، والإنسان مهما بلغ مركزه، ماذا يعرف؟، سواء أتى إثماً أم خيراً، فهو لا يعرف شيئاً"(٤٠).

ونقرأ في نص آخر"هل تقوى على التخلص من خطيئتك، ومصيرك، وذنبك، وعملك السيئ، وتشويه سمعتك، ومرضك، وعذابك، وسحرك، وأذى الغير... لقد طالتني النجاسة، وإني أجثو أمامك لتحاكمني وتصدر قرارك، حاكمني وأصدر قرارك على إثمي، واستأصل المرض الخبيث من جسمي ودمّر الشر الذي في لحمي وعقلي، حتى، إذا ما زال الشر عن جسدي ولحمي وعقلي، أقوى على رؤية نورك"(٤١).

وكانت اللعنة ملتصقة بالخطيئة، وهي من القوة بحيث أن الإله مجبر على تحقيقها حتى لو كانت ظالمة. إن لعنة أدابا (أسطورة أدابا) كسرت أجنحة الرياح الجنوبية. كذلك كانت لعنة أنكيدو للمومس. فرغم أن الإله شمش عنّف أنكيدو على لعنته، ومع أن الأخير تراجع عنها وبدّلها (ملحمة كلكاش- موت انكيدو) إلا أنه (شمش) صار مجبراً على تحقيقها ومسخ المومس إلى كلبة هربت للأرياف!(٤٢)

ورغم هذا المظهر السلبي والعقيم للخطيئة، انصاع إنسان وادي الرافدين إلى احترام الأوامر والتعاليم ورعاية الطقوس حتى يعيش بسلام مع الإله. وفي نص مسماري آشوري يقول "إن التقصير الذي يرتكبه الإنسان عن جهل يجلب عليه غضب الآلهة الآشورية وانتقامها"(٤٣). كما وأن الإقدام على أي أمر مجهول أو غريب يُعتبر عملاً مذموماً (خطيئة) حتى لو تم من غير قصد، وهذا ما يفرض يومياً على الإنسان أن يرفع يديه للآلهة معترفاً بذنوبه، لتهدئة غضب الآلهة، مستجدياً الرحمة لتحاشي الانتقام، ومتوسلاً الحماية من القوى الشريرة.

كانت قائمة النجاسات طويلة وغريبة في حالات عديدة، والإنسان المصاب بها يعتبر نجسا ويحرم على الغير الاقتراب منه أو لمسه أو لمسُ أدواته، وفي غير ذلك عليه تلبية طقوس الاغتسال والطهارة. من أمثال هذه النجاسات: المصاب بالسيلان والمرأة أثناء الحيض والمسحور. بل- وحسب عقيدة القوم- فإن كل مرض عقلي أو بدني يجعل المصاب نجساً طالما يعني اختراق الأرواح الشريرة لجسم المريض! وهناك أيضاً محرّمات كثيرة، ففي نص رسالة ملكية تضمنت ماهية المحرّمات (التابو) التالية:(٤٤) "محرّم

على أي شخص الخروج من بيته، محرَّم على كل كلب أن ينبح، محرَّم على كل ديك أن يصيح، محرَّم على كل خنزير أن يصوت، ناموا، ناموا، إلى أن يمر المحرم."

ويشير النص التالي للأوامر التي يجب احترامها خلال يوم (السبت البابلي)، وهو يوم محرَّم لا يقوم فيه أحد بأي عمل. فالملك لا يأكل لحماً مشوياً ولا يبدل ثيابه ولا يقدم قرباناً ولا يركب عربة، ولا تنطق الكاهنة أو الساحر بتنبؤ، وحتى الطبيب لا يضع يده على مريض[٤٥].

ويعتبر شهرا تشرين ونيسان من الأشهر المهمة جداً عند البابليين، وفي كل يوم من أيام الشهر وجدت قائمة طويلة بالمحرَّمات. من أمثلة ذلك: شهر تشرين (اليوم الأول)- لا يقابل خنزيراً في السهل لأن (هللولي) سيقع اختياره عليه، لا يأكل ثوماً وإلا لدغه عقرب، لا يأكل بصلاً وإلا مات كهل من عائلته.. (اليوم الثاني)- لا يروي بالماء حقل سمسم وإلا أُصيب بمرض، لا يقترب من امرأة لأنها ستنزع عنه قوة الإخصاب.. (اليوم الرابع)- لا يعبر نهراً وإلا فقد رجولته، لا يأكل لحم عصفور ولا يذهب إلى بيته في الحقول وإلا أصبح عدواً له من ليس له بعدو.. (اليوم الخامس)- لا يأكل لحم خنزير وإلا رُفعت عليه شكوى، لا يتوجه إلى بستان وإلا ضربه الإله نوسكو.. (اليوم السابع)- ليسكت في منزلته ويحافظ على الصمت فتشفع له (ننليل) عند (أنليل) ولا يحاكم ويحفظه الإله.. وفي الأشهر الأُخرى تكون الأوامر أقل قسوة، رغم أن فيها أياماً خطيرة من المحرَّمات، مثال ذلك: (اليوم السادس)- لا يُضاجع امرأة ولا يتلو صلاة الندامة والتوبة.. (اليوم الثامن)- لا يخرج إلى الطريق وإلا... (اليوم السادس والعشرون)- لا يخرج من الباب وإلا ماتت زوجته.. (اليوم الثلاثون)- لا يخرج الحنطة ولا يغربل قمحاً وإلا احترقت الأهراء[٤٦].

٥- الفلسفة والأفكار

تضمنت ملحمة الخليقة البابلية مضامين فلسفية واسعة، إذ وضعت الخلق ليس باعتباره بداية، بل كنهاية، وليس عملاً غير مبرر قرره إله واحد، بل نتيجة معركة كونية بين وجهي الطبيعة: الخير والشر- النظام والفوضى، وكشفت، بين أمور أُخرى، وجوب خدمة البشر للإله، وشرحت سبب تواجد عنصر الشر الطبيعي لدى البشر

المخلوقين من دم إله شرير. "وإذا كانت قصيدة (حينما في العلى...) قد بقيت تتلى من قبل كهنة بابل كل عام، في اليوم الرابع من احتفالات السنة الجديدة، طوال ألفي سنة تقريباً، فإن ذلك يعود إلى شعور البابليين بأن القتال الكوني لم ينته تماماً أبداً، وأن قوى الشر والفوضى كانت مستعدة على الدوام لتهديد ومنازلة النظام المكين للآلهة." وكان هذا (نهاية العالم) أحد مخاوف كثيرة جعلت إنسان وادي الرافدين يعيش في قلق مستمر من توقعات حصول الكارثة الكبرى(٤٧).

وكما سبقت الإشارة، فإن الدين لم يلعب الدور الكبير الذي لعبه في حضارة وادي الرافدين في أي مجتمع آخر قط، لأن إنسان هذه الحضارة كان يشعر على الدوام أنه يعتمد في وجوده واستمراره كلياً على إرادة آلهته. بمعنى أن عقيدة القوم كانت تنسب ذات الإنسان إلى العالم الخارجي (القوى الخارقة) في غياب إرادته- فكراً وممارسةً. بل وحسب Julia M.Asher لا توجد لفظة سومرية محددة بمعنى ذاكرة أو عقل الإنسان، وأن العلاقة بين الفكر والعقل لم تكن قائمة. من هنا غلبت على الحصيلة الدينية للقوم وأساطيرهم الغيبيات والخرافات، وغلّفت أفكارهم الخيالات الجامحة بالهرولة وراء الأوهام من قوى خارقة وشياطين وعفاريت غير منظورة، واتخاذ الطقوس الدينية مرجعاً ومصدراً ومنهجاً للكشف عنها وتفسيرها والتعامل معها بما يحقق لهم الحياة الآمنة والسلام الذاتي المنشود. وهذا هو السبب الذي يجعل التقسيم الحديث للفكر والمعرفة إلى فنون وعلوم تطبيقية يبدو غريباً عن تصورهم، حيث اعتبروا كل علوم المعرفة متماثلة وذات أهمية متساوية، ولم يستطيعوا ملاحظة عملية نشوء وتطور المعرفة كما هو حاصل في العصر الحديث(٤٨).

ومع أنهم عالجوا أموراً لا تقل شأناً وخطورةً عما كان يشغل الفلسفة اليونانية والفكر الحديث، وحققوا عدداً مهماً من الإيجابيات، بيد أن تفكيرهم كان "خيالياً وشعرياً وأسطوريا" في تفسير القضايا الأساسية التي عالجتها الفلسفة اليونانية بأسلوب موضوعي يقوم على منهج الاستقراء والاستنتاج inductive & deductive الذي غاب عن تفكير حضارة وادي الرافدين. عليه، لم يحرزوا سوى تقدم بطيء في حركة تطور جهودهم. إذ أسسوا علومهم وفنونهم على مبادئ ما ورائية (ميتافيزيقية) فأوصدوا الباب أمام الجهد المثمر عن تفسيرات عقلية لمنشأ الظاهرة. لقد اكتشفوا أجوبة للكثير من الأسئلة المتعلقة بـ (متى) و (ماذا) يحصل هذا أو ذاك، بتركيزهم

على مسبب الحدث (الإله) لا على أسباب الحدث وكيفية حصوله. وهذا ما يعرف بـ "الفكر الميثوبي" METHOPEICK، أي الفكر الأسطوري الذي ينحو في تفسير الأحداث منحى أسطورياً. وهذه النظرة الطوباوية منعتهم من أن يسألوا أنفسهم (كيف) و(لماذا) حدث هذا أو ذاك. ولم يجربوا أبداً تأسيس نظريات في هذه المجالات، بل كرسوا جُلَّ اهتمامهم على جمع المعلومات وترتيبها بطريقة بدائية لم تخلُ من السماجة والأخطاء. ويرتبط بذلك أن (قانون العلة) Law of Causality، الذي يشكل أساس منهج العلوم الحديثة لم تكن له آثار واضحة في الفكر القديم. يضاف إلى ذلك أنه بدلاً من اعتبار منهج الاستقراء والاستنباط وقانون السببية أساس منهج الفكر الحديث، اعتمد الفكر القديم على المثالية المطلقة ومنهج التمثيل والقياس analogy، أي منطق تسبيب حدث ما بحدث سابق عليه. مثلاً فيضان النهر بسبب غضب الآلهة، وموت صاحب الدار بسبب نعيق الغراب على سطح داره والخ..[٤٩]

صاحبت ديانة وادي الرافدين التناقضات والصراعات التي شكلت أكثر مظاهرها البارزة. فالعقيدة الدينية تميزت بتعدد الآلهة، ولكل مدينة إلهها الحامي. ورغم تماثل النمط العام لهذه العقيدة وتقبل الفكر الديني نظاماً معيناً من الأبوة والقربى خاصة بالآلهة، كما هو الحال عند البشر، إلا أن كل سلطة كهنوتية داخل كل من تلك المدن راحت تضع مجموعة معتقداتها المنفردة الخاصة بها مُركِّزة على تعظيم الإله الحامي للمدينة. وهكذا أخذت المدن الأقوى تبتلع جاراتها من المدن الأضعف الواحدة تلو الأُخرى من أجل تعظيم الإله الحامي للمدينة وملكها، واستمرت الصراعات على امتداد هذه الحضارة تقوم على وجهة النظر الدينية هذه في تعظيم الإله الحامي، دون إغفال الدوافع والأسباب الأُخرى، خاصة الاقتصادية[٥٠]. وفي مثل هذه الحياة التي كانت تواجه أصلاً صراعاً حامياً مع الطبيعة (الآلهة) القاسية، أصبحت بيئة الإنسان- المجتمع مليئة بالصراعات والخوف والقلق. وفي ظروف نظرة الإنسان السومري- الآشوري- البابلي إلى حياته باعتبارها عبثاً على الأرض، وما ينتظره من حياة وراء القبر في العالم الأسفل من الظلمة والتراب أسوأ حالاً، فإن شعور إنسان حضارة وادي الرافدين وانعدام أمله أن تكون له قيمة في هذه الدنيا أو العالم الآخر خلقت فيه باستمرار عوامل اليأس والتشاؤم، بحيث أصبح هذا الموقف جزءاً من فكر بلاد الرافدين[٥١].

كان إنسان وادي الرافدين هدفاً مستمراً لهجمات الشياطين والعفاريت في كل لحظة متوقعة، وكان عليه اتباع ما تكشفه طوالعه والعمل على تحويل تلك السيئة منها. وهذا قد يتطلب منه تعديل حياته سواء بالعلاقة مع عمله ورزقه أو عائلته وعلاقاته الاجتماعية وغيرها. من هنا أصبح إنسان وادي الرافدين ضحية الأوهام والخرافات، تائها منقاداً لتصورات الأخطار (الخرافات) الشديدة التي يتخبط فيها، وكان عليه دوما أن يكشف طالعه ويميز بين الخير والشر تجنباً للمصير المؤلم الذي ينتظره كل يوم وكل لحظة[٥٢].

وبغرض معرفة طالعه أو معالجة مرضه كان لزاماً عليه طلب المساعدة من خلال الطقوس السحرية. وكان السحر يقوم على مبدأين يرجعان أصلاً إلى المنطق البدائي: أولهما الاعتقاد بإمكانية إحداث الشيء بتقليد عملية حدوثه، وهو ما يُعرف بـ (مبدأ التشابه). مثل رسم صورة الحيوان الذي كان يرمي إنسان الكهوف إلى اصطياده لتوفير غذائه. حيث اعتقدوا أن رسم الصورة يمكن أن يؤدي إلى وقوع الحيوان فريسة سهلة أثناء مطاردته. وبالمثل فإن عمل دمية ثم كسر يدها أو إتلاف عينها يلحق نفس الأذى بالشخص أو الشيء المعني (الشبيه بالدمية). ثانيهما الاعتقاد بأن الأشياء التي كانت جزءاً من جسم الإنسان تبقى على صلة به حتى بعد انفصالها عنه، وهو ما يُعرف بـ (مبدأ المصاحبة). مثال ذلك الاعتقاد أن بمقدور الساحر تسبيب الأذى لشخص معين من خلال تأثيره السحري في خصلة من شعر ذلك الشخص أو قلامة ظفره أو ضرس مخلوع[٥٣]. وكانت هذه الطريقة شائعة في العديد من المدن والقصبات العراقية لغاية فترة متأخرة، خاصة عندما يشعر الشاب بحبه لشابة لا تُعير له اهتماماً، فيلجأ لمثل هذه الطقوس السحرية عند أهل الرقى والتعاويذ لكسب حبها. هذا علاوة على لجوء البعض لما يسمونه بالسحر الأسود باستخدام الساحر تلك الأجزاء التي كانت مرتبطة بجسم الغريم، بل وحتى قطعة من لباسه. وفي سبيل حماية الشخص من خطر الشياطين والأرواح الشريرة أو شفائه من المرض الذي سببته، ابتدع السحرة القدماء (الحرزة) التي كانت تحتوي على تعويذة مكتوب فيها دعوة للآلهة حماية صاحب الحرزة، وتحتوي كذلك صورة الشيطان المقصود الذي يراد تخليص المريض أو حمايته منه. وهناك نماذج كثيرة جداً من هذه الأعمال في النصوص المسمارية المكتشفة، ومنها حرز عُملت

خصيصاً لحماية النسوة أثناء الحمل والرضاعة. كما وان عادة حرق البخور تمتد في أصولها إلى الاعتقاد بطرد الشياطين والأرواح الشريرة.

وإذ يعتبر الفكر الحديث القيم الدينية: الخير والشر، الحق والباطل، العدالة والظلم، الحلال والحرام، مفاهيم مشتملة على نوع من الوجود المطلق وتخص الفرد نفسه ومعتقداته، فإن الفكر العراقي القديم اعتبرها من نتائج إرادة الآلهة، وجزءاً لا يتجزأ من أمور الحياة والتي على الإنسان- المجتمع البحث عنها والتعامل معها، رغم أن الحياة الدنيوية النسبية بطبيعتها تبقى عاجزة عن التعامل مع هذه القيم المثالية المطلقة[٥٤].

من أنماط التفكير الأُخرى لدى القوم ما يُعرف بـ (مبدأ الاسم). ويقوم هذا المبدأ على قاعدة تقول: لا يمكن أن يوجد شيء دون أن يكون له اسم. فتسمية الشيء مرادفة لوجوده وخلقه، وهو ما ركَّزت عليه ملحمة الخليقة البابلية التي تبدأ فاتحتها: حينما في العلى.. لم تُسمَّ السماء باسم. وفي الأسفل لم تُذكر الأرض باسم. ولم يكن لأيِ شيء اسم.. وما دام لم يكن للشيء اسم فهو غير موجود. وتقوم التوراة على نفس المنطق عندما تذكر: إن الله بعد أن خلق الحيوانات استدعاها أمام آدم لكي يعطيها أسماءها وبذلك يضفي عليها وجودها الفردي (الإصحاح الثاني). وكذلك عندما سأل موسى ربه عن اسمه، لم يبح به، بل قال "أنا من أنا" (سفر التكوين ٥- ٥، سفر الخروج ٣: ١٣-١٤). كما ورد نفس المبدأ في (كتاب الموتى) عندما يقول "لم أمتْ ولم يمتْ اسمي". ويركن أفلاطون إلى نفس الخط من التعليل فيرى في المعلول انعكاساً لاسمه الصحيح. وهذه الفكرة تشبه نظرية شوبنهاور (١٧٨٨- ١٨٦٠)- الفيلسوف الألماني- صاحب نظرية التشاؤم- القائلة بعدم إمكانية وجود العلّة دون المعلول[٥٥].

وبذلك يصبح (الاسم) الذي هو رمز تعريفي للمعلول، وكأنه جوهر المعلول ووجوده، وله نفس مواصفاته وسماته. وهذا محل شك كبير أمام المعالجة الفكرية الحديثة. وارتباطاً بنظرة القوم إلى أن اسم الشيء يضفي عليه وجوده وسماته، اهتم سكان وادي الرافدين باختيار (الأسماء الحسنى). فجاءت أسماؤهم إلهية الاشتقاق، بربط اسم الشخص بالإله بعبارات الشكر والثناء والطاعة والعبودية. وامتدت هذه العادة الدينية لتشمل حتى أسماء الشوارع. ويرتبط بذلك اتخاذ ملوك حضارة وادي الرافدين ألقاباً

وأسماء تعظيم وتمجيد متعددة، كما خلع البابليون على إلههم الحامي (مردوخ) أسماء تعظيم وتمجيد بلغت خمسين اسماً (ملحمة الخليقة البابلية) وهي طريقة معتقدية تعظيمية استمرت لغاية الوقت الحاضر بالعلاقة مع أنظمة الحكم الأبوية- القبلية.[٥٦]

وما دام اسم الشخص يعكس جوهره وقوته ووجوده، لذلك كان على صاحبه أن يحرص على عدم كشفه خوفاً من استخدامه من قبل السحرة. يلاحظ على المصريين مثلاً تسميتهم للطفل باسم بينما ينادونه باسم آخر طوال حياته. وهناك أسطورة مصرية تقول: عندما شاخ الإله (رع) تعلمت (إيزيس)- الساحرة- كيف تمزج لعاب بعض الآلهة بالتراب لتصنع منها (أفعى) وضعتها في طريق (رع) فلدغته في عقبه، وفي سورة غضبه استدعى إليه (إيزيس) التي ادعت أنها لا تستطيع معالجته ما لم تعرف اسمه الحقيقي.. وبفضل هذه المعرفة ارتفعت (إيزيس) لمصاف الآلهة[٥٧].

ورغم مشاركة المجتمع الحديث في فكرة تبني اسم الشخص متجسدة في البطاقة الشخصية، فإن هناك اختلافاً موضوعياً، فالفكرة حديثاً تقتصر على تعريف هوية الشخص دون إضفاء أية صفة أُخرى، بينما اعتبر الاسم قديماً جوهر الشيء ووجوده ومادة مهمة لأعمال السحر.

اقترن المنهج الفكري لحضارة وادي الرافدين بالتركيز على مبدأ التمثيل والقياس. فأصبحت جهودهم في مختلف حقول المعرفة بما في ذلك الفلك والتنجيم والتنبؤ والسحر والعرافة ومعرفة الطوالع وطرق الكهانة المختلفة تنطلق من هذا المبدأ، كما في محاولاتهم تفسير الظواهر الطبيعية على أساس علامات إلهية لما سيقع لاحقاً. وكذلك جاءت طريقتهم في التصنيف بالعلاقة مع حقول المعرفة المختلفة على أساس التشابه الظاهري، وهو أسلوب مشتق أيضاً من التمثيل والقياس. "وهذا يعني في الحقيقة وجود خطر أخذ القشور دون اللباب"[٥٨]. وعلينا كذلك أن نأخذ في اعتبارنا ونحن نعيش عصر الحضارة الحديثة أن منهج القياس لا زال يطغى على الكثير من تفكيرنا وسلوكنا وأحكامنا!!

وأخيراً قبع تفكير ومنهج حضارة وادي الرافدين في اعتقاد القوم إمكانية معرفة إرادة الآلهة من خلال ملاحظة علامات سماوية- بشرية- حيوانية- كونية غريبة على فهمهم، بدراستها وتفسيرها ومعرفة كنهها والتصرف إزاءها بما يحقق رضاء الآلهة. من

هنا تركزت جهودهم وانحصرت في إطار ديني غيبي مانع بصرامة توجيه فكر الإنسان إلى ما هو أكثر من العلم التقليدي الموجه لمعرفة إرادة الآلهة (العلامات الكونية). وتحريم إعمال الفكر في كل ما هو جديد خارج التفسير الديني، وبقيت هذه الجهود محدودة في حصيلتها أمام هذا الانغلاق الفكري لغاية توقفها وموتها مع موت هذه الحضارة.

وفي الختام، ومع أن الحضارة السومرية- أساس حضارة وادي الرافدين- تشكل بداية التاريخ حسب (كريمر)- التاريخ يبدأ من سومر- ورغم الاعتراف أنها تُعتبر المعجزة الحضارية الأُولى بالعلاقة مع المعجزة الحضارية الثانية (الأغريقية) والمعجزة الحضارية الثالثة (الغربية)[٥٩]، فإن الحضارة السومرية- الآشورية- البابلية، تبقى حضارية بدائية ولدت وماتت في أحضان الكهنة- المعبد. وأخضعت العقل البشري وكافة فروع الحياة للفلسفة الماورائية التي تتسم بمحدودية التفكير وبطء حركة التطور، ذلك لأن الدين هنا يصبح وعاء الحضارة وبيئة مقيدة لحركة ونمو عناصرها. بكلمات أخرى كان الدين في هذه الحضارة هو المتغير المستقل بينما شكلت عناصر الحياة المادية والحضارة الدنيوية عوامل متغيرة تابعة لهذه الحاضنة الجامدة (الدين). هذا على خلاف الحضارة الحديثة التي وفرت بيئة اجتماعية هيأت لفكر الإنسان الانطلاق إلى آفاق رحبة بعيداً عن القيود والحدود والمحرمات من أجل اكتشاف المجهول وفق مناهج البحث الحديثة ومنطق العقل والتفكير غير المحدود والاستناد إلى مبدأ الشك في كشف كنه المجهول ومحاولة الإجابة عن (لماذا) حدث هذا وذاك وسبل مواجهته (كيف). فعندما يصبح الدين وعاء الحضارة يتقيد الفكر وعناصر الحضارة بقيود الطقوس الميتافيزيقية بما فيها من مطلقات وغيبيات وخرافات ومسلمات وثوابت وحدود وقيود لغاية تكلسها وموتها.

وفي ظروف هذه الحضارة الدينية لوادي الرافدين، ورغم أنها نقلت البشرية من عصر ما قبل التاريخ إلى عصر التاريخ (اختراع الكتابة)- وأقامت أول مجتمع سياسي منظم في تاريخ البشرية بسلطته السياسية ونظامه الاجتماعي- الاقتصادي وقوانينه المستمدة من نظام الحكم السماوي ونواميسه.. فإن ولادة هذه الحضارة من رحم المعتقدات الدينية قادتها إلى بناء بيئة اجتماعية ترتكز على أربعة أركان أساسية لا

تتفق ومتطلبات السير باتجاه الحضارة المعاصرة: أولها المعتقدات المطلقة في التعامل مع عناصر الحياة الدنيوية النسبية.. وثانيها العنف باعتباره وسيلة سماوية لحل المعضلات الدنيوية ولتعظيم الإله الحامي والملك.. وثالثها الغيبيات- السرية التي تخص الآلهة- الملائكة والشياطين- الجن والعفاريت غير المنظورة.. ورابعها وحدانية القيادة السياسية التي تجسدت في (مبدأ التفويض الإلهي للملك) والحكم المطلق والعلاقات الأبوية.. وهي ذات الأركان الأربعة للبيئة الاجتماعية للعراق الحديث، مع الأخذ في الاعتبار الاختلافات النسبية في الدرجة والتفاصيل!![٦٠].

هوامش الفصل السابع عشر

(١) اوينهايم ، ليو ، ص٢٤٩ . . . ، كونتينو ، جورج ، ص١٢٨ (و) ص٤٤٣- ٤٤٤ .

(٢) شمار ، جورج بوييه ، ص٣٢ .

(٣) رو ، جورج ، ص١٤٣- ١٤٤ .

(٤) شمار ، جورج بوييه ، ص٣٢٨- ٣٢٩ .

(٥) رو ،جورج ،ص١٠ ..Hawkes,Jacquetta,p.214

(٦) علي ، فاضل عبد الواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٣٦١- ٣٦٢ .

(٧) شمار ، جورج بوييه ، ص٢٤١ .

(٨) ساكز ، هاري ، ص٢٣٠ .

(٩) شمار ، جورج بوييه ، ص٢٥٦ ، الهامش١ .

(١٠) رو ، جورج ، ص١٤٧ .

(١١) كونتينو ، جورج ، ص٤٥٠ . . ..Hawkes,Jacquetta,p.146

(١٢) رو ، جورج ، ص١٤٧- ١٤٨ .

(١٣) كونتينو ، جورج ، ص٥٠١ . . ..Hawkes,Jacquetta,p.186-187

(١٤) ساكز ، هاري ، ص٢٣٠ . . . ، عبد الواحد ، فاضل (و) سليمان ، عامر ، ص١١٧ . . ..Hawkes,Jacquetta,p.23

(١٥) اوينهايم ، ليو ، ص٢٥٦ . . ، الماجدي ، خزعل ، الدين السومري ، ص٣٢- ٣٣ .

(١٦) شمار ، جورج بوييه ، ص٧٧ .

(١٧) نفسه ، ص٧٦- ٧٧ . . Julia M. Asher-Greve.The Essential body,Mesopotamia Conceptions of the Gerdered, Gender and. History,p.32.., Guinan,Ann Kessler,Auguries of Hegemony: the sex omens of Mesopotamia, Gender and History,p.39.

(١٨) نفسه ،ص٧٩ .

(١٩) Wyke,Maria,Introduction,The Gender and History,p.1-4.., Julia M.,Asher-Greve,p.8-35..,Guinan,Ann Kessler,p.39-45.

(٢٠) نفسه ، ص٣٧- ٣٨ ، ٢٧٧ . . ..Hawkes,Jacquetta,p.212

(٢١) اوينهايم ،ليو ،ص٢٥١-٢٥٢ . . . ، كونتينو ،جورج ، ص٤٢١ . .

(٢٢) ساكز ، هاري ، ص٢١٣ ، ٢١٦ .

(٢٣) نفسه ، ص٢١٨- ٢١٩ . . ..Hawkes,Jacquetta,p.203

(٢٤) كونتينو ، جورج ، ص٤٢٣-٤٢٤ . . . ، شمار ، جورج بوييه ، ص٨٤ .

(٢٥) ساكز ، هاري ، ص٢١٥ .
(٢٦) كونتينو ، جورج ، ص٤٢٣ .
(٢٧) ساكز ، هاري ، ص٢١٣ .
(٢٨) شمّار ، جورج بوييه ، ص٥٢ .
(٢٩) ساكز ، هاري ، ص٢١٥- ٢١٦ .
(٣٠) كونتينو ، جورج ، ص٤٢٢- ٤٢٣ .
(٣١) بارو ، اندري ، ص٢٩٩
(٣٢) كونتينو ، جورج ، ص٥٠٠ .
(٣٣) نفسه ، ص٤٤٧- ٤٤٨ . . . ، الماجدي ، خزعل ، متون سومر ، ص٣٠٢ .
(٣٤) حنون ، نائل ، ص١٤٧ .
(٣٥) شمّار ، جورج بوييه ، ص٢٣ (و)٥٢ (و)٨٤ .
(٣٦) نفسه ، ص١١٨ . . . كونتينو ،جورج ، ص٤٤٨ .
– أحجار الحدود :طريقة لتثبيت ملكية العقارات تشبه وثيقة ملكية الطابو (التسجيل العقاري) ، وكانت تُكتب على أحجار معينة ابتكرها الكيشيون (العهد البابلي الوسيط) .
(٣٧) شمّار ، جورج بوييه ، ص٨٤ (و)١٠١ .
(٣٨) كونتينو ، جورج ، ص٤٤٩ .
(٣٩) حنون ، نائل ، ص١٤٧ . . . شمّار ، جورج بوييه ، ص٧٥ . ..DeDEMieroop,p.47.
(٤٠) حنون ، نائل ، ص١٤٧ .
(٤١) شمّار ، جورج بوييه ، ص٤٥-٤٦ .
(٤٢) نفسه ، ص٩٠ .
(٤٣) نفسه ، ص١٣٧ .
(٤٤) نفسه ، ص١٢٤ .
(٤٥) يُشير تقويم معماري خاص بالأعياد والأيام المختصة لتقديم القرابين إلى الأيام٧ (و)١٤ (و)٢١ (و)٢٨ (السبت)– عطلة أسبوعية ، وأن البابليين يرتاحون أيام السبت للمصالحة مع الآلهة بعدم القيام بأي عمل . وهو ما أخذه "التوراة" عنهم . وبذلك يُعتبر البابليون أول من بادر إلى خلق فكرة العطلة الأسبوعية الواردة في الأديان الرئيسة . .(ديلتش ، فردريك ، ص٣٤) . .
(٤٦) شمّار ، جورج بوييه ، ص١١٩- ١٣٧ .
(٤٧) رو ،جورج ،ص١٤٢ . ..Hawkes,Jacquetta,p.11-12.
(٤٨) نفسه ،ص١٢٨ . . . اوبنهايم ، ليو ،ص٢٥٢ . . .كونتينو ، جورج ، ص٣٦٦ . . .Julia M,Asher-Greve,p.10.
(٤٩) كونتينو ، جورج ، ص٣٦٥- ٣٦٦ . . . رو ، جورج ، ص٤٩٥ . . . باقر ،طه ، مقدمة في أدب . . . . ص٤١- ٤٣ . . . علي ، فاضل عبد الواحد ، سومر : أسطورة وملحمة ، ص٨٧ .
(٥٠) كونتينو ، جورج ، ص٤٠٣ .
(٥١) ساكز ، هاري ، ص٢٣٠- ٢٣١ .
(٥٢) كونتينو ، جورج ، ص٤٨٢ .
(٥٣) علي ، فاضل عبد الواحد ، حضارة العراق ، ج١ ، ص٢٠٢- ٢٠٣ .
(٥٤) كونتينو ، جورج ، ص٤٠٠ .
(٥٥) نفسه ، ص٢٧٦- ٢٧٧ . . . باقر ،طه ، مقدمة في أدب . . . . ص٤٣ .
(٥٦) اوبنهايم ، ليو ، ص٢٤٩ . . . كونتينو ، جورج ، ص٢٧٩ . . . علي ، فاضل عبد الواحد ، من الواح سومر إلى التوراة ، ص١٠٨ .
(٥٧) كونتينو ، جورج ، ص٢٦٢ .
(٥٨) نفسه ، ص٢٧٤ .
(٥٩) الماجدي ، خزعل ، متون سومر ، ص١١- ١٢ .
(٦٠) رشيد ، عبد الوهاب حميد ، العراق المعاصر ، ق٢- ف٢ .

الخاتمة
الخلاصة والاستنتاجات

هذا كتاب ثقافي يُحاول تقديم قراءة موضوعية لأولى الحضارات البشرية التي بناها الرواد الأسلاف وظهرت متكاملة ناضجة في حدود ٣٠٠٠ ق.م والتي لا زالت تعيش في أفكارنا ومعتقداتنا وممارساتنا- بهذا القدر أو ذاك- بهدف المساهمة في التوعية الثقافية على طريق بناء وعي نقدي موضوعي باتجاه مراجعة الذات. من هنا تضمن هذا الكتاب سبعة عشر فصلاً تبدأ بالبيئة الطبيعية وعصور ما قبل التاريخ ولغاية عصر التاريخ والكتابة ونشوء أولى المجتمعات السياسية المنظمة (عصر فجر السلالات) والإمبراطوريات السومرية والآشورية والبابلية، وما سادها من التنظيمات القانونية وانتشار العلوم والمعارف، وطبيعة الحياة اليومية والعائلية والمعتقدات الدينية والأفكار الفلسفية والمناهج التحليلية.

كشفت الآثار التاريخية في كهوف المنطقة الجبلية لشمال العراق عن وجود الإنسان القديم منذ ما لا يقل عن ١٢٠ ألف سنة. ومنذ أكثر من عشرة آلاف سنة، وبعد أن أخذ إنسان الكهوف العيش في المناطق المكشوفة، نجح في نقل البشرية من عصر جمع القوت إلى عصر إنتاج القوت. فأصبحت منطقة كردستان العراقية بؤرة الثورة الزراعية التي لم تصل لأوربا إلا بعد فترة لا تقل عن ٣٥٠٠ عام. ومع انتشار القرى الزراعية في وادي الرافدين، بدأ الاستيطان في الجنوب بحدود ٦٠٠٠- ٥٠٠٠ ق.م، وبرزت جهود الأوائل ممن استوطنوا السهل الرسوبي بتحويل بيئة وحشية من الأهوار والمستنقعات والأحراش أو البادية الجرداء إلى بيئة زراعية مروية معطاء بحيث شخَّصت الكتب المقدسة جنة عدن فيها والنهرين التوأمين(دجلة والفرات) ضمن أربعة أنهار تنبع من الجنة.

تركت حضارات وادي الرافدين آثارها في الحضارات البشرية اللاحقة والمعاصرة. فالعراقيون الأوائل هم أول من اكتشفوا الزراعة والكتابة، ووضعوا أسس الرياضيات وعلم الفلك وتوصلوا إلى نظرية فيثاغوس قبل فيثاغورس بأكثر من ١٥٠٠ سنة، وصنعوا آلات الحياكة والخياطة وابتكروا إنتاج الفخار والعجلة والسفينة واستخدموا معدن النحاس وصنعوا القصدير وأبدعوا في الفنون، واستخدموا الخيل وابتكروا الفروسية ، وبنوا أول مجتمع سياسي منظم (دول المدن السومرية) وأقاموا نظام الملوكية وتقاليدها، وطبقوا نظرية الحق الإلهي المقدس للملك قبل نظرية توماس هوبز الإنكليزي بأكثر من ٤٥٠٠سنة، وبنوا الدولة الوطنية الموحدة (سرجون.. حمورابي)، وأهدوا الإنسانية أول قانون منظّم للحياة الاجتماعية شكلت أساس القانون العبري وامتدت آثاره للحضارة المعاصرة، وكتبوا أولى الملاحم البطولية الحية وأعظمها (ملحمة كلكامش) وابتدعوا القصص على لسان الحيوانات قبل إيشوب الإغريقي بأكثر من ألفي عام، وأسسوا نظاماً متكاملاً للدين شكل أساس الديانات الرئيسة الثلاث، وعلّموا البشرية العطلة الأسبوعية وتركوا أول كتاب مقدس (ملحمة الخليقة البابلية).. والسومريون هم أصل العراقيين، وهم أجداد إبراهيم الخليل الأب الأكبر لليهود والمسيحيين والعرب..

كان عماد المدينة السومرية هو الزراعة، والموارد الأساسية التي بنوا عليها حضارتهم هي الماء والتراب (الطين) والشمس. وفي ظروف الافتقار إلى مواد الحضارة من أخشاب وأحجار ومعادن، نمت الأعمال التجارية واستمرت أهميتها تشكل مجالاً حيوياً لحضارة وادي الرافدين، بينما نشأت وتطورت الحرف والصناعات بحكم النمو الحضاري في ميزوبوتاميا منذ الثورة الزراعية.

كما تطلب نمو المجتمع وتعقد الحياة الاجتماعية قوانين منظِّمة للعلاقات والتعاملات بين الناس، فشهدت الألفية الثانية قبل الميلاد صدور عدة قوانين سومرية. قانون أور-نمو، قانون لبت- عشتار، قانون أشنونا، وقبلها جميعا إصلاحات أوروكاجينا، وأخيراً صدور شريعة حمورابي قبل قانون موسى بعدة قرون والتي كشفت موادُّها انتحال القانون العبري للكثير منها ولتؤكد- بالإضافة إلى أمور أخرى- أن العهد القديم كتاب وضعي مصدره الرئيس هو الحضارة الرافدينية.

قام مجتمع وادي الرافدين أساساً على طبقتين رئيستين لا مجال للمقارنة بينهما هما الأحرار والعبيد، ضمت الأحرار فئات وشرائح عديدة منها الحاكمة والمتنفذة ومنها

المحكومة (عامة الناس). وجسَّد كل من القصر والمعبد مركز الثقل السياسي والاقتصادي والاجتماعي- الديني لمجتمع وادي الرافدين. فالملك- نائب (ممثل) الإله في حكم أرضه ومخلوقاته، والكاهن- العالم والمفسر لإرادة الإله والوسيط بينه وبين الناس، شكَّلا معاً مصدر السلطة والامتيازات (الحقوق). وكلما اقتربت العلاقة من القصر- المعبد (الاقتراب من الخالق) زادت السلطة والامتيازات، وكلما ابتعدت باتجاه عامة الناس (المخلوق) زادت التبعات إلى حدود السخرة والعبودية.

كان النظام الاجتماعي السائد في حضارة أرض ما بين النهرين هو نظام الأُسرة الأبوية. فالأب رأس الأُسرة شأنه في ذلك شأن الملك في مملكته. وهو المسؤول عن إعالة أُسرته، وله حق بيع أو رهن أحد أو كل أفرادها. وتصل عقوبة الابن العاق إلى العبودية. وكان ضرب الزوجة عادة بابلية وتُقره القوانين الآشورية. وأولوية التفضيل في الإنجاب للذكور، والرغبة عند الأب؛ أن يكون الطفل الأول ذكراً جامحة - الابن البكر الوريث الشرعي وحامل اسم الأب وشجرة العائلة. وكان يرنو إلى هذا "الأمل العظيم" الأب الملك والأب الفلاح على السواء. كما تماثلت نسبياً عادات الزواج والطلاق والتبني والإرث والقضايا والعلاقات الجنسية مع الكثير من القيم السائدة في المجتمع العراقي حالياً. كذلك شاع الزواج الأُحادي مع إمكانية اتخاذ زوجة شرعية ثانية، علاوة على المحظية. وإن جوانب عديدة من حياة المواطن اليومية في ربوع وادي الرافدين قبل أربعة آلاف سنة بقيت تقريباً كما هي حتى الوقت الحاضر. أما بيت البابلي الذي كان قلعته..فهو يماثل البيوت الشرقية الحالية: الحوش والتنور وصفوف الغرف، لتحقيق مطلبين: الاستقلال (العزلة) لا سيما فيما يخص عدم انكشاف نسائه على الخارج، والوقاية من حرارة شمس بابل المحرقة في الصيف.

لعلَّ أكثر جوانب حضارة وادي الرافدين تأثيراً وفعالية على مدى الأجيال التالية ولغاية الوقت الحاضر هو ديانتها التي بنى أُسسها وهياكلها المتكاملة السومريون وأعاد تجميعها وتطويرها البابليون. من جهة أُخرى لم يلعب الدينُ الدورَ الكبير الذي لعبه في حضارة وادي الرافدين في أي مجتمع آخر. لقد كان إنسان- مجتمع هذه الحضارة يعيش في الدين كما يعيش السمك في الماء.. الطبيعة بكل عناصرها الكونية التي كان يعايشها الإنسان يومياً من أرض وسماء وهواء وأمطار وأنهار وفيضانات وملوحة وأمراض وحتى الشعير والخمر..

جسّدت كلٌّ منها إلهاً. والآلهةُ بعد انتصارها في حرب طويلة على قوى الشر (الآلهة القديمة)، خلقت الكون ثم خلقت الإنسان من الماء والتراب (أو دم إله شرير) ليحل محل الآلهة الصغيرة في مشقة العمل والضرب بالسياط، أي خلقته وحددت مصيره بالعمل والعبودية. والآلهة مثل البشر تأكل وتشرب وتتناكح وتغضب وتفرح.. عدا أنها قوى خالدة وخارقة لها القدرة على: الخلق، فعندما يقول الإله للشيء "كن فيكون".. تحديد مواصفات المخلوق وحياته ومصيره مسبقا.. منح عناصر حضارته ووسائل (علامات) لمعرفة رغبات الآلهة وتنفيذها بعد تفسيرها من قبل الكهنة. من هنا فإن وجود الإنسان وعمله وصحته وطول حياته وحياة عائلته مرهونة برضاء الآلهة، وفي غير ذلك (العصيان وعدم الطاعة) تنزل به العقوبات من أمراض وفقر وإملاق وأخيراً الموت. وهذا يُفسر كيف أن الخوف والقلق عاش داخل هذا الإنسان كما عاش الدين في عقله وحياته. ومارس الطقوس الدينية اليومية من صلاة وطهارة وأدعية وترانيم وتراتيل واحتفالات دينية وتقديم النذور والقرابين. وحيث أن الإنسان لا طائل من وجوده في هذه الحياة، وليس أفضل حالاً بعد القبر حيث تعيش روحه في التراب والظلمة، عليه فقد ساده التشاؤم واليأس. وفي هرولته وراء معرفة غده لإرضاء الآلهة غلبت عليه الأساطير والخرافات (القضاء والقدر- النصيب..الأرواح الخيرة - الملائكة والجن الصالحون، والأرواح الشريرة- الشياطين والعفاريت). وأصبح أسير ممارسات وهمية (الفأل، الطالع، تفسير الأحلام، السحر والتنجيم). وهكذا كانت عقيدة القوم تَنسب ذات الإنسان إلى العالم الخارجي "القوى الخارقة" في غياب إرادته.

والآلهة أنزلت نواميس الحضارة للناس، بضمنها الملوكية، واختارتْ إله المدينة واحداً من أهلها لينوب عنها في إدارة شؤونها. ولأن إله المدينة (الإله الحامي) هو الملك والمالك لها، ولأنه اختار الملك لتنفيذ أوامره وتعظيم شأنه، فمن أولويات واجب الملك إذن قيادة شعبه لرفع شأن ومنزلة الإله الحامي في مجمع الآلهة، وهو ما يُجسِّد في نفس الوقت رفع شأن مدينته ومنزلته بين الملوك. وهنا تقبع إحدى المبررات الرئيسة ذات الجذور الدينية العميقة لظهور الصراعات والحروب بين دول المدن المختلفة والتي استمرت بصفة متصاعدة في المراحل اللاحقة من حضارة وادي الرافدين، وهذا التفسير لا ينفي طبعاً الدوافع الاقتصادية بقدر ما يبررها.

قامت حضارة وادي الرافدين على قاعدة دينية. من هنا ركّز العلماء- الكهنة جهودهم في مجالات المعرفة كافة من أجل كشف رغبات الآلهة وتنفيذها. وهذا هو

السبب الذي يجعل التقسيم الحديث للفكر والمعرفة إلى فنون وعلوم تطبيقية يبدو غريباً عن تصورهم، حيث اعتبروا كل العلوم ذات أهمية متساوية، ولم يستطيعوا ملاحظة عملية نشوء وتطور المعرفة كما هو حاصل في العصر الحديث.

ومع أنهم عالجوا قضايا لا تقل شأنا وخطورة عما كان يشغل الفلسفة اليونانية والفكر الحديث، إلا أن تفكيرهم في معالجتها جاء خيالياً وشعرياً وأسطورياً. وغاب عنهم المنهج الموضوعي للفلسفة اليونانية على أساس الاستقراء والاستنتاج. لقد أسسوا علومهم وفنونهم على مبادئ ما ورائية (ميتافيزيقية) فأوصدوا الباب أمام الجهد المثمر عن تفسيرات عقلانية لمنشأ الظاهرة. ورغم اكتشافهم للكثير من الأجوبة لأسئلة تخص "متى" و "ماذا" يحدث هذا أو ذاك، غير أن تلك النظرة الطوباوية منعتهم من أن يسألوا أنفسهم "كيف" و "لماذا" حدث هذا أو ذاك. ولم يجربوا أبداً تأسيس نظريات في هذه المجالات، طالما اقترن أسلوب تفكيرهم بالتركيز على مبدأ التمثيل والقياس، أي تفسير وقوع حدث ما بحدث سابق عليه.

وهكذا حصرت هذه الحضارة العقل البشري وكافة فروع الحياة في مجالات فكرية محدودة تحيطها أعداد ضخمة من القيود والمحرمات والممنوعات، لأن الدين هنا أصبح وعاء هذه الحضارة وعاملاً مستقلاً محدِّداً ومقيداً لحركة وتطور عناصرها الدنيوية التي أصبحت تابعة للدين، على خلاف الحضارة المعاصرة التي جعلت من الفكر الإنساني وعاءها وحررت العقل البشري من القيود للانطلاق بلا حدود نحو اكتشاف المجهول، ووفرت حرية النمو والتطور لعناصرها، بل وأصبح الدين نفسه أحد عناصر هذه الحضارة ومتكيفاً معها.

ولكن يجب الحذر من بناء انطباع بأن القوم كانوا بدائيين أو متوحشين مشبعين بالعنف والشرور، بل العكس تماماً، فالمعتقدات الدينية نفسها فرضت عليهم الطاعة للإله والملك والقانون والنظام الاجتماعي، وعلّمتهم قيم الصدق والمحبة والتعاون والمساعدة وحرمت عليهم السرقة والاعتداء والأذى، وقيما حضارية معاصرة كثيرة لا زالت تعيش معنا، وهيأت لهم بناء السلام الاجتماعي لشعب متحضر. يقول عالم السومريات الأمريكي- كريمر- في كتابه النفيس: التاريخ يبدأ من سومر: "كان السومريون يتمسكون بالطيبة والصدق، بالقانون والنظام، بالعدل والحرية، بالاستقامة والصراحة، بالرحمة والشفقة، وكانوا يمقتون الشر والكذب، والفوضى والاضطراب، والظلم والقهر، والأفعال الآثمة والإيذاء، والقسوة وعدم الشعور".

المصادر

العربية

١- أوبنهايم، ليو، بلاد ما بين النهرين، ترجمة سعدي فيض عبدالرزاق، وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة الكتب المترجمة (١٠٤)، بغداد . ١٩٨١.

٢- بارو، أندري، سومر فنونها وحضارتها، تقديم أندري مالرو، ترجمة وتعليق عيسى سلمان (و) سليم طه التكريتي، بغداد، ١٩٧٩.

٣- باقر، طه، مقدمة في أدب العراق القديم، جامعة بغداد، كلية الآداب، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٦.

٤- باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة- الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين، الجزء الأول، دار الشؤون الثقافية، وزارة الثقافة والإعلام، الطبعة الثانية، بغداد، ١٩٨٦.

٥- حضارة العراق، تأليف نخبة من الباحثين العراقيين (١٣ جزء)، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٥.

٦- رشيد، عبدالوهاب حميد، مستقبل العراق، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ١٩٩٧.

٧- رشيد، عبدالوهاب حميد، الديمقراطية والتحول الديمقراطي "مناقشة فكرية وأمثلة لتجارب دولية"، ISBN: 91-630-9332-4، السويد، ٢٠٠١.

٨- رو، جورج، العراق القديم، ترجمة وتعليق حسين علوان حسين، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الثانية، بغداد، ١٩٨٦.

٩- ساكز، هاري، و.ف، الحياة اليومية في العراق القديم (بلاد بابل وآشور)، ترجمة كاظم سعدالدين، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، بغداد، 2000.

١٠- سليمان، عامر، العراق في التاريخ القديم (موجز التاريخ السياسي)،جامعة الموصل، دار الكتب العامة للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٩٢.

١١- شمّار، جورج بوييه، المسؤولية الجزائية في الآداب البابلية والآشورية، ترجمة سليم الصويص، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١.

١٢- عبدالواحد، فاضل (و) سليمان، عامر، عادات وتقاليد الشعوب القديمة، دار الكتاب للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٧٩.

١٣- العراق في التاريخ، مجموعة باحثين عراقيين، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٣.

١٤- علي، فاضل عبدالواحد،من ألواح سومر إلى التوراة، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، بغداد، ١٩٨٩.

١٥- علي، فاضل عبد الواحد، سومر أسطورة وملحمة، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الثانية، بغداد، ٢٠٠٠.

١٦- غولاييف، فاليري، المدن الأولى، ترجمة طارق معصراني، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٩.

١٧- ديلتش، فردريك، بابل والكتاب المقدس، ترجمة إيرينا داوود، العرب للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٧.

١٨- كلنغل، هورست، حمورابي ملك بابل وعصره، ترجمة غازي شريف، مراجعة علي يحيى منصور، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، بغداد، ١٩٨٧.

١٩- كونتينو، جورج، الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي (و) برهان عبد التكريتي، وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة الكتب المترجمة (٧٦)، بغداد، ١٩٧٩.

٢٠- الماجدي، خزعل، متون سومر، التاريخ، الميثولوجيا، اللاهوت، الطقوس، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمّان، ١٩٩٨.

٢١- الماجدي، خزعل، الدين السومري، دار الشرق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمّان، ١٩٩٨.

٢٢- الماجدي، خزعل، إنجيل سومر، منشورات الأهلية، الطبعة الأولى، عمّان، ١٩٩٨.

٢٣- حنون، نائل، عقائد ما بعد الموت في حضارة وادي الرافدين القديمة، رسالة ماجستير، الطبعة الثانية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦.

٢٤- الوردي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، (ستة أجزاء) ج٤، دار نوفان، الطبعة الثانية، لندن، ١٩٩٢.

٢٥- يونغ، كيفن، العودة إلى الأهوار، ترجمة د. حسن الجنابي، دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة الأولى، دمشق،١٩٩٨.

الأجنبية

1- The City in the Ancient World, By Hammond,Mason,(assisted by Lester J. Barston),Harvard University,USA,1972.

2- De Mieroop,Marc Van,The Ancient Mesopotamia City,Clarendon Press,Oxford,UK,1997.

3- The First Impire,By Fostage, Nicholas, Belgium,The Making of the Past, Brepols Ltd.,Turnhout,Augaeur zeitung Kemten,1977.

4- Gender and History: Gender and the Body in the Ancient Mediterranean,Edited By Wyke, Maria, Blackwell Publishers Ltd., Oxford, UK, 1998.

5- Hallo,William W., and Others, The Ancient Near East History,Yale University,Harcourt Brace Jovanovich,Inc.,USA,1971.

6- Hawkes,Jacquetta,First Great Civilization,London,1973.

7- IRAK,Utrikespolitiskainstitutet, Stockholm,1995.

8- Mass Deportation and Deportees in the New-Assyrian Empire,By Oded,Bustenay and Others,Bonn,Germany,1979.

9- Problems in Ancient History,Vol., 1, The Ancient Near East and Greece, By Kagan,Donald,London, 1970.

10- Robinson Jr., Charles Alexander, Ancient History- From Prehistoric Times to the Death of Justinian, Prepared by Alan L.Boegehold, The Macmillan Company, Collier- Macmillan Ltd., London, 1976.

11-Weber,Max, The Agrarian Sociology of Ancient Civilizations, Translated by R. I. Frank, NLB, Bristol, UK, 1976.

12- Zetterholm,Tore,Igar hade vi Nebudkadnessar- En bok om Irak, Wilken, BTJ, Lund, Sweden, 1991.

الكاتب في سطور

١- حصل على بكالوريوس اقتصاد (الأول بامتياز) من الجامعة المستنصرية ببغداد (١٩٦٩).
٢-أول خريج ماجستير اقتصاد من جامعة بغداد (١٩٧٤).
٣- نال شهادة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة القاهرة (١٩٨٠).
٤-اشتغل في مجال التدريس و/ او البحوث في المؤسسات التالية:الجامعة المستنصرية ببغداد(١٩٦٩-١٩٧٦)،المعهد العربي للتخطيط بالكويت (١٩٧٦-١٩٨٥)،ديوان المحاسبة بالكويت(١٩٨٦-١٩٨٨)، الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب بالكويت (١٩٨٩-١٩٩٠).
٥- انتقل وعائلته بعد حرب الخليج الى السويد بمساعدة UNHCR (١٤آذار/مارس ١٩٩٢).
٦- ساهم في بعض الدراسات المؤسسية، وشارك في عدد من الندوات والمؤتمرات العلمية واجتماعات الخبراء ببحوث وتعقيبات، ونشر مجموعة مقالات ومراجعات كتب في المجلات العربية المتخصصة. وصدرت له الكتب التالية:
(١) دراسات في العلاقات الاقتصادية العربية، مطبعة الرواد، بغداد ١٩٧٤ .
(٢) تقييم نتائج تأميم الصناعة التحويلية في العراق(١٩٦٢-١٩٧٢)، مطبعة الغري، النجف ١٩٧٦ (رسالة الماجستير منقحة).
(٣) التكامل الاقتصادي العربي، وزارة الاعلام، سلسلة دراسات (١٢٨)،دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٧.
(٤) التنمية العربية ومدخل المشروعات المشتركة،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٢ (رسالة الدكتوراه منقحة).

(٥) التجارة الخارجية وتفاقم التبعية العربية، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٤.
(٦) الامن الغذائي ومهمة التنمية العربية،معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٥.
(٧) الدور التكاملي للمشروعات العربية المشتركة "الطموحات والأداء"،شركة كاظمة للنشر بالكويت والمؤسسة الجامعية للدراسات،بيروت ١٩٨٥.
(٨) الإنتاجية والتنمية الاقتصادية،دار الشباب للنشر،قبرص ١٩٨٩.
(٩) معجم المؤسسات المشتركة "العربية والاقليمية والدولية"،دار الشباب للنشر، قبرص، ١٩٩٠.
(١٠) مستقبل العراق "الفرص الضائعة والخيارات المتاحة"، دار المدى للثقافة والنشر،دمشق، ١٩٩٧.
(١١) العراق المعاصر، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق ٢٠٠٢.